

أبراهيم أبو الأنبياء



تأليف
عباس محمود العقاد



منشورات المكتبة العصرية
طيدا - بيروت

maged1200@yahoo.com

حقوق الطبع والنشر محفوظة

للمكتبة العصرية

بيروت - تلفون : ٢٣٧٥٤٥ - ص.ب. : ٨٣٥٥

تقديم

هذا الكتاب « ابراهيم أبو الأنبياء » للاديب المفكر الباحث الفيلسوف عباس محمود العقاد من أعظم ما ألفه من الكتب ، وأعجب ما خلفه من الآثار . فهو عظيم ، وعظمته تقوم على أنه يدور حول سيرة الرجل الالهي الذي يعتبره تاريخ الأديان أول من نافح عن فكرة التوحيد ، وأول من تصدى للوثنية وازدراء أهلها وما يعبدون . وهو النبي الذي اعتبره من جاء بعده من الأنبياء المثل الأعلى في الدعوة الى الحق ، والرائد الاول الذي أرشدهم الى واحة الهداية ، ودلهم على منتجع الرشد والاستقامة والايمان . وهو الذي طبعت الديانات الثلاث الكبرى : اليهودية ، والمسيحية ، والاسلام ، بطابع دعوته ورسالته ، مما جعله جديرا كل الجدارة بأن يدعى أبا الأنبياء ، كما جعله كفاحه في سبيل اعلاء كلمة الله ، وخضوعه للارادة الالهية ، ابراهيم الخليل ، خليل الرحمن .

وأما وجه العجب في هذا الكتاب فهو يكمن في هذا الحشد الهائل من الأسانيد التاريخية ، وآراء الباحثين في مختلف القضايا المتعلقة بحياة ابراهيم الخليل ووجوده ، وكنه دعوته ، وميدان جهاده ، واقامته ورحيله ، وما تعرض له من مشاق وأخطار في حله وترحاله ، وفي مختلف شؤونه وأحواله . ولقد يجد المطلع عذرا في هذا العجب اذا علم أن المؤلف البحاث العظيم قد أورد في كتابه جميع ما حكاه القرآن الكريم عن ابراهيم الخليل في مختلف سوره وآياته فلم يتجاوز ما أورده من ذلك خمس صفحات في حين أن الكتاب قد بلغ أكثر من مائتي صفحة مفعمة كلها بتحقيقات وشروح واستنتاجات من جانب المؤلف تصب جميعا في مصب واحد لا تتعداه هو التأييد المطلق ، والتصديق الذي لا ينقض لما جاء في القرآن المجيد من أخبار ابراهيم الخليل ودعوته ورسالته .

وإذا أمعنا النظر في المراجع التي اعتمد عليها المؤلف الباحثة في تفصيل سيرة ابراهيم الخليل وجدنا أنه لم يقتصر على المراجع الدينية من اسرائيلية ، ومسيحية ، وصابئة ، واسلامية ، بل راح يعمق النظر ، ويطيل الوقوف عند أبحاث علماء الآثار وما عثروا عليه من أحافير ، وما أوردوه من تمليقات على جميع ما استطاعوا الوصول اليه . وعلى هذا يمكن القول ان هذا الكتاب هو في الواقع لا يضم سيرة ابراهيم الخليل وتاريخ حياته فحسب، بل هو يشمل في ما يشمله تاريخ اهتداء الانسان الى التدين الصحيح ، وعبادة الاله الواحد ، وتاريخ الثورة على الوثنية في جميع مظاهرها من عبادة الأسلاف ، وعبادة الأصنام ، وعبادة الطبيعة وما فيها مما يروع ، ويبعث الرهبة في القلوب .
والخلاصة ان هذا الكتاب آية من آيات البحث العلمي الرصين ، فيه أثر العاطفة الدينية الخالصة ، كما فيه طابع العقل المتزن المستقيم .

ويعود الفضل في اعادة طبع هذا الكتاب الى السيد شريف عبد الرحمن الأنصاري صاحب المكتبة العصرية في صيدا وبيروت الذي شعر بوجود الحفاظ على آثار العقاد الخالدة فبذل في سبيل ذلك كل جهد مستطاع ، وفقه الله لكل خير .

صيدا - منيف لطفي

خليل الرحمن و خليل الإنسان

في العالم اليوم أكثر من ألف مليون انسان يدينون بالموسوية والمسيحية والاسلام ، وهى الأديان التى جاء بها موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام ، وهم الأنبياء الثلاثة الكبار الذين ينتمون جميعا الى الخليل ابراهيم .. لا جرم^(١) يسمى خليل الرحمن ..

ولا جرم تتجمع الجهود كلها للبحث عن تاريخه المجهول فى أغوار الأرض ، فان علم الأحافير لم ينحصر فى البحث عن تاريخ أحد قط كما انحصر فى البحث عن تاريخ أبى الأنبياء ، وما تجردت البعوث الى العراق وفلسطين ومصر لسؤال الأرض عن مكنون من أسرارها كذلك السر المكنون ، الذى ينطوى على أعمق أسرار الروح والضمير ..

قال منقّب من أولئك المنقبين الذين عثروا باسم الحفريين : ان الناس قد بدأوا بالحفر فى الآثار طلبا للذهب ولقايا الحلى والجوهر ، ثم عرف الناس شيئا أنفس من تلك المعادن يبحثون عنه ويتهافتون على استخراجها وتحصيله : وهو التاريخ المقدس ، أو تاريخ المعانى العليا التى ترتفع به الى السماء ، ولها مستودع فى جوف الرغام^(٢) .

وكل شئ يغليه الانسان يحفزه الى ذلك السر الذى تقسمته الأرض والسماء ..

فالى جانب البحث عن أصول العقائد يبحث المنقبون فى تاريخ الخليل عن فتوح لا نظير لها فى تاريخ الانسان ..

وقد أكثر المؤرخون من القول فى أبناء الفتوح التى غيرت مجرى التاريخ أو غيرت علاقة الانسان كله بالعالم الذى يحيط به ويحتويه .. ولكن المؤرخين لا يستطيعون أن يذكروا فتحا من تلك الفتوح أعظم عملا وأبقى أثرا فى تاريخ الانسان من تلك الفتوح التى اقترنت بدعوة الخليل ..

(١) لا جرم : فى الاصل بمنزلة « لا بد » ثم تحولت الى معنى القسم فصارت بمنزلة « حقا » . (٢) الرغام : التراب .

ان دعوة الخليل قد اقترنت بالتوحيد . واقترنت بميزان العدل الالهي ،
واقترنت باعلاء العبادة الى ما فوق الطبيعة والجثمان ..
وهذه هي الفتوح التي لا نظير لها فيما تحدث عنه المؤرخون من فتوح
الحياة الانسانية ، منذ أقدم عصورها الى العصر الحديث ..
لا نظير لها فيما فتحه الانسان من هذا العالم حين سخر النار أو سخر
الحيوان أو سخر الكهرباء ، أو سخر الذرة على جلاله فعلها وضآلة
قدرها ، وهي أقوى المسخرات فيما عرفه الى اليوم ..
هذه فتوح فيما يملكه الانسان ..
أما تلك الفتوح ففيها ملاك الانسان كله ، فيما يعلمه وما لا يعلمه ،
وفيما يديه وفيما يخفيه ..
تلك فتوح غيرت عالم الانسان الظاهر وعالمه الباطن ، وليس قصارى
الأمر فيها أنها عبادة جديدة أفضل من عبادات سبقتها ، وان كانت العبادة
الفضلى غنما يغليه من يقتنيه ، ويفديه بكل ما يعيه وما لا يعيه ..
كلا .. بل هي عبادة فضلى وفكر فاضل ونظر جديد الى الكون والى
الانسان وبني نوعه في وحدته وفي اجتماعه ..
هي فتوح تصحيح مقاييس الفكر وتبدل علاقة الانسان بنفسه وبدنيته .
وتحسب من أجل ذلك في سجلات العلم ورياضات الخلق وقوانين الاجتماع
ان حقائق الكون الكبرى لن تنكشف لعقل ينظر الى الكون كأنه
أشئ مفرقة بين الأرباب ، يتسلط عليها هذا بارادة ، ويتسلط عليها
غيره بارادة تنقضها وتمضى بها الى وجهة غير وجهتها ، فلم يكن التوحيد
عبادة أفضل من عبادات الشرك وكفى . بل هو علم أصح ونظر أصوب
ومقياس لقوانين الطبيعة أدق وأوفى ، ومن هنا صدرت كل فكرة عظيمة عن
الكون من عقل فيلسوف مؤمن بالوحدانية ، وان لم تبلغه دعوة الأنبياء ..
أما ميزان العدل الالهي فهو الذى أقام المساواة بين الناس على دعامتها
الراسخة . وكل ما عداها من دعامة فانما هي دعائم القوة ممن يقدر
عليها ، سواء اقتدر عليها بسطوته الباطشة أو بتأليب الطوائف والجماعات

وما كان للعدل بين الناس من سبيل وهم يقيسون بعضهم الى بعض ،
ويطلبون المساواة بين أقوى الأقوياء منهم وأضعف الضعفاء ..
فاذا ارتفع الميزان الى اليد الالهية فهذا القوى مهما يبلغ من القوة ،
وذلك الضعيف مهما يبلغ من الضعف ، نداءً ان متساويان ، ومخلوقان أمام
خالق واحد . ما زاد من قوة أحدهما فهو من عطاء ذلك الخالق ، وما
نقص من قوة الآخر فهو من قضائه ومن دواعى رحمته وبلائه ، واليه
المرجع فى حسابه أو جزائه ، فلا يدخله أحد فى حساب غير ذلك
الحساب ؛ ولا يعرضه أحد على ميزان غير ذلك الميزان

وقد ارتفع الانسان كله حين رفع عبادته من الطبيعة الى ما فوق
الطبيعة ، وحين أصبحت حاجته الى المعبود شيئاً أرفع من مطالب الأبدان
وضرورات الفرائز والطباع ..

كان أقل من الطبيعة فأصبح أعظم منها ..
كان مسلوب الحيلة أمامها ، فأصبح له من فوقها مرجع لا يعنيه
غضبها ورضاها ..

ولم يكن له الا أن يخضع لها أو يحتال عليها ..
فأصبح له أن يواجهها ويقف أمامها ، بل على أكتافها ..
أصبح له كيانه الأدبى فى وجهها ..

وليس الفتح المبين فى هذا أنه يسخرها ويستفيد منها ، بل الفتح المبين
أنه يدينها ويدين سلطانها ، وأنه يرى فيها ما يحسن وما لا يحسن ، وما
يرضاه ضميره وما لا يرضاه ..

وان الواقع الذى لا مرية فيه أن الانسان قد ملك الذرة الصغرى
فملك من الطبيعة قوتها الكبرى ، وانه خلىق بهذه القوة أن يضل
وبطغى ، ولكن اليقين الحق أنه لن يكبح ذلك الطغيان من نفسه بقوة
الطبيعة صغرها وكبرها ، وانما يكبحه - اذا قدر له أن يكبحه -
بسلطانه من ذلك الفتح المبين ، ما بقى له وما زاد عليه بعد آلاف السنين
هذه الفتوح قد عرفت جميعاً قبل عصر الخليل ، ولكنها لم تقترن بدعوة

قط في عالم النبوة قبل دعوته عليه السلام
وهذا هو الفارق المهم في العواقب وفي مراحل التاريخ
أو هو الفارق بين دعوة النبي وبين غيرها من الدعوات
فالتوحيد لم يكن مجهولا قبل عصر ابراهيم ، وكذلك ميزان العدل
الالهي ، وكذلك عبادة « الحق » فوق الطبيعة وفوق مطالب الأبدان
كان المصريون الأقدمون يؤمنون بالاله الواحد ، وكان من معتقداتهم
ان للروح في العالم الآخر ميزانا يقدر لها الحسنات والسيئات ، وكانت
كلمة الله هي القوة التي تفعل ما تريد
ولكنها لم تكن دعوة نبوة ورسالة ، ولعلها جاءت في زمن لم تنتهياً
فيه النفوس للعلم بالوحدانية ونبذ الشرك وتعدد الأرباب
وكانت في جملتها دعوة كهان يسترون ما يعلمون ولا يبوحون للناس
بأسرار الديانة الا بمقدار
وكان ميزان السماء يزن لكل روح حسناتها وسيئاتها ، ويحسب الملوك
من الأرباب الذين يتصرفون في الأرواح خلال الحياة وبعد الممات ..
ولما جهر « اخناتون » بدعوة التوحيد والمساواة بين عباد الله صدرت
دعوته من قصر الدولة كأنها مراسيم الملك وقوانين الحكومة ، ولم تلبث
أن بطلت في قصر الدولة نفسه بمراسيم من قبيل تلك المراسيم ، وقوانين
يطيعها الناس أشد من طاعتهم لتلك القوانين ، لأنها تستعين بدهاء
الكهان وسلطان العرف والعادة
وكان أناس من الحكماء يعرفون الله كأنهم يعرفون حلا مقنعا لمسألة
الوجود ، أو كأنهم يعرفونه خالقاً للكون ، ولا يزيدون
ومما لا ريب فيه أن عقيدة التوحيد قد سرت من مصر في صورة من
الصور الى بلاد المشرق ، ومنها بلاد البحر الأبيض ووادى النهرين
ومما لا ريب فيه أنها كانت سر الخاصة وذوى الرئاسة في المحاريب
والتصور ، وان تعدد الأرباب قد سرى منها كذلك الى الشعوب
سريان العرف والمحاكاة ..

أما الاله الواحد الذى اقترن بدعوة ابراهيم فلم يكن حل مسألة ، ولم يكن سر أحبار وحكماء ، ولم يكن خالق الكون والناس ولا مزيد بل كان خالق الكون والناس ، وحاكم الكون والناس ، وكان منه الأمر والنهى ، واليه المرجع والمآب

كانت عبادته « مسألة حية » تمتزج بسرائر النفس وتنبعث منها فضائل الخير ، ولا تنزوى عنها زاوية فى الكون ولا فى ضمير الانسان كانت دعوته صرخة تسمع وتتجاوب بها الآفاق ، ولم تكن لغزا يخفى وتتجاجى^(١) به العقول

كانت صحبة البيت والطريق ، وصحبة اليقظة والمنام ، وصحبة العزلة والجماعة ، وصحبة الحياة قبل الميلاد وبعد الموت ، ولم تزل حتى أصبحت وهى صحبة الخلود الذى لا يعرف الفناء ولم تصبح كذلك قبل رسالة النبوة حين انبعث بها النبى أبو الأنبياء .. حين بشر بها ابراهيم ..

وما كان لنبوة واحدة أن تؤدى رسالة التوحيد وتفرغ منها فى عمر رجل أو عمر جيل .. وانما هى نبوة بعدها نبوات .. ولو كانت دون ذلك خطرا لكفى أن تقوم بها دعوة واحدة ، وأن تتكفل لها ببقائها ، ولكان بها الغنى عن التعقيب والتذكير ..

ولكنها على خطرها هذا لا تتم فى رسالة واحدة ، ولا تستغنى عن مرتقى بعد مرتقى ، ثم عن قرار بعد قرار

وعاش الخليل ما عاش والتوحيد فى قومه مشوب^(٢) بالشرك والضلال . وفارق الدنيا والخلفاء من بعده يتقدمون وينكسون ، ويستقيمون وينحرفون ، ولم ينقض من بعده عهد الا وهو ينبىء الناس أنها نبوة تتلوها نبوات ، وأنها أمانة موروثه فى أعقابه لا تنقطع فى جيل ، ولا بد لها من ورثة أبرار ..

ومن شك^٣ فى ذلك فانما هو شك^٤ فى بداهة العقل وضرورة الزمن وحكم التاريخ ، فوق الشك^٥ فى الكتب والأنبياء ..

(١) تتجاجى : تحاجى القوم : تطارحوا الاحاجى أي الالغاز . (٢) مشوب :

مخلوط .

وانما المستحيل في العقول أن تنفرد رسالة ابراهيم في أعقابه فلا تأتي بعدها رسالة في أولئك الأعتاب.

ولا دليل في العقول على نسب الأعقاب أقرب من هذا الدليل ، ولا دليل على المرسلين منهم أثبت منه عند النظر القويم

فلو مضت رسالة ابراهيم بغير رسالة بعدها لكان هذا هو العجب المردود ، ولو قام بتلك الرسائل التالية فرع من غير أصله ، وثبت من غير معدنه لكان هذا أعجب وأولى بالرد والارتباب

ولا يعقل العقل الا أنه نبي أبو أنبياء ، كما كان وكما ينبغي لا محالة أن يكون .. وكف بين توحيد الأعقاب وبين التوحيد كما تلقاه عصر الخليل من بون بعيد . انه لأبعد من مسافة الزمن بينهما ، وليست مسافة الزمن بينهما بالشوط القريب .. ولكن الذي يبدأ لابد أن يبدأ ، ولا بد أن يبدأ من خطوته الأولى ولا يبدأ من منتهاه ..

والى ذلك المبدأ يرجع اليوم ألف مليون من بنى الانسان أو يزيدون ، لا أول لهم في قداسة الحياة غير ذلك الأول ، ولا رائد لهم في موازين العدل والصلاح قبل ذلك الرائد ، ومن خلف على أعقابه من الرواد

ومن ذلك المبدأ شخص ذلك الركب الحاشد في طريقه الى الله ، وتقدم من اسم الله ذى العرش الى اسم الله الرحمن الرحيم

انه لا جرم خليل الرحمن .. وانه لا جرم خليل الانسان .. وسيرته في الصفحات التالية هي سيرة الخليلين ، على هدى الأسلاف ، وعلى هدى الأعقاب ..

وعلى هدى الأسلاف والأعقاب ينبغي أن تكتب كل دعوة عامة ، وأن توصف كل بعثة نبوية خُوطب بها الناس على اختلاف المدارك والمعارف والطباع ..

فنحن لا تصور الدعوة في صورتها الحقيقية الشاملة الا اذا عرفنا صورتها في نفوس المخاطبين بها ، سواء منهم من فهم أو من لم يفهم ، ومن أحسن الاعتقاد أو أساء

وعلى قدر العلم بالضلالة نفهم عمل الهداية التي أزلتها أو عاجت أن
تزيلها بما كان لها من الجهد والوسيلة
فلا غنى في دراسة تاريخ الخليل عن الاحاطة بما ورد عنه وقيل فيه
من شتى المصادر في مختلف البيئات والعصور
وينفعنا الخطأ هنا كما ينفعنا الصواب
بل الخطأ هنا من الصواب أنفع ، لأن رسالة النبي قائمة على ازالة
خطأ وتبيين الضلالة فيه ، فعلى قدر ما نعلمه من جوانب الخطأ وخباياه
نعلم القوة التي تتصدى له وتصلح لعلاجه والغلبة عليه .

ولهذا نود أن نلم في كتابة هذه السيرة بكل طرف ، وأن نذهب فيها الى
كل وجهة ، ولا تقتصر على المعتمد منها في مذهب واحد أو نحلة واحدة ،
سواء عرضنا لها من ناحية الأديان أو من ناحية للباحث والآراء التي رددتها
التواريخ وكشفت عنها البعوث الحفرية من القرن الثامن عشر الى الآن
ان منهج البحث تمليه علينا طبيعة البحث نفسه في الزمن الذي نكتبه
فيه ، ونحن ندرس سيرة الخليل كما وضحت لنا منذ فاتحة القرن العشرين
ولقد أثار القرن العشرون في هذه السيرة مشكلات لم يعرفها الأقدمون
وأتى فيها بمعلومات من بطون الحفائر وخفيا الآثار ، لم تكن في حساب
أحد ممن عرضوا لهذه السيرة ، قبل مائة سنة

من هذه المشكلات التي أثارها القرن العشرون وجود ابراهيم في
التاريخ : هل هو شخصية تاريخية ، أو هو صورة من صور الخيال
تجمعت حولها متفرقات العقائد من هنا وهناك ؟ ..

ومن المشكلات التي أثارها هذا القرن علاقة ابراهيم بمكة وبيت الله
الحرام : هل ذهب ابراهيم الى مكة ؟ وهل كانت له علاقة ببيت الله
الحرام فيها أو تلك علاقة لم تفهم على سند صحيح من الواقع ، ولم
تنجل الدراسات العصرية عما يؤيدها بالدليل المقبول ؟ ..

ونحن نكتب هذه السيرة وأماننا هذه المشكلات من مصادرها
القوية ، وأماننا كذلك أسبابها وأسباب الاعراض عنها والرد عليها ..

ونجعلها بداءة فنقول انها لا تقوم على سند من العلم سواء كان الباحث الحديث ينفي وجود ابراهيم جزما ويقينا أو يشك في وجوده ولا يقطع باليقين الى جانب النفي أو جانب الاثبات ..

فالذى ينفي وجود ابراهيم جزما ويقينا لا يستند الى حجة واحدة من حجج العلم ولا يزيد على مجرد الانكار . والذي يشك يبنى شكه على أسباب لا يعتبرها العلم ولا العقل من أسباب الشك في وجود شيء .. لأنه يستند في شكه الى كثرة الأعاجيب والخوارق والأساطير التي تخللت سيرة ابراهيم كما رواها الأقدمون

ومثل هذا السبب لم يبطل وجود شيء قط وان كانت أعاجيبه وخوارقه وأساطيره مما ترفضه جميع العقول في العصر الحديث

فهذه الشمس يضرب بها المثل في الظهور والثبوت ، وليس أكثر من الخرافات التي رويت عن مشرقها ومغربها وعن نشأتها وحركتها ، وعن الديانات التي تقدسها وتفرض عبادتها ، وليس أكثر في العصر الحاضر من الخلاف على عمرها وحقيقة تكوينها وأسباب حرارتها وطبيعة مادتها ، لأنها هي طبيعة المادة على العموم

والهرم الأكبر لا يمتري في وجوده أحد ، ولم يذكر عن ابراهيم بعض

ما ذكر عنه من الأسرار

ومن الزراية بالعلم أن يقوم الشك على غير أساس ..

فليست الحقيقة خصما لنا في محكمة نقول له : تقدم أنت بجميع أسانيدك والا أنكرا علينا دعواك ..

وانما الحقيقة قضيتنا نحن وليست بدعوى خصم يلزمه الدليل ولا يلزمنا .. فما لم يكن للشك سبب فهو زراية بالعلم وزراية بالعقل وزراية بأمانة التفكير ..

ومن السخف أن نلزم الأقدمين بالبرهان على سيرة ابراهيم ولا نلزم به أنفسنا ، كأنهم أصحاب الشأن كله ونحن ثمة غرباء منفرجون فلا موجب للجزم بانكار وجود ابراهيم ولا للشك في وجوده ، اعتمادا

على كشف جديد من كشوف العلم في القرن العشرين
أما علاقته بمكة والبيت الحرام فالأمر فيها أعجب من أمر المختلفين
على « شخصيته التاريخية »

لأن الذين ينكرون تلك العلاقة لم يدعوا لها سنداً من العلم ولا من
الكشوف العصرية ، بل هم يعتمدون على بعض المصادر الدينية للجزم
ببطلان المصادر الأخرى

أو هم يعتمدون على المصادر الاسرائيلية للجزم ببطلان المصادر
الاسلامية ولا شأن للعلم الحديث هنا .. بل هو تمييز رواية دينية على
رواية دينية تخالفها ، ولا محل لإقحام العلم العصري بين الروايتين

بل هناك محل للحفاظ الشديد في قبول الرواية الاسرائيلية ؛ لأنها
امتزجت بسياسة الملك والتنازع عليه ، وكل دعوى المملكة الاسرائيلية
في الزمن القديم قائمة على الأسلوب الذي كتبت به سيرة الخليل في
أيامه الأخيرة على التخصيص

هذه نظرنا الى المشكلات التي طرأت على سيرة ابراهيم في القرن
العشرين ، وهذه نظرنا الى المعلومات التي أتت بها من كشوفه وأحافيره
وتعليقاته ، ومبلغ حقها في تمحيص السيرة انها تفسر بعض الغوامض
ولكنها لا تنفي « الشخصية التاريخية » ولا توجب الشك فيها بحجة
علمية ، وسنرى أن المقابلة بين المعلومات الحديثة وروايات الكتب الدينية
وروايات الأقدمين تؤدي لنا عملاً غير النفي والانكار والتردد بين الشك
واليقين : تؤدي لنا عمل الغربال والمصفاة ، ولاتنفي غير الحثالات^(١) والقشور
ولهذا سترجع في سيرة الخليل الى جميع مراجعها

سنرجع الى كتب الأديان التي لها علاقة بسيرة الخليل ، والى كتب
التواريخ وروايات الأقدمين : والى كتب الباحثين في الحفائر والآثار ،
ولاسيما الكتب التي تعتمد مؤلفوها أن يبحثوا في مواطن السيرة ومطابقتها
من الألف الثالثة قبل الميلاد ، بين آثار العراق وفلسطين ومصر والجزيرة
العربية وغيرها من مظان السيرة التي تتأخر تلك الأقطار

(١) الحثالات الحنالة من الطعام ما يحرقه من زوان ونحوه مما

لا خير فيه فيرمى به . والردي من كل شيء

والأديان التي نرجع الى كتبها ومصادرها هي الاسرائيلية والمسيحية والاسلام والصابئة ، وهذه الديانة الأخيرة أقل الديانات ذكرا للخليل في كتبها ، ولكنها احتفظت ببقايا كثيرة من عقائد البابليين وأخذت من الديانات الوثنية والكتناية في فارس والعراق وفلسطين وجزيرة العرب ، فهي مرجع لا يهمل عند الكلام على دعوة تتصل بجميع هذه الديانات ..

ومنهجنا في الأخذ من المراجع أن نقتبس ما جاء في كتب الدين ثم نردفه بتفسيره من كلام أهله وكلام الثقاة عند أصحابها ، حتى نستخلص منها جميعا لباب السيرة فيها ، ونستوفى منها ما تعطيه في موضوعها

وننتقل من كتب الأديان الى التواريخ التي تعتمد عليها وعلى المآثورات المروية ، ثم نشفع ذلك بمحصول التاريخ الحديث الذي استنبطه الحفريون وعلماء الآثار من البحث في المراجع الأثرية

ولا ننوى أن نقحم على هذه المراجع تعليقا لا يستلزمه سياقها ، بل نمشى مع كل مرجع مقبول أو غير مقبول حتى يقيم لنا معلما هاديا من معالم الطريق ، وقد يجيء المعلم الهادي من طريق الرفض كما يجيء من طريق القبول ، فان الذى يقول لنا : لا تسيروا من هنا ، كالذى يقول لنا نبيروا من هناك ، وكلها صالح للهداية واجتناب الضلال

فاذا أوضحت هذه المعالم آخر الأمر لم تبق الا الخلاصة التي يصح التعويل عليها ، وعلى قدر طول الطريق يكون القصد فى ختامه ، لأنه الختام الذى تعددت من أجله المعالم والأعلام

ونحن على رجاء مع القارئ أن تأتى هذه الخلاصة مصفاة من الشوائب والدخائل ، وأن نستخرج منها صفة الخليل كما صحت فى النظر بعد المقابلة بين مصادرها وأجزائها ، ونترك منها ما لاسييل الى القول فيه على بينة وعلى ضوء هذه المعلومات مجتمعات

ونحن مبتدئون بالباب الأول فيما يؤخذ من كتب العهد القديم ، ثم تابعوه بما يؤخذ من كتب الأديان على الترتيب ..

الباب الأول

المراجع الاسرائيلية

أفاض سفر التكوين في سيرة ابراهيم عليه السلام ، وأثبت مولده في « أور » الكلدانيين ، ورفع نسبه الى سام بن نوح ، فهو ابراهيم بن تارح بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر بن شالح بن ارفكشاد ابن سام بن نوح ..

وذكر أبناء تارح فقال انه ولد « ابرام وناحور وحران ، وان حاران ولد لوطا ومات قبل أبيه في أرض ميلاده « أور الكلدانيين »

وان ابرام وناحور اتخذا لهما زوجتين ، اسمهما ساراي وملكة بنت حاران .. أما ساراي فهي بنت تارح من زوجة أخرى كما جاء في الاصحاح العشرين على لسان ابراهيم : « وبالْحَقِيقَةُ أَيضاً هِيَ أُخْتَى ابْنَةِ أَبِي غَيْرِ أَنَّهَا لَيْسَتْ ابْنَةُ أُمِّي فَصَارَتْ لِي زَوْجَةً » ..

وجاء في الاصحاح الحادي عشر أن « تارح أخذ ابرام ابنه ولوطا ابن حاران ، وساراي ، فخرجوا معا من أور الكلدانيين ليذهبوا الى أرض كنعان ، فأتوا الى أرض حاران (١) وأقاموا هناك ، وكانت أيام تارح مائتين وخمس سنين ، ومات في حاران »

وجاء بعد هذا في الاصحاح الثاني عشر أن الرب قال لابرام : « اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك الى الأرض التي أريك ، فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك ، وتكون بركة ، وأبارك من يباركك ومن يلعنك ألعنه ، وفيك تتبارك جميع قبائل الأرض ..

« فذهب ابرام كما قال له الرب ، وذهب معه لوط .
« وكان ابرام ابن خمس وسبعين سنة حين خرج من حاران فأتوا الى

(١) موقعها الان بين حابود ونهر الفرات في شمال العراق

أرض كتمان ومعهم ذخائر وعبيد وماشية ، واختار ابرام سكنه من شكيم (١) الى بلوطة مورة ، وفيها الكنعانيون « وظهر الرب لابرام وقال : لنسلك أعطى هذه الأرض ، فبنى هناك مذبحا للرب الذى ظهر له ، ثم انتقل من هناك الى الجبل ونصب خيمته شرقا من بيت ايل من المغرب ولمسى من الشرق ، ثم والى رحلته الى الجنوب ..

« وحدثت مجاعة فى الأرض ، فانحدر ابرام الى مصر ، وقال لساراي امرأته وهو على مقربة من مصر : انى علمت أنك امرأة حسنة المنظر ، فاذا رآك المصريون قالوا هذه امرأته فيقتلوننى ويستبقونك . قولى أنك أختى ليكون لى خير بسببك وتحيا نفسك من أجلك ..

« فلما دخل ابرام مصر رأى المصريون أن المرأة حسنة جدا ، ومدحها رؤساء فرعون لديه ، فأخذت المرأة الى بيت فرعون فصنع الى ابرام خيرا بسببها وصار له بقر وغنم وحمير وعبيد واماء واتن وجمال « فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة .. ودعا فرعون ابرام وقال له : ما هذا الذى صنعت بى ؟ لماذا لم تخبرنى أنها امرأتك ؟ لماذا قلت لى هى أختى حتى أخذتها لتكون زوجتى .. خذها واذهب ، وه^{١٣} به أناسا شيّعوه الى خارج الديار ..

وعاد ابرام الى بيت ايل حيث كانت خيمته قبل انحداره الى مصر ، ولم تحتل الأرض ابرام ولوطا ومن معهما من حاشية وماشية ، واشتجر رعائهما وحولهم الكنعانيون والفرزيون (٢)

فقال ابرام لابن أخيه : « لا تكن مخاضمة بينى وبينك ، وبين رعائى ورعائك . انا اخوان . أليست الأرض أمامك ؟ فاذهب حيث شئت . ان ذهبت شمالا ذهبت أنا الى اليمين وان ذهبت يمينا ذهبت أنا الى الشمال ونظر لوط فرأى أمامه أرضا مخصصة كأرض مصر ، فاختار دائرة الأردن وارتحل مشرقا ونقل خيامه الى سدوم ، وأهلها تد أشرار

(١) فى موقع نابلس الان على الأرجح

(٢) لهم قبيلة من الكنعانيين كانت تسكن العراء فى قرى مسورة

وبقى ابرام فى كنعان فقال له الرب : « ارفع عينيك وانظر فى الموضع الذى أنت فيه من مشرقه الى مغربه ومن شماله الى جنوبه ، فانتى معطيك جميع الأرض التى تراها ولنسلك من بعدك ، واجعل لك نسلا كثراب الأرض لا يحصيه الا من استطاع أن يحصى ترابها ، فاضرب فى الأرض طولاً وعرضاً كما تشاء

فنقل ابرام خيامه وأقام عند بلوطات ممرا التى هى جبرون (١) وبني فيها مذبحاً للرب ..

ونشب قتال بين أمراء البادية والحضر فى تلك البقاع « فخرج ملك سدوم وملك عمورة وملك أدمة وملك صبويم وملك بالع التى هى صوغر ، ونظموا حرباً معهم فى عمق السديم (٢) مع كدرلعومر ملك عيلام ، وتدعال ملك جوييم ، وأمرافل ملك شنعار ، وأريوك ملك الاسار ، أربعة ملوك من خمسة ..

« وعمق السديم كان فى آبار حمر كثيرة ..

« فهرب ملكا سدوم وعمورة وسقطا هناك ، والباقون هربوا الى الجبل ، فأخذوا جميع أملاك سدوم وعمورة ، وجميع أطعمتهم ومضوا » وأخذوا لوطا ابن أخى ابرام ومضوا ، اذ كان ساكناً فى سدوم « فأتى من نجا وأخبر ابرام العبرانى ، وكان ساكناً عند بلوطات ممرا الأمورى ، أخى اشكول وأخى عانر ، وكانوا أصحاب عهد مع ابرام « فلما سمع ابرام ان أخاه سبى جر غلمانته المتمرنين ولدان بيته ، وعدتهم ثلاثمائة وثمانية عشر ، وتبعهم دان ، ودهمهم ليلا هو وعبداه فكسرهم ، وتبعهم الى حوبة الى الشمال من دمشق واسترجع ما أخذوه ، واسترجع لوطا أخاه أيضاً وسبى النساء والرجال ..

فخرج ملك سدوم لاستقباله بعد رجوعه ، وأخرج (ملكى صادق) ملك شاليم خبزا وخمرا ، وكان كاهنا لله العلى ، فبارك ابرام وقال : مبارك ابرام من الله العلى مالك السماوات والأرض ، ومبارك الله العلى

(١) هى اليوم الخليل

(٢) هى بحر الملح

الذي أسلم أعداءك الى يديك . فأعطاه ابرام عشرة من كل شيء وقال ملك سدوم : اعطني النفوس . أما الأملاك فخذها لنفسك

فقال ابرام لملك سدوم : رفعت يدي الى الرب الاله العلى ، مالك السماء والأرض ، لا آخذن خيطا ولا شرك نعل ولا شيئا مما هو لك ، فلا تقول اننى أغنيت ابرام . ليس لى الا ما أكله الغلمان . وأما نصيب الرجال الذين ذهبوا معى : عانر واشكول وممرا ، فلهم نصيبهم يأخذونه ثم خاطب الرب ابرام فى الرؤيا قائلا : لا تخف يا ابرام . أنا ترس لك ، وأجرك عظيم

قال ابرام : أيها السيد الرب ، ماذا تعطينى وأنا ماض عقيما ، وبمالك بيتى هو اليعزر الدمشقى (١)

وقال ابرام أيضا : « انك لم تعطينى نسلا ، وها هو ذا ابن بيتى وارث لى ...

« فكان كلام الرب له : لا يرثك هذا . بل الذى يخرج من أحشائك هو وارثك

» ثم قاده الى خارج وقال : أنظر الى السماء وعد النجوم ان استطت .. هكذا يكون نسلك

فأمّن بالرب ، فحسبه له حسنة ، وقال له : أنا الرب الذى أخرجك من أور الكلدانيين ليعطيك هذه الأرض ترثها

فقال : أيها السيد الرب ! بماذا أعلم أننى أرثها

قال : خذ عجلة ثلاثية ، وعنزة ثلاثية ، وكبشا ثلاثيا ، ويمامة وحمامة « فأخذ هذه كلها وشقها من الوسط وجعل كل شق مقابل صاحبه ،

وأما الطير فلم يشقه . وجعل ابرام يزجر الجوارح التى تهبط عليها

ولما صارت الشمس الى المغرب وقع على ابرام سبات ونزلت عليه رعبه عظيمة ، فقال لابرام : اعلم يقينا ان نسلك سيكون غريبا فى أرض ليست

(١) هو بمثابة أمين الدار الموكل بشئونه ويلاحظ ان جملة حروف الاسم - وهو يكتب بالعبرية بغير ألف بعد العين - تساوى ٣١٨ مدد القلمان ، ولهذا يقول بعض المفسرين ان الاسم كناية عن المدد

لهم يستعبدون فيها ويستذلون أربعمائة سنة ، ثم أدين الأمة التي تستعبدهم ، فيخرجون بأملك جزيلة ، وتمضى أنت الى آباءك بسلام ، وتدفن بشيبة سالحة . ثم يرجع نسلك فى الجيل الرابع الى ها هنا ، اذ لم يتم بعد ذنب الأموريين

« ثم غابت الشمس ورائت العتمة على الأفق ، واذا تنور دخان ومصباح نار يجوز بين تلك الشطور

» وفى ذلك اليوم قطع الرب (١) مع ابرام ميثاقه قائلا : لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر الى النهر الكبير نهر الفرات : القينيين والقرزيين والقدمونيين والحثيين والقرزيين والأموريين والكنعانيين والجرجاشيين واليبوسيين «



ورجع الاصحاح السادس عشر الى ساراى فجاء فيه انها لما لم تلد دفعت جاريتها المصرية « هاجر » الى ابرام وقالت له : هو ذا الرب قد أمسكنى عن الولادة .. فادخل الى جاريتى لعلى أرزق منها بنين .. فلما رأت هاجر انها حبلت « صغرت مولاتها فى عينيها ، فقالت ساراى لابراهيم : ظلمى عليك ! دفعت جاريتى الى حضنك فلما رأت أنها حبلت صغرت فى عينيها . يقضى الرب بينى وبينك « فقال ابرام لساراى : « هو ذا جاريتك فى يدك . افعلى بها ما يحسن فى عينيك ، فأذلتها ساراى ، فهربت من وجهها

» فوجدها ملاك الرب على عين الماء فى البرية ، على العين التى فى طريق شور (٢) ، وقال : يا هاجر جارية ساراى ! من أين أتيت ؟ والى أين تذهبين ؟ فقالت : أنا هاربة من وجه مولاتى ساراى . فقال لها ملاك الرب : ارجعى الى مولاتك واخضعى تحت يديها . وقال لها ملاك الرب : تكثيرا أكثر نسلك فلا يحصى ، وقال لها ملاك الرب : ها أنت

(١) من العادات الرعية فى كثير من أمم الرعاة ان يمر المتعاهدون بين شقين من ذبيحة ، ويرد بعضهم قولهم « قطع عهدا » الى هذه العادة
(٢) كانت فى الجنوب الغربى من فلسطين بين مصر وكنعان

حبلى وتلدن ابنا وتدعيه اسماعيل . لأن الرب قد سمع لضراعتك .
وانه يكون انسانا وحشيا (١) . يده على كل واحد ويد كل واحد
عليه ، وأمام جميع اخوته يسكن ..

وكان ابرام ابن ست وثمانين سنة لما ولدت هاجر اسماعيل ..
ولما كان ابرام ابن تسع وتسعين سنة (الاصحاح السابع عشر)
ظهر الرب لابرام وقال له : أنا الله القدير . سر أمامى وكن كاملا .
فاجعل عهدى بينى وبينك وأكثرك كثيرا جدا . فخر ابرام ساجدا ،
وتكلم الله معه قائلا : أما أنا فهو ذا عهدى معك ، وتكون أبا لجمهور
من الأمم ، فلا يدعى اسمك بعد اليوم ابرام ، بل يكون اسمك
ابراهيم . لأنى أجعلك أبا لجمهور من الأمم ، وأثرك كثيرا جدا
وأجعلك أمما ، ومنك ملوك يخرجون ، وأقيم عهدى بينى وبينك وبين
نسلك من بعدك فى أجيالهم عهدا أبديا ، لأكون الها لك ولنسلك من
بعدك ، وأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان
ملكا أبديا وأكون الههم . وقال الله لابراهيم : وأما أنت فتحفظ
عهدى . أنت ولنسلك من بعدك فى أجيالهم . هذا هو عهدى الذى
تحفظونه بينى وبينكم وبين نسلك من بعدك . يختن منكم كل ذكر ..
فيكون علامة عهد بينى وبينكم . ابن ثمانية أيام يختن منكم كل ذكر فى
أجيالكم . وليد البيت والمبتاع بفضة من كل ابن غريب ليس من نسلك ..
فيكون عهدى فى لحمكم عهدا أبديا . وأما الذكر الأغلف .. فتقطع تلك
النفس من شعبها . انه نكث عهدى ..

وقال الله لابراهيم : ساراي امرأتك لا تدعو اسمها ساراي ، بل
سمها سارة ، وأباركها وأعطيك أيضا منها ابنا .. فخر ابراهيم ساجدا
وضحك ، وقال فى قلبه : هل يولد لابن مائة سنة ! وهل تلد سارة
وهى بنت تسعين سنة ؟

وقال ابراهيم لله : ليت اسماعيل يعيش أمامك . فقال الله : بل سارة

(١) الكلمة العبرية تفيد معنى الشدة والخشونة « قرأ آدم » وقد تفيد فى معناها
كلمة متأبد العربية

امراتك تلد لك ابنا وتدعو اسمه اسحاق ، وأقيم عهدي له عهدا أبديا
نفسه من بعد ..

وأما اسماعيل فقد سمعت لك فيه . ها أنا أباركه وأثمره وأكثره
كثيرا جدا .. اثني عشر رئيسا يلد . وأجعله أمة كبيرة ، ولكن عهدي
أقيمه لاسحاق الذي تلده لك سارة في هذا الوقت من السنة الآتية ،
فلما فرغ من الكلام معه صعد الله عن ابراهيم

» فأخذ ابراهيم اسماعيل ابنه وجميع ولدان بيته ، وجميع المتباعين
بفضة وختنهم .. وكان ابراهيم ابن تسع وتسعين سنة حين ختن ،
واسماعيل ابنه ابن ثلاث عشرة سنة ..

» وظهر له الرب عند بلوطات ممرا وهو جالس في باب الخيمة وقت
حر النهار ، فرفع عينيه ونظر ، واذا ثلاثة رجال واقفون لديه ، فلما نظر
ركض لاستقبالهم من باب الخيمة وسجد الى الأرض ، وقال : يا سيد ا
ان كنت قد وجدت نعمة في عينيك فلا تتجاوز عهدك ، ليؤخذ قليل ماء .
واغسلوا أرجلكم واتكئوا تحت الشجرة ، فأخذ كسرة خبز فتسندون
قلوبكم ثم تجازون . لأنكم قد مررتم على عبدكم . فقالوا : هكذا نفعل
كما تكلمت ..

» فأسرع ابراهيم الى الخيمة ، الى سارة ، وقال : اسرعى بثلاث
كيلات دقيقا سميذا . اعجنى واصنعى خبز ملة^(١) ، ثم ركض ابراهيم الى
البقر وأخذ عجلا رخصا^(٢) جيذا وأعطاه للغلام فأسرع ليعمله ، ثم أخذ
زبدا ولبنا والعجل الذي عمله ووضعها قدامهم ، واذا كان هو واقفا لديهم
تحت الشجرة أكلوا ..

» وقالوا له : أين سارة امرأتك ؟ فقال : ها هي في الخيمة . فقال :
انى أرجع اليك نحو زمان الحياة - أى الربيع - ويكون لسارة
امراتك ابن ..

» وكانت سارة سامعة في باب الخيمة ، وهو وراءه . وكان ابراهيم
وسارة شيخين متقدمين في الأيام . وقد انقطع أن يكون لسارة عادة

(١) خبز ملة : المله : الرماد الحار وخبز ما يخبز فيه . (٢) رخصا :

كالنساء . فضحكت سارة فى باطنها قائلة : ابعء فنائى يكون له متعنه وسيدى قد شاخ ؟ فقال الرب لابراهيم : لماذا ضحكت سارة ؟ انها قائلة بالحقيقة : أترانى ألد وأنا قد شخت ؟ فهل يستحيل على الرب بشىء ؟ فى الميعاد أرجع اليك نحو زمان الحياة ويكون لسارة ابن !
 « فأنكرت سارة قائلة : لم أضحك ! لأنها خافت . فقال : لا بل ضحكت ..

« ثم قام الرجال من هناك وتطلعوا نحو سدوم ، وكان ابراهيم ماشيا معهم ليشيخهم ، فقال الرب : هل أخفى عن ابراهيم ما أنا فاعله ، وابراهيم يكون أمة كبيرة وقوية ويتبارك به جميع أمم الأرض ! انى عرفته لكى يوصى بنيه وبيته من بعده أن يحفظوا طريق الرب وليعلموا برا وعدلا ويوفى الرب ابراهيم ما وعد

« وقال الرب ان صراخ سدوم وعمورة قد كثر ، وخطيئتهم قد عظمت جدا . انى نازل أرى هل فعلوا حقا حسب صراخها الآتى الى . والا فاعلم
 « وانصرف الرجال من هناك وذهبوا نحو سدوم ..

« وأما ابراهيم فكان لم يزل قائما أمام الرب ..
 « فنقدم ابراهيم وقال : أفتهلك البار مع الأثيم ؟ عسى أن يكون خمسون بارا فى المدينة . أفتهلك المكان ولا تصفح عنه من أجل الخمسين .. ؟ حاشا لك أن تفعل هذا الأمر .. أديتان كل الأرض لا يصنع عدلا ؟

« فقال الرب : ان وجدت فى المكان خمسين بارا فانى أصفح عن المكان كله من أجلهم ..

« فأجاب ابراهيم وقال : انى قد شرعت أكلم المولى وأنا تراب ورماد ، ربما نقص الخمسون بارا خمسة . أتهلك كل المدينة بالخمسة ؟ فقال : لا أهلك ان وجدت هناك خمسة وأربعين

« فعاد يكلمه أيضا وقال : عسى أن يوجد هناك أربعون فقال : لا أفعل من أجل الأربعين . فقال : لا يسخط المولى ، فأتكلم . عسى أن يوجد

هناك عشرون . فقال لا أهلك من أجل العشرين . فقال : لا يسخط المولى
فأتكلم هذه المرة فقط : عسى أن يوجد هناك عشرة . فقال : لا أهلك
من أجل العشرة ..

« وذهب الرب عندما فرغ من الكلام مع ابراهيم ، ورجع ابراهيم
الى مكانه ..

« فجاء الملاك الى سدوم مساء ، وكان لوط جالسا في باب سدوم ،
فلما رآهما لوط قام لاستقبالهما وخر ساجدا ، وقال : ياسيدى . ميلا
الى بيت عبدكما، وبيتنا واغسلا أرجلكما ، ثم تبران وتذهبان في
طريقكما ، فقالا : لا . بل بالساحة نبيت »

وتم الاصحاح التاسع عشر بقصة هلاك سدوم ، ثم عاد الاصحاح
العشرون الى قصة ابراهيم فجاء فيه أنه انتقل من هناك الى أرض
الجنوب وسكن بين قادش وشور وتغرب في جرار ..

« وقال ابراهيم عن سارة امرأته هي أختي ، فأرسل (ابيمالك) ملك
جرار وأخذ سارة . فجاء الله الى ابيمالك في الحلم وقال له : ها أنت ميت
من أجل المرأة التي أخذتها ، فانها ذات بعل ، ولم يكن ابيمالك قد
اقرب منها ، فقال : ياسيد ! أتقتل أمة بارة ؟ ألم يقل لى هو انها
أختي ؟ ألم تقل هي نفسها انه هو أختي ؟ بسلامة قلبى وتقاوة يدي فعلت
هذا . فقال له الله فى الحلم : أنا أيضا علمت أنك بسلامة قلبك فعلت
هذا ، وأنا أيضا أمسكتك أن تخطيء الى . لذلك لم أدعك تمسها .
فالآن رد امرأة الرجل فانه نبي ، وسيصلى لأجلك فتجيا ، وان كنت لا
تردها فانك ومن لك ميتون ..

« .. وأخذ ابيمالك غنما وبقرا وعبيدا واماء وأعطاه لابراهيم ، ورد
اليه سارة امرأته ، وقال ابيمالك : هو ذا أرضى قدامك ، تسكن منها
ما حسن فى عينيك . وقال لسارة : انى قد أعطيت أخاك ألفا من
الفضة . ها هو لك غطاء عيني .

« .. وصلى ابراهيم الى الله فشفى الله ابيمالك وامرأته وجواريه

فولدن . لأن الرب كان قد أغلق كل رحم لبيت ابيمالك بسبب سارة امرأة ابراهيم » ..

ثم جاء في الاصحاح الحادى والعشرين ان سارة ولدت اسحاق وختنه ابراهيم وهو ابن ثمانية أيام ، وكان ابراهيم قد أوفى على المائة ، وقالت سارة : قد جعل الله لى ضحكا وجعل كل من يسمع بأمرى يضحك « .. ورأت ابن هاجر المصرية يمزح .. فقالت لابراهيم : أطرده هذه الجارية وابنها ، لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابنى اسحاق . فقبح الكلام جدا فى عينى ابراهيم ..

« قال الله لابراهيم : لا يقبح فى عينيك من أجل الغلام ، ومن أجل جاريتك ، واسمع كل ما تقوله سارة ، لأنه باسحاق يدعى لك نسل ، وابن الجارية أيضا سأجعله أمة لأنه نسلك « فبكر ابراهيم صباحا وأخذ خبزا وقربة ماء ، وأعطاهما لهاجر واضعا ايها على كتفها وصرفها

« فمضت وتاهت فى برية بئر سبع ، ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد تحت احدى الأشجار ، ومضت وجلست مقابلة بعيدا على مرمى القوس ، لأنها قالت لا أنظر موت الولد . فسمع الله صوت الغلام ، ونادى ملاك الله هاجر من السماء ، وقال لها : مالك يا هاجر ! لا تخافى . لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو . قومى احملى الغلام وشدى يدك به . لأنى سأجعله أمة عظيمة ، وفتح الله عينها فأبصرت بئر ماء ، فذهبت وملات القربة ماء وسقت الغلام ، وكان الله مع الغلام فكبر ، وسكن فى البرية ، وكان ينمو رامى قوس ، وسكن فى برية فاران ، وأخذت له أمة زوجة من أرض مصر

« وحدث فى ذلك الزمان أيد ابيمالك وفيكول رئيس جيشه كلما ابراهيم قائلين : « الله معك فى كل ما أنت صانع . فالآن أحلف لى بالله ها هنا انك لا تغدر بى ولا بنسلى وذريتى ، وكالمعروف الذى صنعت اليك تصنع الى والى الأرض التى تعربت فيها

« فقال ابراهيم : أنا أحلف ، وعاتب اييمالك فى بئر الماء التى اغتصبها عبيده . فقال اييمالك : لم أعلم مَن فعل هذا الأمر . أنت لم تخبرنى وأنا ما سمعت سوى اليوم
 « فأخذ ابراهيم غنما وبقرا وأعطى اييمالك ، فقطعا كلاهما ميثاقا ..
 « وأقام ابراهيم سبع نعاج وحدها . فقال اييمالك لابراهيم : ما هى هذه النعاج التى أقمتها وحدها ؟ فقال : انك تأخذ من يدى سبع نعاج لكى تكون لى شهادة بأنى حفرت هذه البئر . لذلك دعا ذلك الموضع بئر سبع . لأنهما هناك حلفا كلاهما
 « فقطعا ميثاقا فى بئر سبع ، ثم قام اييمالك وفيكون رئيس جيشه ، ورجعا الى أرض الفلسطينيين ، وغرس ابراهيم أشجاراً فى بئر سبع ، ودعا هناك باسم الرب الاله السرمدى . وتغرب ابراهيم فى أرض الفلسطينيين أياما كثيرة .. »

وتأتى بعد ذلك قصة الفداء باسحاق ..
 « وان الله قد امتحن ابراهيم ..
 « فقال له : خذ ابنك وحيدك الذى تحبه - اسحاق - واذهب الى أرض المريا وأصعده هناك .. فبكر ابراهيم صباحا وشد على حماره وأخذ اثنين من غلماناه معه ، واسحاق ابنه ، وشقق حطباً للمحرقة ، وقام وذهب الى الموضع الذى قال له الله
 « وفى اليوم الثالث رفع ابراهيم عينيه وأبصر الموضع من بعيد . فقال لغلاميه : اجلسا اتماها هنا مع الحمار . وأما أنا والغلام فنذهب الى هناك ونسجد ثم نرجع اليكما
 « فأخذ ابراهيم حطب المحرقة ووضع على اسحاق ابنه ، وأخذ بيده النار والسكين . فذهبا كلاهما معا
 « وكلم اسحاق ابراهيم أباه وقال : يا أبى ! فقال : ها أنا ذا يابنى . فقال : هو ذا النار والحطب ، ولكن أين الخروف للمحرقة . فقال

(١) أنلا : شجر عظيم يشبه الطرفاء .

ابراهيم : الله يرى له خروف المحرقة يا بنى . فذهبا كلاهما معا
 « فلما أتيا الى الموضع الذى قال له الله ، بنى ابراهيم هناك المذبح
 ورتب الحطب ، وربط اسحاق ابنه ووضع على المذبح فوق الحطب ،
 ثم مد ابراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه ، فناداه ملاك الرب من
 السماء . وقال : ابراهيم ا ابراهيم ا فقال : ها انا ذا . فقال : لا تمد
 يدك الى الغلام ولا تفعل به شيئا ، لأنى الآن علمت انك خائف الله ، فلم
 تمسك ابنك وحيدك عنى ..

« ورفع ابراهيم عينيه ، ونظر ، واذا كبش وراءه مسكا فى الغابة
 بقرنيه ، فذهب ابراهيم وأخذ الكبش وأصعده محرقة عوضا عن ابنه .
 فدعا ابراهيم اسم ذلك الموضع (يهوه يراه) حتى انه يقال اليوم فى
 جبل الرب يرى ..

« ونادى ملاك الرب ابراهيم ثانية من السماء ، وقال : بذاتى أقسمت .
 انى من أجل أنك فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك وحيدك أباركك
 مباركة وأكثر نسلك كثيرا كنجوم السماء ، وكالرمل الذى على شاطئ
 البحر ، ويرث نسلك باب أعدائه ، ويتبارك فى نسلك جميع أمم الأرض ،
 من أجل أنك سمعت لقولى

ثم رجع ابراهيم الى غلاميه فقاموا وذهبوا جميعا الى بئر سبع
 وحدث بعد هذه الأمور ان ابراهيم أخبر وقيل له : هو ذا ملكة قد
 ولدت هى أيضا بنين لناحور أخيك : عوصا بكره ، وتوزا أخاه ،
 وفموئيل أبا آرام ، وكاسدو وحزوا وفلداش ويدلاف وبتوئيل ، وولد
 بتوئيل رفته .. هؤلاء الثمانية ولدتهم ملكة لناحور أخى ابراهيم : وأما
 سريته - واسمها زومة - فولدت هى أيضا طابح وجاحم وتاحش
 ومعنة ..

وأبنا الاصحاح الثالث والعشرون بموت سارة وهى فى السابعة
 والعشرين بعد المائة . ماتت فى قرية أربع التى هى حبرون فى أرض
 كنعان . فأتى ابراهيم ليندب سارة ويبكى عليها ، وقام ابراهيم من أمام

ميته وكلم بنى حث قائلاً : أنا غريب ونزير عندكم ، اعطوني ملك قبر معكم لأدفن ميتي من أمامي . فأجاب بنو حث ابراهيم قائلين له : اسمعنا ياسيدي . أنت رئيس من الله بيننا . في أفضل قبورنا ميتك . لا يمنع أحد منا قبره عنك .. فقام ابراهيم وسجد لشعب الأرض ، لبني حث ، وكلمهم قائلاً : ان كان في نفوسكم أن أدفن ميتي من أمامي فاسمعوني والتمسوا لي من عفرون ابن صوحر أن يعطيني مغارة المكفيلة التي له في طرف حقله ، وبثمن كامل يعطيني اياها .. وكان عفرون جالسا بين بنى حث ، فأجابه على مسمع من قومه لدى جميع الداخلين باب مدينته قائلاً : لا ياسيدي .. اسمعني .. الحقل وهبتك اياه ، والمغارة التي فيه لك وهبتها .. فسجد ابراهيم أمام شعب الأرض وكلم عفرون في مسامح شعب الأرض قائلاً : بل ان كنت أنت اياه فليتك تسمعني . أعطيك ثمن الحقل فأدفن ميتي هناك . فأجاب عفرون ابراهيم قائلاً له : يا سيدي ا اسمعني . أرض بأربعمائة شاقل فضة ، ما هي بيني وبينك ؟ فادفن ميتك . فسمع ابراهيم لعفرون ووزن ابراهيم لعفرون الفضة التي ذكرها في مسامح بنى حث : أربعمائة شاقل فضة جائزة عند التجار »



وشاخ ابراهيم وتقدم في الأيام (١) ، وباركه الرب في كل شيء وقال ابراهيم لعبده كبير بيته المستولى على كل ما كان له : ضع يدك تحت فخذي ، فاستحلفك بالرب اله السماء ، واله الأرض ، ألا تأخذ زوجة لابني من بنات الكنعانيين الذين أنا ساكن بينهم . بل الى أرض وعشيرتي تذهب وتأخذ زوجة لابني اسحاق . فقال له العبد : ربما لا تشاء المرأة أن تتبعني الى هذه الأرض . هل أرجع بابنك الى الأرض التي خرجت منها ؟ فقال ابراهيم : احترز من أن ترجع بابني الى هناك : الرب اله السماء الذي أخذني من بيت أبي ، ومن أرض ميلادي ، والذي كلمني ، والذي أقسم لي قائلاً لنسلك أعطى هذه الأرض ، هو يرسل ملائكة أمامك

(١) الاصحاح الرابع والعشرون

فتأخذ زوجة لابنى من هناك ، وان لم تشأ المرأة أن تتبعك تبرأت من حلفى هذا . أما ابنى فلا ترجع به الى هناك . فوضع العبد يده تحت فخذ ابراهيم مولاه ، وحلف له على هذا الأمر

« ثم أخذ العبد عشرة جمال من جمال مولاه ، ومضى وجميع خيرات مولاه فى يده ، فقام وذهب الى أرام النهرين ، الى مدينة ناحور ، وأناخ الجمال خارج المدينة عند بئر الماء وقت المساء ، وقت خروج المستقيبات ، وقال : أيها الرب اله سيدى ابراهيم ايسر لى اليوم واصنع لطفًا الى سيدى ابراهيم . ها أنا واقف على عين الماء وبنات أهل المدينة خارجات ليستقين ماء ، فليكن أن الفتاة التى أقول لها أميلى جرتك لأشرب فنقول اشرب ، وأنا أسقى جمالك ، هى التى عينتها لعبدك اسحاق ، وبها أعلم أنك صنعت لطفًا الى سيدى

« واذ كان لم يفرغ بعد من الكلام ، اذا رقيقة التى وادت لبثويل بن ملكة امرأة ناحور أخى ابراهيم خارجة وجرتها على كتفها ، وكانت الفتاة حسنة المنظر جدا وعذراء لم يعرفها رجل ، فنزلت الى العين وملاّت جرتها وطلعت ، فركض العبد للقاءها وقال : اسقيني قليل ماء من جرتك . فقالت : اشرب ياسيدى ! وأسرت وأنزلت جرتها على يدها وسقته ، ولما فرغت من سقيه قالت : اسقى لجمالك أيضا حتى تفرغ من الشرب ، فأسرت وأفرغت جرتها فى المسقاة وركضت أيضا الى البئر لتسقى ، فاستقت لكل جماله ، والرجل يتفرس فيها صامتا ليعلم أننجح الرب طريقه أم لا . وحدث عندما فرغت الجمال من الشرب أن الرجل أخذ خزانة ذهب وزنها نصف شاقل وسوارين على يديها وزنها عشرة شواقل ذهب ، وقال : بنت من أنت ؟ أخبرينى . هل فى بيت أيبك مكان لبيت ؟ فقالت : أنا بنت بثويل بن ملكة الذى ولدته لناحور ، وقالت له : عندنا تبن وعلف كثير ، ومكان لتبيتوا أيضا . فخر الرجل وسجد للرب وقال : مبارك الرب اله سيدى ابراهيم ، الذى لم يمنع لطفه وحقه عن سيدى . اذ كنت أنا فى الطريق هدانى الرب الى اخوة سيدى ، فركضت

الفتاة وأخبرت بيت أمها بحسب هذه الأمور
 « وكان لرفقة أخ اسمه لابان ، فخرج لابان الى الرجل خارجا الى
 العين .. »

ويلى هذا (فى الاصحاح الرابع والعشرين) وصف العبد ما حدث له
 حتى التقى بالفتاة « فأجاب لابان وبتوئيل وقالوا : من عند الرب خرج
 الأمر . لا تقدر أن نكلمك بشر أو خير . هو ذا رفقة قدامك . خذها
 واذهب ، فلتكن زوجة لابن سيدك كما تكلم الرب ، وكان عندما سمع
 عبد ابراهيم كلامهم انه سجد للرب الى الأرض . وأخرج آنية فضة
 وآنية ذهب وثيابا وأعطاها لرفقة ، وأعطى تحفا لأخيها ولأمها ، فأكل
 وشرب هو والرجال الذين معه وباتوا ، ثم قاموا صباحا فقال : اصرفونى
 الى سيدى ، فقال أخوها وأمها : لتمكث الفتاة عندنا أياما أو عشرة ،
 وبعد ذلك تمضى »

واستشيرت الفتاة فقيلت أن تذهب مع العبد ، فصرفوا رفقة أختهم
 ومرضعتها وعبد ابراهيم ورجاله ، وباركوا رفقة ، وقالوا لها : أنت
 أختنا . صيرى ألوف ربوات^(١) ، وليرث نسلك باب مبغضيه ..
 « فقامت رفقة وقتياتها وركبن على الجمال وتبعن الرجل ، فأخذ
 العبد رفقة ومضى .. »

« وكان اسحاق قد أتى من ورود بئر لحي رثى . اذا كان ساكنا فى
 أرض الجنوب ، وخرج ليتأمل فى الحقل عند اقبال المساء ، فرفع عينيه
 ونظر واذا جمال مقبلة ، ورفعت رفقة عينيهما فرأت اسحاق فنزلت عن
 الجمل ، وقالت للعبد : من هذا الرجل الماشى فى الحقل للقائنا ؟ فقال
 العبد : هو سيدى ! فأخذت البرقع وتغطت ، ثم حدث العبد اسحاق
 بكل ماجرى ، فأدخلها اسحاق الى خباء سارة أمه ، وأخذ رفقة فصارت
 له زوجة وأجها ، فتعزى اسحاق بعد موت أمه
 « وعاد ابراهيم - الاصحاح الخامس والعشرون - فأخذ زوجة

(١) ربوات : جمع ربوة بفتح الراء وهي عشر كرات ، والكرة مئة الف .

اسمها قطورة ، فولدت له زمران ويقشان ومدان ومديان ويشباق وشوفا ، وولد يقشان شبا وددان ، وكان بنو ددان اشوريم ولطوشيم ولأميم ، وبنو مديان عيفة وعفر وحنوك وأبيداع والدعة : جميع هؤلاء بنو قطورة ..

« وأعطى ابراهيم اسحاق كل ما كان له ، وأما بنو السرارى اللواتى كانت لابراهيم فأعطاهم ابراهيم عطايا وصرفهم عن اسحاق ابنه شرقا ، الى أرض المشرق ، وهو بعد بقيد الحياة ..

« وهذه أيام سنى حياة ابراهيم التى عاشها : مائة وخمس وسبعون سنة ، وأسلم ابراهيم روحه ومات بشيئة سالحة ، شيخا شعبان أياما ، وانضم الى قومه ، ودفنه اسحاق واسماعيل ابناه فى مغارة المكفيلة فى حقل عفرون بن صوحر الحثى الذى أمام ممرا ..

« .. وهذه مواليد اسماعيل بن ابراهيم الذين ولدت هاجر المصرية جارية سارة لابراهيم : نايوث بكر اسماعيل ، وقيدار ، وادبئيل ، ومشماع ، ودومة ، ومسا ، وحدار ، وتيما ، ويطور ، ونافيش ، وقدمة .. هؤلاء هم بنو اسماعيل وهذه أسماؤهم بديارهم وحصونهم : اثنى عشر رئيسا حسب قبائلهم ، وهذه سنو حياة اسماعيل : مائة وسبع وثلاثون سنة ..

« وأسلم روحه ومات وانضم الى قومه ، وسكنوا من حويلة الى شور التى أمام مصر

« .. وهذه مواليد اسحاق بن ابراهيم .. ولد ابراهيم اسحاق ، وكان اسحاق ابن أربعين سنة لما اتخذ لنفسه زوجته رفقة بنت بتوئيل الأرامية ، أخت لابان الأرامية ، من فدان أرام

« وصلى اسحاق الى الرب لأجل امرأته ، لأنها كانت عاقرا ، فاستجاب له الرب فحبلت رفقة امرأته ، وتزاحم الولدان فى بطنها ، فقالت : ان كان هكذا فقيم أنا عائشة ؟ .. ومضت لتسأل الرب ، فقال لها الرب : فى بطنك امتان ، ومن أحشائك يفترق شعبان ، شعب يقوى

على شعب ، وكبير يستبعد لصغير ..

« فلما أكملت أيامها لتلد اذا في بطنها توأمان ، فخرج الأول أحمر كله كفروة شعر ، فدعوا اسمه عيسو ، وبعد ذلك خرج أخوه ويده قابضة بعقب عيسو ، فدعى اسمه يعقوب ، وكان اسحاق ابن ستين سنة لما ولدتهما ..

« فكبر الغلامان ، وكان عيسو انسانا يعرف الصيد : انسان البرية ، ويعقوب انسانا كاملا يسكن الخيام ..

« فأحب اسحاق عيسو لأن في فمه صيدا

« وأما رفقة فكانت تحب يعقوب

« وطبخ يعقوب طبيخا فأتى عيسو من الحقل وهو قد أعيا ، فقال عيسو ليعقوب : اطعمني من هذا الأحمر ، لأنى قد أعيتت . لذلك دعى اسمه أدوم ..

« فقال يعقوب : بعنى اليوم بكوريتك . فقال عيسو : ها أنا ماض الى الموت .. فما جدوى البكورية ؟ فقال يعقوب : احلف لى اليوم ، فحلف له . فباع بكوريته ليعقوب ، فأعطى يعقوب عيسو خبزا وطبيخ عدس ، :أكل وشرب وقام ومضى

وتكرر فى الاصحاح السادس والعشرين وصف الحادث الذى جرى لابراهيم مع اييمالك ، فجاء فيه انه حدث « جوع غير الجوع الأول الذى كان فى أيام ابراهيم فذهب اسحاق الى اييمالك ملك الفلسطينيين » .. وسأله أهل المكان عن امرأته فقال هى أختى ، لأنه خاف أن يقول امرأتى لعل أهل المكان يقتلوننى من أجل رفقة ، لأنها كانت حسنة المنظر، وحدث. اذ طالت الأيام هناك أن اييمالك ملك الفلسطينيين أشرف من الكوة ونظر ، واذا اسحاق يلعب رفقة امرأته ، فدعا اييمالك اسحاق وقال : انما هى امرأتك . فكيف قلت هى أختى ؟ فقال له اسحاق لأنى قلت لعلى أموت بسببها ، فقال اييمالك : ما هذا الذى صنعت بنا ؟ لولا قليل لاضطجع أحد الشعب مع امرأتك فجلبت علينا ذنبا ، فأوصى اييمالك

جميع الشعب قائلاً : الذى يمس هذا الرجل وامراته موتا يموت »
 وفى الاصحاح التاسع والعشرين أن يعقوب تزوج راحيل بنت خاله
 لابان ، وكانت عاقراً كما جاء فى الاصحاح الثلاثين ، فقالت : هو ذا
 جاريتى بلهه . ادخل عليها فتلد على ركبتى وأرزق أنا أيضا منها بنين ،
 فأعطته بلهه جاريتها زوجة ، فدخل عليها يعقوب
 « .. وذكر الله راحيل وسمع لها الله وفتح رحمها ، فحبلت وولدت
 ابناً ، فقالت نزع الله عارى ودعت اسمه يوسف

وفى الاصحاح الثانى والثلاثين يسمى يعقوب اسرائيل ، وذلك انه بعد
 أن عاد من رحلته الى العراق « بقى وحده وضاربة-انسان حتى طلوع
 الفجر ، ولما رأى انه لا يقدر عليه ضرب حق فخذه^(١) ، فانخلع حق فخذه
 يعقوب فى مصارعتة معه ، وقال : اطلقنى لأنه قد طلع الفجر ، فقال :
 لا أطلقك ان لم تباركنى . فقال له : ما اسمك ؟ فقال : يعقوب ! فقال :
 لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل اسرائيل . لأنك جاهدت مع الله
 والناس وقدرت ، وسأل يعقوب وقال : اخبرنى باسمك ، فقال : لماذا
 تسأل عن اسمى ، وباركه هناك ، فدعا يعقوب اسم المكان فينئيل قائلاً :
 لأنى نظرت الله وجها لوجه

وتذكر الاصحاحات التالية خبر المجاعة التى عمّت الأرض ، وتروى
 هجرة يعقوب وأبنائه الى مصر ، حيث يبيع يوسف وتولى عملاً من أعمال
 الدولة فى الجيل التالى لجيل ابراهيم كما يؤخذ من هذا السياق ، وقد
 انقسمت ذريته الى أدوميين واسرائيليين

وفى العهد القديم عدا هذه السيرة المفصلة ، اشارات كثيرة الى ابراهيم
 عليه السلام ، منها ما يذكره ليذكر عهد الرب له ، ومنها ما يصفه ويصف
 بعض أخباره ..

(١) حق فخذه : الحق : النقرة التى فى رأس الكتف ورأس الورك الذى
 فيه عظم الفخذ .

فمن الاشارات التى لها شأن فى سيرته ماجاء فى كتاب يشوع اول
الرسل بعد موسى عليه السلام ، ففى الاصحاح الرابع والعشرين من هذا
الكتاب يقول صاحبه عن ديانة الآباء :

« وقال يشوع لجميع الشعب : هكذا قال الرب اله اسرائيل : آباؤكم
سكنوا فى عبر النهر منذ الدهر . تارح أبو ابراهيم وأبو ناحور ، وعبدوا
آلهة أخرى ، فأخذت ابراهيم أباكم من عبر النهر وسرت به فى كل أرض
كنعان .. »

ووصف ابراهيم بخليل الله فى كتاب الأيام الثانى – وهو على الأرجح
من جمع النبى عزرا – حيث يقول فى الأصحاح العشرين : « ألت أنت
الهنا الذى طردت سكان هذه الأرض أمام شعبك اسرائيل وأعطيتهما
لنسل ابراهيم خليلك الى الأبد »

ووصف بهذه الصفة فى الاصحاح الحادى والأربعين من كتاب اشعيا
حيث يقول : « وأما أنت يا اسرائيل عبدى ، يا يعقوب الذى اخترته ،
نسل ابراهيم خليلى .. »

وتلك هى جملة العبارات التى تدخل فى سيرة الخليل من كتب العهد
القديم ، وأكثرها تفصيلا ما ورد فى سفر التكوين من الكتب الخمسة
التى يطلق عليها فى الغالب اسم التوراة

وقبل الانتقال الى ما ورد عن الخليل فى المراجع الاسرائيلية الأخرى ،
كالتلمود والمدراش وما اليهما ، نشفع ما تقدم بكلمة لازمة عن تعليقات
انشراح على سفر التكوين والكتب الخمسة ، فان هذه التعليقات لا غنى
عنها للباحث المستقصى عند مراجعة الأسانيد المتعددة ، ولها علاقة وثيقة
بفهم السيرة كلها فيما تستمد من تلك الأسانيد

تعقيب على مراجع العهد القديم

اتفق شراح العهد القديم على تعدد النسخ التي جمعت منها كتبه الخمسة ، بصفة خاصة

وأهم هذه النسخ هي نسخة الوهيم ونسخة يهوا ونسخة الكهنة أو المسجلين ، ولا داعي في هذا الصدد لاضافة النسخة المسماة بنسخة التثنية ، لأنها تتناول الأسلوب اللغوي الذي لا يسهل التبسط في خصائصه عند الكتابة عنه بلغتنا العربية

سميت نسخة « الوهيم » بهذا الاسم لأن « الوهيم » هي الكلمة التي تطلق فيها على الاله ..

وسميت النسخة الأخرى باسم « يهوا » لأنه اسم الاله فيها

وتسمى النسخة الثالثة باسم الكهنة أو المسجلين ، لأنهم جمعوا كتب الشريعة وغنوا فيها عناية خاصة بالشعائر والمراسم وأخبار الهيكل والعبادة ومن هذه النسخ ما كتب على أيام المملكة الاسرائيلية ، ومنها ما كتب في المنفى بين النهرين ، ومنها ما كتب قبل الميلاد بنحو ثلاثة قرون ، وأقدمها عهدا بينها وبين عصر الخليل ما يبلغ ألف سنة

وقد اجتهد الكهنة في تكملة الأجزاء التي بين أيديهم ، فقابلوا بين الأخبار المتعددة وتمموا بعضها ببعض ، وبقيت آثار المراجع المتعددة في مواضع تشير الى بعضها بما فيه الكفاية للمقابلة بين أخبار السيرة في جملتها ..

ففي الاصحاح الحادى والعشرين من سفر التكوين يفسر اسم بئر سبع بما دار من الحديث بين الخليل وايبمالك

سأل ايبمالك : ما هي هذه السبع النعاج التي أقمتها وحدها ؟
قال الخليل : انك تأخذ من يدى سبع نعاج لكى تكون شهادة لى بحفر البئر .. لذلك دعى ذلك الموضع بئر سبع ..

وفي الأصحاح السادس والعشرين من سفر التكوين يفسر اسم المكان بما يلي :

« وحدث في ذلك اليوم أن عبيد اسحاق جاءوا وأخبروه عن البئر التي حفروا وقالوا له : قد وجدنا ماء . فدعاها شبعة لذلك اسم المدينة بئر سبع الى اليوم »

وفي الأصحاح الأول عن خلق الحيوان والانسان : « فعمل الله وحوش الأرض كأجناسها والبهائم كأجناسها وجميع دبابات الأرض كأجناسها ، ورأى الله ذلك أنه حسن ، وقال الله نعم للانسان على صورتنا كشبهنا ، فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التي تدب عليها »

وفي الاصحاح الثاني : « وجبل الاله آدم ترابا من الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة فصار آدم نفسا حية ، وغرس الاله جنة في عدن شرقا ، ووضع هناك آدم الذي جبله ، وأبنت الرب الاله من الأرض كل شجرة شهية للنظر جيدة للأكل ، وشجرة الحياة في وسط الجنة .. »

ونصّ الاصحاح الثامن عشر من سفر اللاويين على تحريم الزواج بالأخت من الأب أو من الأم « المولودة في البيت أو المولودة خارجا .. »
وفي الاصحاح الثالث عشر من سفر صمويل الثاني تقول تامار لأخيها .
أمنون : « والآن كلم الملك لأنه لا يمنعي منك » ..

وقد أطل الشراح مقابلة المراجع ولا سيما المراجع التي تذكر الأماكن والأعلام والأعمار وما يعنيننا في هذا السياق هو ملاحظتهم التي خرجوا بها من المقابلة والموازنة فيما يتعلق بسيرة الخليل فمنها ان اسم البلد الذي ولد فيه الخليل قد ورد في بعض النسخ ولم يكن موجودا في نسخ أخرى فأضيف إليها للمضاهاة بينها ..
ومن النسخ ما ورد فيه عهد الميراث لابراهيم ، ومنها ما لم يرد فيه هذا العهد قبل مولد اسماعيل

ويرى كثيرون من الشراح ان الأعلام قد تطلق على القبائل كما تطلق على رؤوسها وآبائها ، ومن هنا ينعت ابراهيم بالبراني وينعت ابن أخيه بالآرامي ، أو يختلف الفرعان من أصل واحد ، فتعمل احدى القبائل في الصيد بالبادية ، وتعمل أختها في الزرع والمدن حول الحاضرة وقد بين الشراح على العموم ان الأعمار تناقصت في الكتب الأخيرة ، وان الوحي بالرؤيا في هذه الكتب أعم من الوحي بالمشاهدة والمخاطبة وسنعود الى استخلاص الفائدة من هذه المقابلات والتعليقات عند الكلام على تفصيلات السيرة ، بعد استيفاء مراجعها من الكتب الدينية والمصادر التاريخية وغيرها

المشنا

أهم المراجع الاسرائيلية بعد التوراة هو كتب المشنا القديمة «فالمقرأ» هو ما يحفظ بالقراءة في الكتب ، وهو نصوص التوراة المعتمدة و « المشنا » هو ما يحفظ بالذكر والاستظهار ، ومنه التلمود على نشأته الأولى ..

وأصل مادة الكلمة من شنا أى كرر ، وهى تقابل فى العربية مادة ثنى بمعنى أعاد ثانية ، واستعيرت للعادة التى يراد بها حفظ الكلام المعاد وترجع مآثورات « المشنا » الى أيام النفى فى بابل ، حيث أقامت عشائر من اليهود منفية عن فلسطين

وكان الغرض من « المشنا » تفسير التوراة والتعليق عليها ، وتشتمل هذه التفسيرات على عظات المعابد ، وتأويلات الفقهاء ، وشروح المفسرين ممن بلغوا مرتبة الرئاسة فى التعليم

وقد حصرت المشنا فى القرن الثانى للميلاد ، ودونت بعد الاعتماد على الرواية أو التعليقات المتفرقة ، ومعظمها محفوظ بالعبرية العامية التى يفهمها المستمعون الى مواعظ البيع وأحاديث الفقهاء

واشتملت عند جمعها على ستة أقسام ، واشتملت هذه الأقسام على ثلاثة وستين فصلا ، واشتملت الفصول على نبد تبلغ خمسمائة وثلاثا

وعشرين ، أضيفت إليها نبذة بعد ذلك فبلغت خمسمائة وأربعا وعشرين
 أما الأقسام الستة فهي قسم الزرع وهو خاص بالمرزوعات والمحصولات
 ومعاملاتها ، وقسم الموعد وهو خاص بأوقات المواسم والأعياد ، وقسم
 النساء وهو خاص بالزواج والطلاق وما يتصل بهما من الأحوال
 الشخصية ، وقسم العروض والتعويضات وهو خاص بسائر المعاملات
 والمحاكمات ، وقسم المقدسات وهو خاص بشعائر العبادة ، وقسم الطهارة
 وهو خاص بالغسل والتطهير من النجاسات التي حرم معها القيام بالفرائض
 الدينية ..

وزيدت على المشنا في العصور الحديثة كتب من قبيلها تسمى
 بـ « التصافوت » من مادة يضاف أى يضاف ، ومعناها الاضافات ، وأكثر
 هذه الاضافات من وضع الكهان الأوربيين الى القرن الثاني عشر للميلاد
 ولم تشتمل المشنا على جميع المأثورات ، بل بقيت خارجا منها احكام
 تنقل بالرواية ، وتعرف « بالبرايتا » أى البرانية

وانتهى تمحيص المشنا القديمة الى اختيار طائفة من الأحكام المنفق
 عليها تسمى الجمارة أى التكملة

ومن مرويات المشنا والجمارة تجتمع كتب التلمود ، وهى قسمان :
 تلمود بابل ، وتلمود فلسطين ، ولكن التلمود لا يحتوى كل ما فى المشنا
 والجمارة ..

ويعرف بعض المأثورات الاسرائيلية باسم « المدراش » أو الدراسات ،
 وتلك تتضمن أقوال الفقهاء وحواشيهم على النصوص والمحفوظات
 وأشهرها مدراش رباه التى تدور كل دراسة منها على كتاب من كتب
 التوراة الخمسة ، وقد تمت عند القرن السادس للميلاد ، وترجع فى
 أساسيتها كما جاء فيها الى أيام ابراهيم ، ولكنها عند اليهود على درجات
 فمنها ما يعول عليه ومنها ما هو من قبيل القصص التعليمية والأمثال
 الوعظية ، تساق للاعتبار ولا يقصد بها التاريخ أو الاعتقاد

ويظن بعض الألمان مثل جرنبوم Grunbaum ان من المدراش

نبذا منقولة عن اللغة العربية ، ولكن المقابلة بين رواياتها والروايات الاسرائيلية الأخرى تدل على مشابهة قريبة ، وانها على كل حال من مصادر غير اسلامية ..

بل يظن جرنبوم ان بعض العبارات ترجمة حرفية من القرآن الكريم ، كما جاء في كتاب من المدراش ان الله قال : ليوهب البرد والعزاء لخدامى ابراهيم ، والكلمة فيها معنى العزاء والراحة والسلام ، وسنشير الى هذه الملاحظات فى مواضعها ، ونكتفى فيما يلى بالمراجع الضرورية على سبيل التمثيل لكل أسلوب من أساليب الرواية والتدوين فى المصادر الاسرائيلية ، ونبدأ بما له علاقة بسيرة الخليل من عهد الطوفان

يطلق اسم خليل الله وحبيب الله فى الكتب الاسرائيلية على أنبياء غير ابراهيم ، أشهرهم موسى ويعقوب وسليمان ، ويغلب على الكتب المتأخرة وصفه بالحبيب ، ويعتقدون انه هو المقصود بقول ارميا فى الاصحاح الحادى عشر « حيبى فى بيتى »

وفى كثير من كتب المدراش والتعليم يقال ان الدنيا خلقت من أجله ، وان ابناء نوح ضلوا عن سواء السبيل وعبدوا الأصنام وكان جد ابراهيم يدعى (رو) فسمى ابنه (سيروج) أى ذهبوا بعيدا ، وصدق فى هذه التسمية ، لأن سيروج حين كبر وولد له ابن سماه ناحور وعلمه السحر والتنجيم وعبادة الأصنام ، وكان الشيطان (مسطبا) يرسل أعوانه لكيد البشر ويطلقهم على البذور وهى على وجه الأرض كأنهم الغربان لتلتقطها وتفسدها . لهذا سمي ناحور ابنه تيرح أو تارح . ويقول شراح كتاب « اليوبيل » أحد هذه الكتب التعليمية ان الاسم بهذا المعنى غامض ، ولكنه قد يرجع الى كلمة آرامية بمعنى المحو والشحوب

وتزوج تارح من ايمتالى بنت كرئاب ، فرزقا ابراهيم . وكان مولده مرصودا فى الكواكب فأطلع عليه النمرود واستشار الملاء من قومه فأشاروا عليه بقتل كل طفل ذكر واستحياء البنات واغداق العطايا والجوائز على

أهليهن ، ليفرحوا بمولد البنات
وأحس تارح ان امرأته حامل، فلما أراد أن يتحقق من ذلك صعد الجنين
الى صدر أمه فخوى بطنها ولم يظهر فيه حمل ، وهربت أمه حين جاءها
المخاض فأوت الى كهف ولدته فيه ، وتركته ثمة وهي تدعو له ، فبقى
ثلاث عشرة سنة لا يرى الشمس على رواية بعض الكتب ، ومكث في
الكهف أقل من ذلك على روايات أخرى ، وأرسل الله جبريل يراه
فجعل الطفل يمتص أصابعه فيرضع منها ويكبر قبل الأوان

وخرج من الكهف ليلا وهو في الثالثة فرأى النجوم فقال : هذه هي
الأرباب . فلما أشرقت الشمس قال : كلا . بل هذه هي الرب . فلما
أفلت وظهر القمر قال : بل هو هذا .. فلما أفل قال : ما هذه بأرباب .
انما الرب المعبود هو الذى يديرها ويسيرها وييديها ويخفيها

وفى بعض الكتب ان أمه خرجت تتفقده بعد عشرين يوما حيث تركته
فوجدت فى طريقها صبيا ناميا فسألها :
— ماذا جاء بك الى الصحراء ؟ ..

فأنبأته بقصتها ، وعرفها بنفسه فدهشت وعجبت لطفل يكبر ويتكلم
ولما يمض على مولده شهر واحد ..
قال لها : انها قدرة الله الذى يرى ولا يترى ..

ويظن جامعو الأساطير اليهودية ان وصف الله بهذه الصفة منقول من
أصل عربى اطلع عليه يهود الأندلس ، ثم اختلفت تفصيلاته عند نقلها الى
العبرية ..

قالت أمه وقد ازداد عجبها : أإله غير النمرود ؟ ..
قال : نعم يا أماه .. رب السماوات والأرض ، ورب النمرود بن
كنعان . فاذهبى وبلغى النمرود ما سمعت

وأنبأت زوجها تارح وكان أميرا من أمراء الملك ، فذهب اليه يطلب
لقاءه ، فأذن له باللقاء فسجد بين يديه ، ولم يكن من عاداتهم اذا سجد
أحدهم بين يدي الملك أن يرفع رأسه بغير أمره ، فلما أمره الملك أن ينهض

ويتكلم روى له القصة ففزع وفزع أعوانه ووزراؤه ، ثم ملكوا جأشهم وقالوا له : علام هذا الفزع من صبي لاحول له ولا قوة ومن أمثاله في المملكة ألوف وألوف

قال لهم النمرود : وهل رأيتم صبيا في العشرين يتكلم وينطق بمثل هذا البيان ؟ ..

وخشى الشيطان أن يسبق الايمان الى قلب الملك فبرز لهم وأزال ما بهم من الروح ، وحرض الملك على قتل الصبي ، فحشد له جندا من القادة والفرسان وخرجوا الى الكهف الذى قيل لهم ان الصبي مختبىء فيه ، فاذا بينه وبينهم سحب لا ينفذ النظر الى ما وراءها ، واذا بهم محفلون لا يقدرون على الثبات

فلما عادوا الى النمرود وشرحوا له ما عاينوه قال لهم : لا مقام لنا بهذه الديار ! وخرج من بلده الى أرض بابل فلحق به ابراهيم على جناح جبريل ، ولقى هناك أبويه ، ثم بدأ بالدعوة الى الله :

الاله الأحد الذى لا اله غيره : رب السماوات ورب الأرباب ، ورب النمرود . وأنذرهم أن يتركوا عبادة الصنم الذى صنعوه على مثال النمرود . فان له فما ولكنه لا ينطق ، وعينا ولكنه لا يبصر ، وأذنا ولكنه لا يسمع ، وقدماء ولكنه لا يسعى ولا ينفع نفسه ولا يغنى عن غيره شيئا

وأسرع أبوه الى الملك يبلغه ان ابنه ابراهيم طوى مسيرة أربعين يوما فى أقل من يوم ، ثم لحق به ابراهيم الى قصر الملك فمزع عرشه بيديه وصاح به : « أيها الشقى ! انك تنكر الحق ، وتنكر الله الحى الصمد . وتنكر عبده ابراهيم خادم بيته الأمين »

ويخاف النمرود فيأمر تارح أن يعود بابنه الى موطنه ، ثم تتكاثر الروايات فى عشرات من المصادر من كتب المدراس والتفسيرات حول ما حدث بعد ذلك بين ابراهيم وقومه وبينه وبين الملائكة والمملكة وكهنة الأرباب ، مما تغنى هذه الأمثلة عن تفصيله واستقصائه ، وبعضه كما تقدم

معول عليه عند اليهود ، وبعضه من قبيل ضرب الأمثال بالنوادير والأعاجيب ..

وليس من المطلوب أن تتبج هذه القصص والنوادير لأنها تستوعب ألوف الصفحات ، ولكننا نأخذ منها ما ينتظم في أغراض هذا الكتاب ، ومنها ما يدل على تفكير واضع ، أو يفيد عند المقابلة بين المصادر المتعارضة ، أو يلاحظ فيه الوضع لطرافته الأدبية والفنية ، أو يتم صورة أخرى ناقصة في خبر من الأخبار

فما ورد في « مدراش رباه » ان أباه حنق عليه حين كسر الأصنام فخاصمه الى النمرود ، فسأله النمرود : ان كنت لا تعبد الصور والمشبهات فلماذا لا تعبد النار ؟

قال ابراهيم : أولى من عبادة النار أن أعبد الماء الذي يطفئها

قال النمرود : فاعبد الماء اذن ؟

قال ابراهيم : بل أولى من عبادة الماء أن أعبد السحاب الذي يحمله

قال النمرود : اذن تعبد السحاب ..

قال ابراهيم : وأولى من السحاب بالعبادة ريح تبدهه وتسير به من

فضاء الى فضاء ..

قال النمرود : فمالك لا تعبد الريح ؟

قال ابراهيم : ان الانسان يحتويها بأنفاسه فهو اذن أحق منها بالعبادة

ومغزى الحوار ان عقل الانسان قادر بالنظر في خلق الله أن يصل الى

معرفة الخالق وينكر عبادة الأوثان

فلما أعيا النمرود أن يخضعه سجنه ومنع عنه الطعام والماء ، ومضى

عليه عام في غيابه^(١) فأيقن الحارس أنه قد مات ، ولكنه ناداه : يا ابراهيم !

أأنت بقيد الحياة ؟ فسمع جوابه : نعم أنا بقيد الحياة

فأمر الملك بضرب عنقه ، فلم يعمل فيه السيف .. فأوقد له نارا ودفع

به الى أحد أعوانه ليقذف به فيها ، فلما قاربها خرج من الأتون لسان من

النار والتمهم الجلاد ولم يقترب من ابراهيم

(١) غيابه : الغيبة من كل شيء ما سترك منه كغيابة البئر لقعره .

فتشاور الملائكة عند الملك في أمره ، فاتفقوا على احراقه والقائه في النار من منجنيق بعيد ، مخافة من لسان النار . وضرع الملائكة الى الله أن ينجيه فأذن لهم أن يعملوا لنجاته ما يستطيعون ، ولكنه أبى أن يعتمد في نجاته على أحد غير الله ، واذا بالجرم من حوله كأنه فراش من الورد والريحان ..

ولم يصدق النمرود انها معجزة من الله ، بل قال لابراهيم انها من سحرك وحيلتك .. أما الأمراء والوزراء فخذلوا الملك وآمنوا برب ابراهيم ..

ولم تذكر التوراة ان ابراهيم ألقى في النار ، وانما ورد في سفر دانيال من أخبار بابل ان نبوخذنصر غضب على ثلاثة من الفتية الصالحين لأنهم لم يسجدوا لصنم من الذهب .. « حينئذ امتلأ نبوخذنصر غيظا وتغير منظر وجهه على شدرخ ، وميشخ ، وعبدنغو . وأمر بأن يحمى الأتون سبعة أضعاف .. وأمر جبابرة القوة في جيشه بأن يوثقوا شدرخ ، وميشخ ، وعبدنغو ، ويلقوهم في أتون النار المتقدة ، ثم أوثق هؤلاء الرجال في سراويلهم وأقمصتهم وأرديتهم ولباسهم وألقوا في وسط أتون النار المتقدة . والأتون قد حمى جدا فقتل لهيب النار الرجال الذين رفعوا شدرخ ، وميشخ ، وعبدنغو .. وهؤلاء الثلاثة سقطوا موثقين في وسط الأتون .. حينئذ تحير (نبوخذنصر) الملك وقام مسرعا وسأل مشيريه : ألم نلق ثلاثة رجال موثقين في وسط النار ؟ . فأجابوا وقالوا : نعم أيها الملك ! .. قال : ها أنا ناظر أربعة رجال محلولين يتمشون في وسط النار وما بهم ضرر ، ومنظر الرابع شبيه بابن الآلهة . ثم اقترب نبوخذنصر الى باب أتون النار المتقدة ونادى فقال : يا شدرخ وميشخ وعبدنغو ، يا عبيد الله العلى .. اخرجوا وتعالوا .. فخرجوا ، واجتمعت المرازبة^(١) والشحن والولاية ومشيرو الملك ورأوا هؤلاء الرجال الذين لم تكن للنار قوة على أجسامهم ولم تحترق شعرة من رؤوسهم ولم تتغير سراويلهم ورائحة النار لم تأت عليهم ، فأجاب نبوخذ نصر وقال تبارك اله

(١) المرازبة : جمع مرزبان بضم الزاي عند الفرس : الرئيس المقدم على القوم دون الملك .

شدرخ وميشخ وعبدنغو الذى أرسل ملاكه وأتخذ عبيده الذين امتلكوا عليه »

والشبه بين هذه القصة وقصة ابراهيم ظاهر ، وسامع دانيال بها في يابل له دلالة في هذا الصدد ، ولكن بعض الشراح يزعم ان القصة لم تكن معروفة قبل يوناثان بن عزيزيل الذى كان يجهل البابلية فالتبس عليه معنى (أور) لأنها بالكلدانية تعنى النار وبالعبرية تعنى النور ، وظن أن نجاة ابراهيم من « أور الكلدانيين » يعنى نجاته من نار الكلدانيين ولكن هؤلاء الشراح ينسون ان القصة قديمة وردت في باب الفصحيات من القسم الثانى من المشنا ، وهو قسم المواعيد والمواقيت (١) : وانها أطول أصولا وفروعا من أن تبني على خطأ في ترجمة كلمة ، ولا سيما الكلمة التى يعرفها كل يهودى يذكر « أورشليم » ويفهم معنى أور ومعنى شليم ، وهما معروفان لأجهل القوم بالعبرية ، ومن معانيها الشعبية الشائعة دار السلام ، على صواب أو على خطأ

وزعم شايبيرا Shapira ان القصة من وضع كعب الأجار ، ولا تعويل على أقوال شايبيرا هذا لأنه زور بعض الوثائق على المتحف البريطانى ، وانكشف تزويره فبجح نفسه في روتردام (١٨٨٤) ومن المعلوم أن ترجموم يوناثان - أى ترجمته - كان المعتمد الأكبر فيها على شروح الربانيين ولم تكن نقلا مباشرا من نصوص التوراة ولا بد أن يلاحظ هنا أن الكنيسة السريانية التى يعيش أتباعها في بلاد الكلدان القديمة بين سورية والعراق ، والتى اشتهر آباؤها بدراسة السريانية - وهى الآرامية بعينها - لا تعتبر أن القصة ناشئة من غلطة في الترجمة وتقييم لنجاة الخليل من النار حفلا سنويا في الخامس والعشرين من شهر كانون الثانى

على انه من الراجح جدا أن اليهود رجعوا الى المصادر العربية في رواية قصص المدراس وما اليها ، لأنهم كادوا أن ينحصروا في بلاد الدولة العربية من صدر الاسلام الى القرن الثالث للهجرة وكادت بحوثهم

١ صحيفة ٢١٢ من المجلد الخامس من اساطير اليهود المتقدم ذكره

الفقهية في دياتهم أن تكون اقتباسا من بحوث علماء الكلام المسلمين . وكادت اللغة العربية أن تكون معتمدهم الوحيد في الثقافة العليا والثقافة العامة ، حتى كانوا يكتبون العربية أحيانا بحروف عبرية ، ولكن الاحتراس واجب على أية حال من تلك العلل التي يستند إليها بعض المستشرقين في نسبة الأخبار الى المصادر العربية الاسلامية ، ومن أمثلة هذه العلل ان بعضهم يرد الى المصادر الاسلامية قصص المدراس التي تقول ان جبريل هدى ابراهيم الى عين ماء يغتسل فيها قبل العبادة ، فان التظهر بالاعتسال قبل العبادة شعيرة قديمة في الأديان وليست مقصورة على الوضوء في الاسلام ، وقد قيل ان الصابئة محرقة من السابحة لأنها تفرض الاعتسال في شعائرها قبل كثير من العبادات . ولا بد من التفرقة بين المصادر العربية والمصادر الاسلامية في كثير من الروايات ، فقد يكون المصدر عربيا اسرائيليا لا علاقة له بتاريخ الاسلام ..

ومن أشهر الروايات في النمرود والخليل تلك القصة التي يعللون بها اختلاف الألسن بين الأمم ، وخلصتها ان النمرود هذا أراد أن يتحدى اله ابراهيم فبنى له برجاً عالياً وصعد عليه ليناجز^(١) الله في سمائه ، ثم طفق يرمى السماء بالسهام حتى عاد اليه سهم منها وقد اصطبغ بالنجيع^(٢) الأحمر، فخيّل اليه أنه أصاب مرماه ، ولكنه لم يلبث أن سقط على الأرض وسقط معه قومه ، ونهضوا من سقطتهم وهم يتصايحون بكلام لا يفهمونه لأن السماء أرسلت عليهم سهاماً من الصواعق زلزلت البرج وقوضت أركانه وتركتهم في بلبال حائرين لا يدرون ما يفعلون وما يقولون ، ولا يفقه السامع منهم ما يقال له أو يفعله في حيرته . قال الرواة : ولهذا سميت المدينة في موضع البرج « بابل » من تبلبل الألسنة والأفكار

ويندر الاتفاق على أصل قصة واحدة من القصص التي تفيض بها كتب المدراس وحواشيها ، بل تروى الأسماء والأعلام أحيانا على روايات

(١) ليناجز : ناجز الفارس قرنه بارزه حتى يقتله أو يقتل . (٢) النجيع:

متعددة ، ومن ذلك انهم يذكرون سارة باسم اسكاح Iscah ويقولون انها مأخوذة من النظر ، ويوحدون بين اسم ابراهيم واسم ايثان الازراحي في المزمور التاسع والثمانين ، ويقولون ان داود كتبه بمشاركة الخليل وللتوحيد بين الاسمين هنا دلالة خاصة ، فان ايثان الازراحي منسوب الى زارح وينطق بهمة في اوله على العادة في النطق بالساكن ، وقد تكون الحاء والياء للنسبة كما يقولون في (مزراحي) بمعنى مصرى ، ويكون ايثان منسوباً الى آزر ، وهو الاسم الذى ذكر في القرآن كما سيأتى بيانه في المصادر الاسلامية

ومن الواجب أن يلتفت هنا الى المقاربة بين زارح وزارع وتارح ، وقد تقدم ان لاسم تارح علاقة بحبوب الزرع التى تلتقط قبل تمكثها من التربة ..

فلا محل اذن لنقد الاسم كما جاء في القرآن الكريم ، اعتماداً على ذلك الاختلاف اليسير فى اللفظ القديم ، وقد ذكر يوسبيوس Eusobius المؤرخ المسيحى اليونانى أن ابا ابراهيم الخليل يدعى آثر ، وزعم بعضهم - ومنهم سنكلر تسديل ، صاحب كتاب مصادر الاسلام ، وهو من أشد المتعصبين قدحا فى الاسلام - ان للاسم أصلاً فى الفارسية القديمة بمعنى النار ..

ومن الاختلاف فى الأخبار المدرائية التى اتصلت بالتاريخ أن بعضها أنكر أن يقال عن الخليل انه عالم بالنجوم ، ورد على الربيين الأقدمين الذين زعموا انه كان يحمل فى قلبه زيجاً فلكياً يكشف به الغيب لمن يسألونه من ملوك الشرق والغرب ، فقال صاحب مدراش رباه انه نبى وليس بمنجم ، واتصلت هذه الروايات المدرائية بالتاريخ فقال يوسيموس المؤرخ الاسرائيلى المشهور أن الخليل درس علم النجوم ولكن فى مصر لا فى بابل واستند فى ذلك الى رواية ارتبانوس Artapanus الذى زعم أنه أقام بمصر عشرين سنة واطلع على أسرار الكهانة وعلم الفلك وطوالع

النجوم ، وفي قصة أخرى لم يذكرها يوسفوس يقال ان ابراهيم هو
الذى علم المصريين الفلك والتنجيم
ولكن كتب المدراش تتفق على وصف الخليل بالسماحة والكرم
والعطف على خلق الله من الانسان والحيوان ، ومن أحاديثها في ذلك أن
ابراهيم سأل ملكى صادق : كيف خرجت سالما من سفينة نوح ؟ فقال له
بالخير الذى فعلناه

قال ابراهيم وما الخير الذى فعله في سفينته ؟ هل كان في السفينة من
فقير تسدى اليه المعروف ؟ ان نوحا قد حمل معه بنيه فهل كان فيهم فقير ؟
قال ملكى صادق : بل كان معنا الحيوان والطير وكنا لا ننام حتى
نطعمها ونسقيها

وقد عاش ابراهيم حياته يطعم الفقير ويحسن الى الانسان والحيوان ،
ويفتح بابه للضيفان ولا يجلس الى الطعام الا اذا نادى على الرائح
والغادى في الطريق ليجلس معه الى طعامه
وما من علامة أدل على صدق النسب الى ابراهيم من نظرة سليمة.
(لا تحسد) ونفس مطمئنة وقلب وديع

وتذكر « مدراش رباه » فيما تذكر أن ابراهيم شفيع أمته يوم
القيامة ، وانه يقف على باب جهنم فلا يدع اسراييليا مختونا يدخلها .
ومن عظمت سيئاته منهم وحرم التوبة في آخرته فلن يدخل النار مختونا ،
بل توضع له جلدة من جلود الأطفال الذين ماتوا قبل الختان ، وصحت
لهم نعمة الغفران ..

أما (سارة) فقد خصتها (المشنا) بقسط كبير من الأخبار والنوادر ،
ولم يخل منها خبر أو نادرة من خلاف كثير ..

فهى تارة أخت غير شقيقة لابراهيم ، وهى تارة بنت أخيه الذى مات
قبل الهجرة الى كنعان ..

وهى المرأة الوحيدة التى خاطبها الله ، وهى نبية تنظر الى الغيب وتدعو

الله أن ينقذ ذرية ابراهيم مما سيلقون من المحن والشدائد ، ولكنها في مواطن كثيرة تعاقب لمخالفة السنن وضعف اليقين ولم تخلق امرأة قط بجمال سارة . فأجمل النساء بالقياس اليها كالقرد المسوخ .. وقد بلغ من فتنة جمالها أن ابراهيم لم يملأ منها عينيه ، وانما لمح خيالها في الماء وهم يعبرون بعض الجداول الى مصر ، فخاف على فرعون وقومه فتنتها ، وحملها في تابوت وهم يعبرون تخوم الديار وسأله عمال المكوس عما في التابوت. فأنبأهم أنه شعير .. قالوا بل نأخذ المكوس على قمح قال : خذوا ما تشاءون ، فعادوا يطلبون الضريبة على بهار ، فأجابهم الى ما طلبوه ، فارتابوا فيما يخفيه وأمروه أن يؤدي الضريبة على وسق التابوت ذهباً فقبل وأعطاهم سؤالهم .. فحيرهم بقوله كل ما يسومونه أن يبذله وخامرهم شك عظيم ، ففتحوا التابوت عنوة فاذا بالنور يفيض من وجه سارة حتى يعم الديار ويعشى عين فرعون ولما حاول فرعون أن يقترب منها رصد له حارسها من الملائكة فجعل يضربه على يده كلما بسطها ، وعلى قدمه كلما سعى اليها ، وأصبح فاذا هو مصاب بالجذام وبالعنة ، واذا بنذير من الله ليرسلن الوباء على فرعون وقومه ان لم يرجع سارة الى ابراهيم ..

ويفسر بعض المدراس عقمها بأن الله أحب أن يسمع صلواتها ، ويفسر عقمها في مدراس آخر بأنها قد نزهت عن خلقة الرحم ويروى في كثير من الحواشي أنها أرضعت مائة طفل يوم ختان اسحاق

وبعض الحواشي يتكلم عن فرعون ابراهيم وفرعون يوسف كأنهما ملك واحد ..

فلما شكوا فوطيفار الى فرعون لأنه أقام عبده الذي اشتراه بعشرين دينارا حاكما على مصر - يعنى يوسف الصديق - قال يوسف : بل أنت اقترفت خطيئة عظمى يوم اشتريت أميرا من نسل سام بالثمن كما يشتري العبيد ، وانما يشتري بالثمن أبناء كنعان ، وان أردت برهانا على نسبي فدونك التمثال الذي صنعه فرعون لجذتى سارة ، فهو ينبئك

بالشبه الذى بينى وبينها ، ثم جاءوا بالتمثال فاذا بالشبه بينه وبين يوسف جد قريب ..

والكلام على أبى سارة يدور تارة على حاران وتارة على تارح فمن أقوال الحواشى عن حاران انه احترق بالنار حين اقترب منها ، لأنه غاربا متحننا لقدرة الله ، ومن أقوالها عن تارح انه عاش حتى رأى اسحق فى الخامسة والثلاثين من عمره

وأشهر الروايات عن تارح انه كان مثالا يصنع الأصنام ، وان ابراهيم اهتدى الى ضلال هذه العبادة لأنه رأى أباه يصنعها ويصلحها ، وكان يبيعها لأبيه ، فعجب للذين يشترونها كيف يعبدون صنما مصنوعا بالأمس ومنهم من جاوز الخمسين

وكان لناحور - أخى ابراهيم - صنم يسمى زيوكس Zuehus والى جانبه صنم يسمى جوآف ، وأولهما مصنوع من الذهب والثانى مصنوع من الفضة ، وأما الأصنام الأخرى فمن الخشب أو الطين وحاور ابراهيم أباه - وقد رأى الأصنام تحترق ذات يوم - فقال له : يا أبت ! ان النار أحق بعبادتك من أصنامك ، لأنها تحرقها ، ثم قال : « بيد أنى لا أحسب النار الها لأن الماء يخمدها ، ولا أحسب الماء الها لأن الأرض تبلمه ، ولا أحسب الأرض الها لأن الشمس تبا وتنتشر على الكون كله أشعتها ، ولا أحسب الشمس الها لأن النجوم يحجبها ، ولا أحسب القمر والنجوم التى تظهر فى الظلام آلهة لأنها تحتجب عند طلوع النهار ، وانما الاله القدير على كل شىء هو خالق الشمس والقمر والكواكب والأرض وما عليها ، وخالق وهادى الى الحق المبين

ولم يستمع اليه أبوه فذهب الى أمه وسألها أن تعد طعاما للأصنام ، ثم أهوى على الأصنام يحطمها ووضع القدم فى يد كبيرها ، وأسرع أبوه على صوت الحطام نسأله : ماذا دهاها ؟ قال : هذا أنحى عليها فكسرها ولا يزال القدم فى يديه ، فصاح به أبوه : انك لتكذب فما فى وسع هذا الصنم أن يفعل ما زعمت ، قال ابراهيم : عجبا لك يا أبتاه !

تعبد هذه العجزة التي لا تقدر على ضرر ولا نفع ، ثم وثب على الصنم الكبير فأخذ القدوم من يده وضربه فألقاه ، وهرب من وجه أبيه ونختم الاقتباس من المرويات الاسرائيلية برواية الكتاب الذي يسمونه سفر التكوين الصغير ، وينسبون اليه الدقة في ايراد التواريخ بأرقام السنين والاعتدال في أسلوب الكلام على المبالغات والتشبيهات الوثنية ، ونعنى به كتاب اليوبيل

فهذا الكتاب يقول ان نوحا عليه السلام توفي بأرض الكلدانيين سنة ١٦٥٠ قبل الميلاد ، وأن تيرحا أو تارحا أبا ابراهيم ولد سنة ١٨٠٦ وولدت زوجته « ادنا » ابنة ابراهيم سنة ١٨٧٦ وسماه « ابرام » على اسم أبي جدته لأمه واسمها ملكة ، وهذا بحساب السنين من تاريخ الخليقة



وهذه الأخبار والنوادر تزدهم بها مئات الحواشى والتفاسير ، ومعظمها مسطور في المجلدات السبعة التي جمعت أساطير اليهود وسبقت الاشارة اليها ، وكل ما عداها فهو من قبيلها وحقيقتها التي نخرج بها منها جميعا انها مرويات متواترة بالسماع ، يتناقلها الخلف عن السلف جيلا بعد جيل ، ولا يظهر فيها الاعتماد على النصوص المكتوبة ولا سيما نصوص التوراة ، لأنها تخالف هذه النصوص وتناقضها أحيانا ، وبينها ولاشك روايات متأخرة في تصورها وروايتها ، ولكنها تبنى على قديم ثابت ولا تخلق شيئا من لا شيء ، فلا بد وراءها من أصل منقول غير الأصل المكتوب ، وليست نصوص العهد القديم هي الأصل الوحيد الذي تدور عليه هذه الحواشى والتعليقات

المراجع المسيحية

المصادر المسيحية المتفق عليها بين الكنائس هي الأناجيل الأربعة وما يلحق بها من أقوال الرسل والحواريين ، وهي المعروفة بالعهد الجديد.. وهذه الكتب لم تزد شيئا على سيرة الخليل كما جاءت في سفر التكوين وبعض كتب العهد القديم ، ولكنها جاءت بتطور هام في دعوته كما تلقاها اليهود في عصر الميلاد ، ويبدو هذا التطور الهام في مسائل ثلاث من كبريات المسائل الدينية ، وهي مسألة الحياة بعد الموت ، ومسألة الوعد الالهي للشعب المختار وعلاقته بالقومية أو الانسانية ، ومسألة الشعائر وعلاقتها بالروحانيات والجسديات

ففي عصر الميلاد كانت طائفة كبيرة من اليهود وهي طائفة الصدوقيين تنكر القيامة بعد الموت ولا ترى في الكتب الخمسة دليلا واضحا عليها ، وكانت الطوائف الأخرى تؤمن بالثواب والعقاب على الجملة ولكنها لا تتوسع في وصفها ولا ترجع في هذا الوصف الى سند متفق عليه وكانوا اذا وصفوا سوء المصير عبروا عنه بالذهاب الى الهاوية (شيول) واذا وصفوا الرضوان قالوا عن الميت انه انضم الى قومه ، أو اجتمع بقومه ، وفي أذهانهم صورة غامضة عن وجود هؤلاء القوم في عالم غير عالم الحياة الدنيا

وانتشرت بين أهل فلسطين من اليهود وغيرهم عقائد المصريين في اليوم الآخر ، لأنهم كانوا يترددون على الاسكندرية ، كما كان أهل الاسكندرية يترددون عليهم ، ولم تكن في العالم معاهد للثقافة والبحث أكبر من معاهدها ، غير مستثنى من ذلك رومه ولا أثينا ولا المدن الشرقية التي كان لها قبل ذلك شأن مذكور في العلم والفن والحكمة

وانتشرت بينهم كذلك عقائد الفلاسفة اليونانيين في خلود الروح والتميز بينها وبين الأجساد التي يعرض لها الفناء فلما ظهرت الدعوة المسيحية جاءت بوصف للعالم الآخر لم يكن معهودا في كتب اليهود ، ولكنه وصف لا سبيل لهم الى الاعتراض عليه ، لأنه قائم على قاعدة من دعوة ابراهيم .. ففي مسألة الحياة بعد الموت ضرب لهم السيد المسيح مثل ابراهيم ولعازر والرجل الغنى في العالم الآخر فقال :

« كان انسان غنى يلبس الارجوان والجز وینعم كل يوم في رفاهة ، وكان عند بابه رجل مسكين مطروح مضروب بالقروح يشتهي ان يشبع من الفتات الساقط من مائدته ، بل كانت الكلاب تأتي وتلحس قروحه ، فمات المسكين وحملته الملائكة الى حضن ابراهيم ، ومات الغنى ودفن ورفع عينيه في الهاوية وهو يتعذب ، ورأى ابراهيم من بعيد ولعازر في حضنه ، فنادى وقال : يا ابراهيم ! ارحمنى ، وارسل لعازر ليبل طرف أصبعه بماء ويبرد لساني ، لاني معذب في هذا اللهب

» فقال ابراهيم : يا ابني ! أذكر أنك استوفيت خيراتك في حياتك واستوفى لعازر بلاياه ، والآن هو يتعزى وأنت تتعذب ، وفوق هذا بيننا وبينكم هوة عظيمة قد أثبتت ، حتى أن الذين يريدون العبور من ها هنا اليكم لا يقدرّون ، ولا الذين من هناك يجتازون إلينا ، فقال : أسألك اذن يا ابت أن ترسله الى بيت أبى ، لأن ل خمسة أخوة يشهد لهم لكيلا يأتوا هم أيضا الى موضع العذاب هذا

» قال له ابراهيم : عندهم موسى والانبياء ليسمعوا منهم ، فقال : لا يا أبى ابراهيم ، بل اذا مضى اليهم واحد من الاموات يتوبون ، فقال له : إن كانوا لا يسمعون من موسى والانبياء فمن قام لهم من الاموات فما هم امصدقيه (١) «

والشراح يقولون ان هذه العظة يجوز أن تكون خبرا ويجوز أن تكون مثلا ضربه لهم السيد المسيح من قصة معروفة لديهم ، ويقول لوثر كلارك Lowther Clarke شارح التوراة والانجيل ان اسم لعازر «البعازر» معناه «ايل آزر» أو الله أعان ، وانه من الأسماء التي قد تطلق على المجهولين عند ضرب الأمثال (كما نقول في اللغة العربية زيد وعمرو وبكر وخالد) وقد سبق مثله في كلام ابراهيم عن خدام داره ... قال : وان في

(١) انجيل لوقا الاصحاح السادس عشر

مأثورات مصر قصة شبيهة بها عن مصير المحسن والمسيء يجوز أن تكون معروفة بين يهود فلسطين ولم يذكر اسم علم قط في مثل من أمثلة السيد المسيح غير هذا المثل وأيا كان المعتمد من أقوال الشراح فلا خلاف بينهم على أمر واحد ، وهو وصف الحياة الأخرى وما فيها من الثواب والعقاب بهذه الصفة ، فانه معنى جديد لم يسبق له مثيل في كتب العهد القديم ، واذا استثنينا كتاب المكابيين - وهو من الكتب المختلف عليها - فلم تأت عبارة حزن ابراهيم أو غيره من الأنبياء بهذا المعنى في كتاب من كتب التوراة قال « جورج ستمبسون » Stimpson في مصنفه الذي سماه « كتاب عن الكتاب »

« كان رجاء الحياة بعد الموت مقصورا في أيام العهد القديم على البعث الذي سيعقب ظهور المسيح ، ولكن الكلام عن السماء والجحيم وحزن ابراهيم كان شائعا على عهد عيسى (عليه السلام) بين طوائف من اليهود ، ومن ثم مثل الغنى ولعازر في انجيل لوقا ، وفيه يقول عيسى : فمات المسكين وحملته الملائكة الى حزن ابراهيم ، ومن هذه العبارة أصبح حزن ابراهيم مرادفا لمعنى النعيم أو السماء »

وقد ورد في سفر أيوب أن نفسه ستري الله بغير الجسد حيث يقول في الاصحاح التاسع عشر « وبعد أن يفنى جلدى هذا ، وبدون جسدى ، أرى الله » ... وورد في المزمور السادس عشر « انك لن تترك نفسى في الهاوية » .. وورد في الاصحاح الثانى عشر من سفر دانيال : « وكثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون ، هؤلاء الى الحياة الأبدية وهؤلاء الى العار ... »

ولكن ورد في سفر التكوين ان الهاوية مصير جميع الموتى ، وجاء على لسان يعقوب في الاصحاح السابع والثلاثين ، وهو يبكى على يوسف : وقال : انى أنزل الى ابنى نائحا الى الهاوية « وهكذا جاء على لسانه في الاصحاح الثانى والأربعين : « تنزلون شييتى بحزن الى الهاوية »

وجاء على لسان أيوب في الاصحاح الرابع عشر « ليتك تواريني في الهاوية وتخفيني الى أن ينصرف غضبك وتعين لى أجلا فتذكرنى »
وانما يأتى البعث من القبور بعد ظهور المسيح كما جاء في الاصحاح السابع من سفر دانيال : « والمملكة والسلطان ، وعظمة المملكة تحت كل السماء تعطى لشعب قديسى العلى »
وكل ما ورد في العهد القديم باسم جهنم فهو فى الأصل العبرى باسم شيول أو الهاوية

أما عقيدة الحياة بعد الموت للأبرار والأشرار فقد وضحت فى عصر المسيح على نحو لم يكن معروفا قبله ، ولم يكن المفهوم فى ذلك العصر أن الأبرار يذهبون فعلا الى صدر ابراهيم ، وانما كان المقصود أن ابراهيم يرحب بذريته فى عالم الرضوان

ومن العقائد التى ظهرت مع المسيحية ان رسالة ابراهيم روحية وليست جسدية ، وان المقصود بذريته من يسرون على نهجه ويعملون بوصيته ، فهى رسالة انسانية وليست عصبية مقصورة على قوم من الأقوام ..
ففى الاصحاح الثامن من انجيل متى يقول السيد المسيح :

(الحق أقول لكم لم أجد فى اسرائيل ايمانا بمقدار هذا ، وأقول لكم أن كثيرين سيأتون من المشارق والمغرب ويتكثرون مع ابراهيم واسحق ويعقوب فى ملكوت السماوات وأما بنو الملكوت فيطرحون الى الظلمة الخارجية ..)

ومثل هذا فى كلام يحيى المغتسل - أو يوحنا المعمدان - (.. اصنعوا أثمارا تليق بالتوبة ولا تبدئوا تقولون فى أنفسكم : لنا ابراهيم أبا ، لأنى أقول لكم ان الله قادر أن يسم من هذه الحجارة أولادا لابراهيم)
وتكرر هذا المعنى من كلام السيد المسيح فى انجيل لوقا حيث جاء فى الاصحاح الثالث عشر :

« انى أقول لكم ان كثيرين سيطلبون أن يدخلوا ولا يقدرن من بعد ان يكر رب البيت قد قام وأغلق الباب وابتدأت تفتنون خارجا وتقرعون الباب

قائلين : يا رب ! يا رب افتح لنا . . . يجب ويقول لكم : لا اعرفكم من أين انتم . . . تبادوا عنا يا جميع فاعلى الظلم . هناك يكون البكاء وصرير الاسنان ، متى رايتهم ابراهيم واسحاق ويعقوب وجميع الانبياء فى ملكوت الله وانتم مطروحون خارجا ، ويأتون من المشارق ومن المغرب ، ومن الشمال والجنوب ، ويتكثرون فى ملكوت الله ، وهو ذا آخرون يكونون أولبين وأولون يكون آخريين »

وفى الاصحاح الثانى من انجيل يوحنا ان المسيح قال لليهود الذين آمنوا به : « انكم ان ثبتتم فى كلامى فبالحقيقة تكونون تلاميذى وتعرفون الحق والحق يحرركم » فأجابوه : اننا ذرية ابراهيم ولم نستعبد لأحد قط ، فكيف تقول انكم تصيرون أحرارا ؟ قال : الحق الحق أقول لكم : ان من يعمل الخطيئة فهو عبد للخطيئة ، والعبد لا يبقى فى البيت أبدا . أما الابن فيبقى الى الابد

ثم قال : لو كنتم أولاد ابراهيم لكنتم تعملون أعمال ابراهيم ! وقال بولس غير مرة ان الختان لا يجعل الانسان ابنا لابراهيم وانما أبناؤه من يسلكون فى خطوات الايمان ، وان ابراهيم « أب لنا جميعا والله جعله أباً لأمم كثيرة »

كما جاء فى رسائل بولس الى أهل رومية « لأن الكتاب يقول : ان كل من يؤمن به لا يخزى ، ولا فرق بين اليهودى واليونانى ، لأن ربا واحدا للجميع » .. « وان حكم الناموس يتم بالروح لا بالجسد » .. « وان اهتمام الجسد موت ، وأما اهتمام الروح فهو الحياة والسلام »

وتوسع الشراح المحدثون فى التعليق على أقوال بولس الرسول وأمثالها فقال الدكتور جورج دنكان Duncan فى أحدث تفسيراته لرسالة بولس الى أهل غلاطية « مما له بعض المغزى انه فى حين ان قصة ختان ابراهيم تقوم على المصدر المتأخر لكتب التوراة الخمسة الذى نسميه بنسخة الكهان ، فان معظم قصص ابراهيم ... ترجع الى مصادر نسخة يهوا وألوهيم التى تقترن بتعاليم الأنبياء الأولى ، وهى تشف عن نزعة دينية لا تخالف الشرعيات التى برزت خلال فترة النفى وحسب ، بل

تناقضها ، ولا جرم تنزل هذه القصص منزلة الرضى والاعجاب عند اليهود الذين كانوا فى الأزمنة المتأخرة لا يعظفون على منهج الشرعيين ، ومن ثم كان الفيلسوف فيلون الاسكندرى المشهور بالتوفيق الكبير ، ويبدو فى الاصحاح الحادى عشر من الرسالة الى العبرانيين انه كان فى ذلك الحين اتجاه مستعد فى بعض البيئات لاعتبار حياة ابراهيم كلها دائرة حول الثقة بالغيب »

يريد الشارح الحديث بالتوفيق الذى اشتهر به الفيلسوف فيلون توفيقه على الخصوص بين مذهب الروحيين المتعلقين بالايمان ووجدان النفس وبين الشرعيين أو الكهان الذين كانوا يتشددون فى المراسم والشعائر وكل ما يعتمد فى القيام به على الكهانة والوظائف الهيكلية ومنها الختان وأعمال الطهارة والكفارة ، وهذه هى الشعائر التى كان كهان اسرائيل يحرصون عليها فى منفاهم ببابل ، ابقاء على معالم العبادة الاجتماعية ، وخوفا من نسيانها واندثارها اذا وكل الأمر كله الى عقائد الوجدان فى نفوس الآحاد متفرقين ، وقد كان فيلون مطلعاً على نسخ التوراة الأولى ، ومنها نسخة يشير فيها سفر التكوين الى ابراهيم باسم الخليل قبل أن تعرف هذه التسمية فى كتب الأنبياء

وقد نقل بولس بعض الشعائر من المدلولات الحسية الى المدلولات النفسية الرمزية وافتتح الباب واسعا لهذا التحول منذ قال السيد المسيح ان أعمال الانسان هى التى تطهره أو تنجسه ، ثم مضى بولس فى هذا الطريق على الرغم من معارضة بطرس وزملائه ، لأنه أدرك ان اشتراط الختان ومراسم البيع والهيكل لقبول الوثنيين فى الدين الجديد عائق شديد يوشك أن يصددهم جميعاً عن الاصغاء اليه ، وقد انتهى الأمر فى القرون الحديثة الى اسقاط هذه المراسم فى مذهب اليهود الذين سموا أنفسهم بالأحرار أو يهود الإصلاح وشاع مذهبهم منذ القرن التاسع عشر بين اليهود الغربيين

وتتابعت تفسيرات الآباء للشعائر الجسدية بالرموز النفسية من القرن

الأول للميلاد ، فأخذ بها معظم الكنائس الشرقية والغربية وفيما يلي مثال من تفسيرات هذه الرموز منقول من كتاب الدر الثمين في شرح سفر التكوين (١) (٢)

« ان الخطيئة هي غلغة النفس ، فاذا نحن تعمدنا ختن روح القدس تلك الغلطة التي جعل الله غلطة اللحم اشارة اليها ، وانما غلطة اللحم اذا اختنت لا يمكن عرديتها ، واما هذه الغلطة التي هي الخطيئة فاذا ختنها روح القدس يوم المعمودية وطهر الانسان منها فالشيطان يعود فيقاتله بها فينبغى له ان يقاتله دائما ولا يفعلها »

الى ان يقول : اما قول الله لابراهيم ان ملوكا تخرج منك فليس بملوك ارضية يمدح الله ويفخر ، ولو كان ذلك كذلك لكان للكفرة فخر كبير لكثرة الملوك منهم ، بل في الوقت الذي امره الله بالختان قال له : ان ملوكا تخرج منك ، وحقق ذلك ان الذي يختن الختانة الروحانية المتقدم ذكرها فعقله يكون ملكا وحاكما على أفكاره وعلى شهواته ولذاته . . . »



وظلت أخبار التلمود والمدراش عن ابراهيم شائعة بين المسيحيين كما كانت شائعة قبل الميلاد ، لأنهم يرجعون الى العهد القديم وشروحه وتفسيراته ، ولكنهم اعتبروا أن بشائر ابراهيم كلها مرهونة بظهور المسيح الذي يكون الخلاص على يديه ، ومن أجل المسيح تلقى ابراهيم تلك البشائر من الله ، فانتشرت الكرامات والمعجزات التي نسبت الى الأنبياء والآباء قبل الميلاد انتشارا كبيرا في صدر المسيحية وزمنا طويلا بعد نشأتها الأولى الى ما بعد القرون الوسطى ، وجعل الرواة المسيحيون يلحقونها بمعجزات المسيح ويحسبونها مقدمة لا تتم الا بنتيجتها الموعودة ، وهي دعوة المسيح الى النجاة

وعمد بعضهم الى تفسير كتب العهد الجديد بهذه العقيدة في أقوال غير معتدة ولكنها سرت بين السواد والعلية كما سرت من قبل تفسيرات العهد القديم

فمن أمثلة ذلك عبارة وردت في رسالة بطرس الأولى حيث يقول في الاصحاح الثالث :

(١) طبع سنة ١٨٩٥ بمصر ونقل من نسخة خطية كتبت سنة ١٤٠٩ قبطية

(٢) غلطة : الغلطة بالضم الجليدة التي يقطعها الخاتن .

« ان المسيح أيضا تألم مرة واحدة من اجل الخطايا .. مماثا في الجسد معيبي في الروح (١) وبالروح أيضا ذهب فوعظ الارواح التي في السجن ، اذ عصت قديما حين كانت اداة الله تنتظر مرة في أيام نوح »

فبنى بعضهم على هذه العبارة قصة لا يعتمدها المفسرون الكتابيون وقالوا في تفسيرها ان السيد المسيح هبط الى الهاوية - سنة ثلاث وثلاثين للميلاد - وأطلق منها أرواحا صالحة ذهبت اليها قبل بعثته ، ولم تكن لها جناية تعاقب عليها ولكنها كانت في حاجة الى التطهير بماء العماد لتدرك نعمة النجاة ..

وسرت هذه القصة من السواد الى العلية من أمثال الشاعر الايطالى الكبير دانتي اليجيرى صاحب الكميديا الالهية ، فقال في القصيدة الرابعة من الحوار بينه وبين الشاعر الرومانى القديم « فرجيل » قائده في طبقات الهاوية :

« لم تكن ثمة شكاة تسمع الا الانين الذى يهز الاجواء الابدية ، وكان ينبعث من تلك الاحزان التى لا عذاب فيها : احزان الجموع المتكونة من الأطفال والنساء والرجال . فقال لى أستاذى : انك لم تسأل عن هذه الارواح التى تراها هنا . وأود ان اعرفك بها قبل ان نتقدم في طريقنا »
« انها لم تخطيء ، وكان لها فضل ، ولكنه لا يغنيها لحاجتها الى العماد وهو الايمان الذى أنت به تدين ..

« فانها تقدمت عصر المسيح فلم تعبد الله على سواء ، ومن هذه الارواح كنت المتحدث اليك ..
« فغشى قلبى حزن عظيم عند سماعه ، لاننى اعرف اناسا ذوى فضل كبير معلقين في تلك الطبقة ..

« وقلت له : أخبرنى يا أستاذى ، أخبرنى * وأردت اليقين من هذا الايمان الذى يغلب كل خطأ : ألم يخرج من هذا المكان أحد خرج منه بفضله أو بفضل غيره وادركته النجاة بعد خروجه ؟

« وفهم طوية كلامى فأجابنى قائلا : « لقد كنت هنا حين لمحت قادما جليلا عليه أكليل النصر ، فإذا هو قد بدأ فأخذ فى الظل أبانا الاقدم - آدم - وابنه قابيل ونوحا وموسى المشترع المطيع ، ثم ابراهيم الاب وداود الملك ، واسرائيل واباه وبنيه ، ومنهم راحيل التى صنع من أجلها الكثير وأخرج

(١) يقول الدكتور وندل هاريس Harris ان كلمة اخنوخ حدثت من نسخة قديمة في هذا الموضع ؛ ويكون اخنوخ على هذا الموالدى ومفد الارواح .. تراجع ترجمة Moffat ١٩٥٠ سنة ٢١٥ صفحة ٢١٥ .

غيرهم ، وباركهم ونجاهم ، وأعلم أن أحدا قبل هؤلاء لم يكن نبيا «
 وبهذه الصيغة وما شابهها سرت أخبار العهد القديم وتفسيراته بين
 المسيحيين ، ثم تفرق رأى الكنائس المسيحية في النظر الى العهد القديم ،
 فمنها ما يعتبره وحيا منزلا بجميع تفصيلاته ، ومنها ما يقصر الوحي على
 كتب الشريعة وهى الكتب الخمسة التى تعرف بكتب موسى ، ومنها
 ما يعتبره كله أخبارا تاريخية أو وقائع مروية فى صيغة شعرية
 وعلى حسب النظر الى هذه الكتب يختلف النظر الى ابراهيم من حيث
 اعتقاد العصمة أو الخطيئة

فمن أتباع الكنيسة الانجيلية من ينقد مسلك ابراهيم حين قال ان
 سارة أخته ولا يبالي أن يصرح بالنقد فى كتب التدريس كما فعل الأستاذ
 وليام نكلسون حيث قال فى موسوعته الموجزة عن التوراة تحت مادة
 ابرام :

« ان مسلك ابرام هنا هو أحد الموافف التى نميل الى استبدال الستار
 عليها فى سيرة هذا الرجل الجليل ، لقد كان عملا لا يوائم مقام تلك الشخصية
 العظيمة . ولا جرم ففى وجه الشمس سفعات ، ومثل هذا دليل على صدق
 تاريخ الكتاب وأن مؤرخيه لم يستروا نقصا قط فى أحسن الناس (١)

ومن شراح الكنائس الأخرى من لا يلوم ابراهيم على هذا المسلك
 ويديد به لأن، أسلم نفسه الى مشيئة الله وأيقن أنه لن يخذله ولن يصنع
 ما يعاب ، فهو آية على ايمانه وغلبة الثقة بتدبير الله على وساوس الخوف
 والريبة فى نفسه

ويتوسط بعضهم بين النقد والاعجاب كما فعل الدكتور جويلبود
 Guillebaud فيقول :

« ا ، هذه الخطايا سجلت بأيدى فاعليها وبرضاهم وموافقهم ، وحفظها
 أبناؤهم وذرايرهم من بعدهم . فلم كان ذلك ؟ ان شيئا من هذا لم يسجل على
 ملوك بابل ومصر ، وتكاد سيرتهم أن تبدو كاملة نقية من العيوب ، وقد محبت
 من تلك الصور كل وصمة وجلية ، فيها كل زينة . ولكن من ياترى من ذوي
 العقل السليم بعد هذا يود أن يتبع مثال رمسيس أو نبوخذنصر كما يود

المسيحيون أن يدرسوا حياة ابراهيم ويعقوب وداود ؟ ان العلة غير بعيدة المنال . فان ابطال العهد القديم اناس حقيقيون لهم حسن كحسنا وشعور كشعورنا ، وسيرتهم صادقة الخبير وغيوبهم سافرة للنظر ، فمن هدف السيرة الامينة يستطيع القارئ ان يبصر النذير ويتقى مثل هذه السقطة ، ويفهم مع هذا شجاعة والهاما من قدوة الايمان المنتصر في تلك السير . . «



وكذلك تبدو لنا صورة الخليل كما تمثلت في المراجع المسيحية من كتب العهد الجديد ومن الرويات الشعبية التي تناقلتها الألسنة وسرت الى كتب الأدب ذات الصبغة الشعرية الى ما بعد القرون الوسطى

وقد عنيت المراجع المسيحية في العصر الحديث بناحية من تاريخ الخليل أهم من تلك الرويات الشعبية في نظر القارئ العصري وهي الناحية التاريخية ..

فالمراجع المسيحية تشغلها هذه الناحية التاريخية في القرن الأخير بعد أن شاعت بدعة الشك في وجود أقطاب الأديان ، وفي مقدمتهم ابراهيم وسلالته الأولون ..

وليست الناحية التاريخية عامة هي التي تعيننا في هذا الباب لأننا سنفرد لها بابا خاصا يدور على الكشوف الخفية والبحوث المتقابلة في أقوال المؤرخين المحدثين

ولكن الناحية التاريخية التي نعنى بها في هذا الباب - باب المراجع المسيحية - هي الناحية التي تفرغ لها الدارسون ليلحقوها بالكتب الدينية وشروح العهدين القديم والجديد ، فهي مقصورة على هذه الناحية ، ومحورها الغالب عليها هو المضاهاة بين تواريخ الكتب الدينية والمواقيت التي اتصلت بها من تواريخ الأمم الغابرة



فمن أحدث هذه المراجع كتاب «موجز التعليقات الحديثة على الكتاب» من تأليف نحو ثلاثين عالما من علماء اللاهوت في انجلترا ، وكلهم من المطلعين على كشوف الآثار التي لها علاقة بتواريخ التوراة والأنجيل

يذكر المؤلفون في الفصل الذي عنوانه « العالم في أيام ابراهيم » أن لوحا من الألواح التي كشفت بمدينة أور قد وجد عليه نقش باسم « ابراما » يرجع على ما يظهر الى زمن سابق لزمان ابراهيم ، ومن هذه الكشوف لوح آخر منقوش عليه شريعة حمورابي وفيها أحكام مماثلة لأحكام الشريعة الموسوية ، ومع هذه الكشوف ألواح كتبت عليها جداول للضرب ومعجمات للمفردات اللغوية وسجلات لأنظمة الحكومة وأسانيد بما وصل الى الهياكل من حساب القرايين . فقد نشأ ابراهيم اذن في مدينة ليست بالهينة والعالم يومئذ قديم

ويشرون في هذا الفصل الى نقوش كشفت على جدار قبر من القبور الأثرية بقرية بنى حسن بمصر يرجع تاريخها الى سنة ٢١٠٠ قبل الميلاد أو نحوها ، وبين تلك النقوش صورة قافلة مؤلفة من سبعة وثلاثين من الساميين بقيادة أبيشوا Abichua يحملون بضائع بلادهم ليستبدلوا بها غلة مصرية

وأشاروا الى كلمة « عبرى » ومعناها ، فقالوا انها وجدت في آثار « رم سن » سلف حمورابي ، كما وجدت في نص من النصوص البابلية التي كشفت في بلاد الحثيين الأقدمين من آسيا الصغرى — وتسمى اليوم بوغاز كوى — ووجدت كذلك في نصوص حورانية عند بلدة توزى بالعراق وكان لها معنى أعم من معناها الخاص بعد ذلك بأبناء اسرائيل ، ويفهم منه أن الكلمة كانت مرادفة لكلمة الجنود الرجل الذين يستأجرهم قادة الجيوش ..

قالوا : وان عاصمة الحثيين التي رفعت عنها الأتقاض سنة ١٩٠٦ قد كشفت فيها ألواح بالخط المسامرى دلت على مفتاح اللغة الحثية ، وان الحثيين كانوا يتكلمون لغة هندية جرمانية على مشابهة باللاتينية ، وقد نزحوا من الشرق الى آسيا الصغرى وامتدت دولتهم شرقا الى الفرات وجنوبا الى قادش ، وهم بنو « حث » الذين أشار اليهم ابراهيم في الاصحاح الثالث والعشرين من سفر التكوين اذ يقول : « وكلم بنى حث

قائلا : أنا غريب ونزيل عندكم ، اعطوني ملك قبر معكم لأدفن ميتي من أمامي ..

وقالوا : ان أسماء الملوك التي وردت في الاصحاح الرابع عشر من سفر التكوين قريبة من بعض الأسماء التاريخية ، فاسم امرافل قريب من اسم حمورابي البابلي وتدعال قريب من تدخاليا الحثي والأسماء الأخرى وجدت لها مشابهاة من هذا القبيل ، ولكن لا يوجد الدليل انقطاع على وحدة المسمى ..

وكان الرعاة أو الهكسوس (هاك شاسو) يحكمون مصر من الأسرة الثالثة عشرة الى الأسرة السابعة عشرة ، وفي هذه الفترة حدثت هجرة الآباء العبريين الى الديار المصرية



ومن كتب التعليقات كتاب كالذى تقدم في موضوعه ، الا أنه أوسع شرحا وأحدث عهدا — لأنه طبع طبعته المنقحة سنة ١٩٥٢ — وعنوانه « تعليقات موجزة على الكتاب » ، ومؤلفه جوزيف انجوس Angus من أكبر فقهاء اللاهوت

يقول مؤلف هذا الكتاب : « ان الآثار تحتل أن امرافل — الذى حارب ابراهيم — هو حمورابي الذى كان ملكا على بابل سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد ، والحفريات المسمارية تربط بين اسمه واسم معاصره « أرى آكو » .. فى حين ان كدلومر يشابه قدار لعمار بمعنى خادم لعمار أحد الأرباب الكبار فى شرق الدجلة السفلى ، واسمه منقوش على حجر من ألواح حمورابي ، وكان هذا قبل ارتباط أرض اسرائيل ببلاد شنعار بعدة قرون قال المؤلف : وكانت مصر عند هجرة ابراهيم ثم هجرة يعقوب وآله ، خاضعة لحكم الرعاة المكروهين الذين تسلطوا على مصر أكثر من خمسمائة سنة ، ومن ثم كان الترحيب بابراهيم ثم الترحيب بيعقوب واقطاع قومهم أرضا فى البلاد قال : وفى عصر ابراهيم كانت فى أرض فلسطين الجنوبية جالية من

الحثيين ، ولكن عاصمتهم كانت الى الشمال تمتد كما جاء في كتب العهد القديم من لبنان الى الفرات
وقال عن « أور الكلدانيين » مدينة ابراهيم انها كانت في الموضع الذي يسمى الآن المقيير على الفرات الأدنى ، ولم تكن في أورفة كما خطر لبعضهم من قبل لتشابه اللفظ بين أورفة وأور
وتقول تعليقات ابنجدون Abingdon التي اشترك في تأليفها
حو سبعين عالما من علماء التاريخ الدينى والتوراني :

« على حاشية الهلال الخصيب انتشرت خلال الفترة التاريخية جماعات من القبائل الرحل تشتغل بالصيد تارة وبالغارات تارة اخرى وبالمرعى بين هذا وذاك ، وهم الذين نسميهم في الزمن القديم بالاراميين ، ومع استحالة الحياة المستقرة على الزراعة أو التجارة أو تقسيم الحقول وسدنى المدن فى ظل ذلك النظام الاجتماعى - يميل القوم الى تجميع أنفسهم فى جوار مركز من مراكز الحضارة يعاملونه ويتجرون معه وقد يتصلون معه ببعض الصلات السياسية .. »

« وفى وسع أمثال هؤلاء القوم أن يعيشوا على انتاج قطعانهم وصيدهم . ولكنهم غالبا ما يعتمدون على صلتهم بالمدينة - كما يحدث اليوم فى الجزيرة العربية - لتحصيل غلات الحقل ومصنوعات العمل بالمقايضة على مقتنياتهم .. »

« ان تاريخ العبريين الرسمى يتدىء بقبيلة من هذه القبائل سكنت الى جوار مدينة أور فى جنوب العراق ، وعند نهاية الألف الثالثة قبل الميلاد هاجر فريق منهم الى الشمال بقيادة رئيس يسمى تارح ، كما جاء فى الاصحاح الحادى عشر من سفر التكوين »

« وربما كان من أسباب هذه الهجرة اضطراب سياسى فى جنوب العراق ، أصابت جرائره معيشة أهل أور ، ولعل هذا الاضطراب قد نشأ من تحول السيطرة السياسية من المدن العراقية الى قبائل عيلام ، فلم تستقر عليه أحوال المعيشة والتجارة فى مدينة أور ، وهذا الفرض يرجع بالحركة الى ما بين سنة ٢٣٠٠ وسنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد ، وكيفما كانت الحقيقة ، فالهجرة قد حصلت وتزل القوم فترة بجوار حاران الى شمال الهلال الخصيب
« ومما يستحق الملاحظة أن كلا من أور وحاران كانت فى القدم مركزا لعبادة الاله - سن - اله القمر من معبودات الساميين ، وسيلفانا اسمه مرة أخرى فى شبه جزيرة سبئ »

« وظلت طوائف من القبائل تترحل غربا وجنوبا ، حيث صادف بعضها أرض المرعى والزراع وادى الفرات والاقاليم الجبلية المخصبة ، فاستقروا فى مدن أشهرها دمشق ، ومضت طائفة أخرى بقيادة ابرام بن تارح (وابن قد تكون هنا بمعنى سليل) الى أن استقر بها السير البطيء عند فلسطين

وهي يومئذ في ظل حكومات المدن المتفرقة ، ولم تزل الهجرة في مجراها تارة الى غرب الاردن وتارة الى شرقه ، وحيننا من دمشق وحيننا من شرقها الى الحدود المصرية ، وخلال ذلك تمر بنا قصة عن علاقة مباشرة بين مصر وهؤلاء البدو ، وأخبار عن العلاقات بين الابهاء العبريين وسكان كنعان المستقرين ،

ثم يسترسل كاتب التعليقات فيقول ان بعض العبريين وصل في هجرته الى أرض جاثان بمصر ، ويرجح ان دخولهم لأول مرة كان على عهد دولة الرعاة أو الهكسوس ، بين القرن الثامن عشر والسابع عشر قبل الميلاد على وجه التقريب ..



وترجع تعليقات هالى Halley الجيية ان امراقل هو حمورابى أشهر ملوك البابليين ، وان كارثة سدوم وعمورة التي حدثت في عصر ابراهيم تقتزن بالخراب الذى قضى على سكان المدن هناك حوالى سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد كما ظهر من كشوف بعثة البرايت وكيلى Albright and Kyle سنة ١٩٢٤

ويضع هالى للحوادث المصرية مقابلا من حوادث التوراة ، فيضع عصر ابراهيم مقابلا للأسرة الثانية عشرة حوالى سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد ، وعصر يوسف مقابلا للأسرة السادسة عشرة سنة ١٨٠٠ قبل الميلاد ، على سبيل الاحتمال ، وعصر موسى مقابلا للأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة بين سنتى ١٥٠٠ و ١٢٠٠ قبل الميلاد ، وتظهر الغرابة في تقديرات هالى ومدرسته عند الرجوع الى عصر ابراهيم وعصر يوسف وبينهما في تقديره نحو ألف ومائتى سنة ، والمعلوم ان يوسف بن يعقوب وان يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم ، وهذا مع اعتماده أحيانا على نقوش الآثار وحساباته ان وفد الساميين المرسوم على متابر بنى حسن ، قد يكون وفد ابراهيم على الفرعون سنوسرت الذى يظن انه كان على عرش مصر في ذلك الحين ومن أصحاب التعليقات التوراتية المعروفين بالتحرج في التقدير لوثر كلارك Clarke صاحب التعليقات التى تقع في ألف صفحة كبيرة وتجمع

من أطراف المعلومات ما لم يهتم في مرجع آخر بمثل حجمها (١) .
 فهذه التعليقات تضع عصر حمورابي حوالى سنة ١٩٠٠ ق م وعصر
 الآباء العبريين في كنعان بين سنتي ١٩٠٠ و ١٧٠٠ ق . م وعصر يعقوب
 وأبنائه في مصر حوالى سنة ١٧٠٠ ق . م ، ونهاية عصر الهكسوس حوالى
 سنة ١٥٥٠ ق . م

ويرجح كلارك - اعتمادا على الآراء الحديثة - ان عصر حمورابي
 متخلف عن عصر الوقائع التي تنسب الى امرافل بمائة سنة أو أكثر ، وان
 امرافل وحمورابي لا يدلان على شخص واحد ، وان الغور العميق الذي
 تملأه أمواه البحر الميت أقدم جدا من الوقت الذي قدر لخراب المدن
 المذكورة في قصة ابراهيم ، ويتساءل : ما هو الباعث الذي أتى بالملوك
 الخمسة الى الأردن جنوبا قبل مواجهة أعدائهم الذين يحاربونهم ، وهو
 لا يستبعد أن يكون جيش من البابليين والعيلاميين معا قد زحف على
 جهات في ذلك الموقع لارغام القبائل على أداء الجزية أو الضريبة التي
 تفرض على رءوس القبائل

ويعتمد كلارك على الظواهر الأرضية (الجيولوجية) كثيرا فيرى ان
 العيون الحمر التي أشار اليها الاصحاح الرابع عشر من سفر التكوين
 هي في الغالب من النفط الذي يتكاثف بالتبخر ويطفو على الماء كما كان
 يحدث على سطح البحر الميت ، ولا مانع أن يشاهد على وجه الأرض
 قبل امتلاء الغور بالماء ، ويرتبط خراب المدن التي وردت قصتها في
 سيرة ابراهيم بهذه الظواهر الأرضية التي يمكن أن تستقصى في يوم
 قريب ، فيبنى على استقصائها تحقيق محكم لتاريخ تلك الأحداث

ويضارع هذا الكتاب في الصبغة العلمية الكتاب الذي ألفه جماعة
 « دراسة العهد القديم » واشترك في تأليفه أكثر من عشرة من علماء
 هذه الدراسات ، وهو كتاب العهد القديم والدراسة الحديثة
 يقول الأستاذ البرايت Albright وهو أحد أصحاب البعوث للكشف

عن الآثار :

« ان مسألة الهكسوس لا تزال على عسرها ، ولكنها آخذة فى التكشف والابانة عن الحوادث التالية بعد البحوث التى تناولها ونلوك وستوك كاتب هذه السطور ، فنحن نعلم اليوم أنها لا بد أن ترجع الى الفترة بين سنتى ١٧٢٠ و ١٥٥٠ قبل الميلاد وان قيادة الهكسوس فى يد الساميين ولم تكن حورية أو هندية آرية كما كان بعض العلماء يقدرون الى زمن قريب . »
الى أن يقول بعد استطراد وجيز عن مقبرة توت عنخ آمون :

« ولكن أهم من هذا كله - ثقافيا - تلك الاوراق البردية التى كشفها شستر بيتى Betty من آثار عصر رمسيس بما احتوته من الدلالة على مدى النهضة الادبية فى ذلك العصر الذهبى ، ونخص منها بالذكر من حيث فائدتها لدارس التوراة تلك القصائد الدرامية التى تنبىء عن نظم أناشيد سليمان ، وان خالفتها كثيرا فى التفصيلات ، وتلك الترنيمة المقاربة لعقائد التوحيد التى تدل على استمرار التوحيد الشمسى من العمارة بعدد وقوف كهنة آمون له بالمرصاد »

ويقول هذا الكاتب ، ومعه زميل من المشتغلين بالكشوف فى فلسطين :

« ان فلسطين لم تدخل فى قصص التوراة قبل هجرة ابراهيم من حاران ولا يمكن بأى تقدير من التقديرات أن توضع تلك الهجرة فى تاريخ سابق لنهاية الالف الثالثة قبل الميلاد ، وقد تأتى بعد ذلك بقرون ، ويبدو واضحا من مآثورات سفر التكوين أن هناك دورا متوسطا من العصر البرونزى بين القرن الحادى والعشرين والقرن السادس عشر قبل الميلاد »

ويتحدث عن كشف رأس شمرا فى الشمال المقابل لجزيرة قبرص من شاطئ بحر الروم ، انها غيرت الصورة التى كانت مرتسمة للحضارة الكنعانية فى أذهاننا كل التغيير ، وانها أثبتت ان حضارة كنعان كانت تمتد فى العصر البرونزى المتأخر من غزة جنوبا الى رأس شمرا شمالا « أغاريت القديمة » وان اللغة والديانة والحضارة كانت واحدة فى هذه البقاع ، ولم يكن اختلاف اللغة الا من قبيل اختلاف اللهجات .. واننا نرى اختلاف الصناعة الفخارية وغيرها من البقايا المادية بارزا بيننا عند الجانب الأسفل من نهر العاص حيث تتضح الملامح الحورية والأمورية فى معالم

الثقافة العليا ولا يلحظ على الساحل مثل هذا الاختلاف

ثم يتحدث عن كشوف تل الحريري عند وادي الفرات الأوسط فيقول :
 « ان الاستاذ أندري باروت وزملاءه أخرجوا من الانقاص قصرا كبيرا من
 العصر البرونزي الاوسط ، كان مزدهرا في أواخر القرن الثاني عشر وفاقه
 للتقديرات التي تتقدم بعصر حمورابي الى ما بين سنتي ١٧٢٨ و ١٦٨٦
 قبل الميلاد .»

« وقد اخرجوا في هذا الموضع نقوشا فذة على الجدران وبقايا فنية
 أخرى ، وفوق ذلك نحو عشرين ألف لوحة وأعمشارا من اللوحات من القرن
 الثامن عشر قبل الميلاد ، كلها باللغة الاكادية التي تأثرت أحيانا باللغة
 الامورية التي يتكلمها أبناء القبائل في ذلك الاقليم .» وفائدة هذه
 المكتشفات التي كسرت الان حواجز البحث في دراسات التوراة ستأتي في
 أكثر الاحوال من طريق غير مباشر ، ولكنها لا تنقص بذلك في قيمتها ، اذ
 كانت الثقافة العالمية في عصر الآباء العبريين وراء كل تطور في آسيا
 الغربية ، وبسبب ميسورا لنا عما قريب أن نركب أجرومية اللغة الامورية
 ومعجماتها من تلك الامورية الاكادية التي كان يكتب بها كتاب ماري في
 الوادي الاوسط من نهر الفرات ، ويظهر أن هذه اللغة التي تتخلل أسماء
 الاعلام هي لغة الآباء العبريين في لبابها ، وانها على التحقيق لغة الكلام
 الذي نتمثله في أعمال الفيلسوفين الرحل والمقيمين التي وردت في
 الحفريات المصرية التي ترجع الى القرنين العشرين والتاسع عشر قبل
 الميلاد (٨) .»

ثم يعرض الكاتب لكشوف تل العطشانة على نهر العاص الأسفل
 وكشوف حماة على أواسط النهر فينوه منها على الخصوص بسيرة حياة
 الملك ادريمى المنقوشة على تمثاله الذي يمكن تاريخه أن يكون قريبا من
 سنة ١٤٥٠ قبل الميلاد ، وفي هذه السيرة حوادث وقعت في سورية
 الشمالية مشابهة للحوادث في قصة يوسف ، ولعلها كانت تتجمع حول
 نواة من عصر الهكسوس ، وقد أشارت سيرة ادريمى الى غيرة اخوته
 الكبار وقط السنوات السبع وضروب من الحسد لاستطلاع الغيب
 ثم يعرض للكشوف التي أبرزت المنافسة بين حضارة الحيثيين
 والاراميين وحضارة اسرائيل ودمشق

(١) سيأتي بيان الأهمية الكبرى التي ينطوي عليها هذا الكشف الخطير لانه سيحدد
 العلاقة بين اللغات السامية القديمة ومنها الاكادية لغة بابل والعمرية لغة الخليل
 والارامية لغة العرب الشمالية واللغة العربية على العموم ، ويتم ذلك الاستدلال على
 اصول المتقدات عند بناء هذه اللغات

وينتقل الى كشوف الريحانية في الناحية الجنوبية من سهل انطاكية وما لها من القيمة في الاستدلال على العصر الحديدي ، وأهم ما فيها بقايا هيكل من القرن التاسع قبل الميلاد على رسم قريب من رسم هيكل سليمان الذي بنى في القرن العاشر

ويستطرد الى كشوف قليقية على مقربة من حدود سورية الشمالية ، وأسائدها ترجع الى ما بين سنتي ٨٥٠ و ٦٥٠ قبل الميلاد ، ولها شأنها في دراسة تطور اللغة العبرية

ويتناول الأستاذ هينمان Heinneman من جامعة سانت اندروز بحثا لغويا عن العبرية ، فيقرر فيه أن الآرامية - وهي العربية الشمالية - كانت سابقة في سورية وفلسطين لكل من اللغتين الكنعانية والعبرية ، معتمدا على كشوف رأس شمرا ، وعلى المحسنات الكنعانية التي اشتملت عليها رسائل تل العمارنة ويردها الى نحو ١٣٧٥ قبل الميلاد

ونختم هذه الشواهد بمرجعين تقليديين من مراجع هذا الموضوع وهما اطلس وستمنستر التاريخي ، وموسوعة وستمنستر المنقحة طبعة سنة ١٩٤٤ ، وهما خاصان بجغرافية التوراة والعهد الجديد وتاريخهما ، وقد توفر على تأليفهما من وجهات النظر المتعددة نخبة من علماء هذه المباحث المشتغلين في الكتب الأثرية والكتب العصرية بدرسها في الآثار والحفريات وبالاطلاع على سجلاتها ومدوناتها

هذان المرجعان متفقان مع أحدث المراجع المتقدمة على تقريب عصر الآباء العبريين ، واستضعاف الأقوال التي توغل به في القدم ، وقد وضع الأطلس التاريخي عصر ابراهيم بين سنة ٢٠٠٠ وسنة ١٧٠٠ قبل الميلاد ، ووضع عصر حمورابي في ختام هذه الفترة ، وعرض لقصة سنوحى الموظف المصرى الذى غادر بلاده (حوالى سنة ١٩٠٠ ق . م) وعاش بين الاموريين في سورية الشرقية ، ولاحظ المشابهة بين الأمكنة التي أقام فيها سنوحى على نحو من البداوة وبين الأمكنة التي عاش فيها على هذا النحو آباء العبريين ، ورجح ان وفد الساميين المرسوم على مدافن بنى حسن قدم

الى مصر فى عصر القصة السنوحية وان الدولة المصرية التى كانت قائمة بمصر هى الأسرة الثانية عشرة وقد بسطت حكمها على سورية وفلسطين وأدارت حركة واسعة من التجارة البحرية بين مصر وقبرص وكريد وشواطئ البحر الأحمر ، وبلغت بحدودها الجنوبية الى الشلال الثانى حيث أقامت حصن الحدود عند سمنه ، وكانت لها بعثات الى سيناء للكشف عن معادن النحاس والفيروز ، وأخرى الى أرض النوبة للكشف عن معادن الذهب وجاء فى هذا الأطلس ان التاريخ حقق وجود بلاد فى أرض حاران تطلق عليها أسماء كأسماء آباء ابراهيم : فالج وسروج وناحور وتارح ، وان اسم حاران نفسها قريب من اسم أخ لابراهيم ، وان وحدة الاسم قد تأتى مصادفة فى حالة شخص واحد ولكنها هنا متفقة فى أربعة أسماء على الأقل فى حيز محدود ، والمهم فى هذه الملاحظة ان كتاب الأطلس يحسبون ان هذه البلاد حملت أسماء القبائل التى أنشأتها وأن القبائل أطلقت عليها أسماءها بعد الاستيلاء عليها فى القلائل التى حدثت حوالى سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد

واستطرد كتاب الأطلس من تشابه أسماء الآباء والمدن الى الأسماء التى كانت شائعة بين الاموريين ، ومنها ابرام فى صيغة أبا مرام ويعقوب فى صيغة يعقوب ابل ، وذكروا أن اسم قبيلة بنيامين وجد فى ألواح الحفائر بوادى الفرات الأوسط ، وان حفائر توزى فى وادى الفرات الشمالى استملت على وصف عادات اجتماعية تفسر عادات الارث والزواج وأصنام الأسرة (الطرفين) التى أشارت اليها كتب العهد القديم ، وان عصر تلك الحفائر يوافق العصر الذى دون فيه الاسرائيليون كتب التوراة وما بعدها من الكتب القديمة ، وهذا عدا الآثار التى روت أخبار الطوفان وأخبار الخليقة مما لا نظير له فى مآثورات مصر أو كنعان

ومن الضيعى أن يعنى الأطلس بالمواقع الجغرافية فى سياق التاريخ ، وكذلك عنى الأطلس فى سيرة ابراهيم بمواقع رحلاته الى مصر فى ذهبه وعودته ، ومنها أرض الجنوب بين قادش وشور ، وتعرف الآن باسم وادى غزة ، وهو واد كان له شأن فى تاريخ بنو اسرائيل الى ما بعد نزولهم من

الديار المصرية ..

أما الموسوعة التى تحمل اسم وستمنستر أيضا - مع اختلاف المؤلفين - فهى توافق المراجع الحديثة كذلك فى تقريب زمان الآباء ، وتقرّر أن وحدة اسم حمورابى واسم امارفيل محل مناقشة واعتراض فى المباحث الأخيرة ، وان الحاق ايل باسم امارفيل مشكلة تستوقف أنظار الباحثين المتأخرين ..

وبعد أن ذكرت ان تاريخ حمورابى وضع فى عصور مختلفة بين سنة ٢١٢٣ وسنة ١٨٣٠ قبل الميلاد عادت فقالت ان الكشوف الحديثة ترجح وضعه بين سنتى ١٧٩٢ و ١٧٥٠ أو ١٧٤٩ ، وان شريعته المشهورة مقاربة للشريعة الموسوية فى سفر الخروج من التوراة ، وان أسلوب المواد يتشابه فى ابتداء الجمل كما تتشابه العقوبات ولاسيما عقوبات القصاص قالت : وبعيد أن تكون شريعة حمورابى أمام المشرع العبرى عند تدوين أحكامه ، ولكن المحتمل ان الشريعتين ترجعان الى أصل سامى قديم

وترى الموسوعة - اعتمادا على تقدير الأسقف يوشر - أن مولد ابراهيم يوافق سنة ١٩٩٦ ق . م ، وان طريق الجيوش التى حاربها ابراهيم كما جاء فى الاصحاح الرابع عشر من سفر التكوين كانت الى الجنوب على حافة جلعاد وموآب ، وتدل كشوف العالمين الأثريين البرايت وجلويك على ان هذا الطريق تخللته فيما مضى مدن هامة قبل سنة ٢٠٠٠ ق . م ، وظلت عامرة نحو قرن أو قرنين لا أكثر ، وفى رواية سفر التكوين أن سدوم وعمورة دمرت فى حياة ابراهيم ، ومن كشوف جلويك يظهر ان المدن التى على هذا الطريق ظلت مقفرة الى القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، ولكنها فى القرن العشرين ق . م كان محجة دينية حافلة بجوار المكان الذى يعرف الآن باسم باب الدرعة . فمن المعقول اذن أن يكون مولد ابراهيم حوالى الزمن الذى قدره الأسقف يوشر ، وان سدوم وعمورة خربتا حوالى سنة ١٨٩٨ قبل الميلاد

وتقول الموسوعة ان اسم مرافل - أحد الملوك الذين حاربهم ابراهيم - يصعب تعيين صاحبه كما يصعب تعيين زملائه الآخرين ، ولكن هذه الأسماء جميعا لا يبدو عليها انها اختراع من مخترعات الخيال . اذ ليست غارة الأمراء البابليين على فلسطين وما جاورها أمرا نادرا في تلك الأيام

ونكتفى بما تقدم من هذه المراجع التاريخية التي ألحقناها بالمصادر المسيحية ، وقد ألحقناها بها لأن كتابها في جملتهم يدونون التاريخ من الجانب الذي له علاقة بكتب العهد القديم والعهد الجديد ، وتغلب عليهم رغبة في تدوينه على النحو الذي يصحح أخبارها وينقض ما أخذ الناقدون عليها ، فهو باب في التاريخ غير الباب الذي سنفرده لأقوال المؤرخين للحوادث من الوجهة العامة

وليس أهم من تمحيص هذه الأقوال لمن يريد أن يحقق سيرة الخليل عليه السلام . اذ هي ألزم ما يلزم لمعرفة العقائد والشعوب في عصره ، ومن هنا تنجلي حقيقة الرسالة وبواعثها ومبلغ الخلاف والوفاق بينها وبين ما حولها ، وكل شيء يتوقف على تقدير أحوال الزمن بعد تعيينه ، وتقدير أحوال الشعوب في ذلك الزمن بعد التثبت من مواقعها وعلاقاتها وفيما أسلفناه بصيص من النور نرجو أن نضيف اليه بصيصا آخر يفيض على جوانب السيرة جميعا ، بعد الفراغ من تلخيص هذه الشواهد والمصادر ..

المراجع الإسلامية

وتأتى مصادر الاسلام فى ختام مصادر الأديان الكتابية ، وسرى انه ما من شىء كالمصادر الاسلامية يثبت قيام دعوة ابراهيم ، بل يثبت وجود ابراهيم الذى شك فيه أصحاب بدعة الشك فى كل خير قديم من غير سند يستندون اليه ، ولا نعى هنا أدلة تاريخية تستمد من روايات الأخبار ، وإنما نعى دليل التسلسل المنطقى الذى يصدق حين تكذب التواريخ ، كما سيأتى بيان ذلك فى موضعه ، ونكتفى هنا بإيراد أخبار الخليل فى المصادر الاسلامية وهى : القرآن الكريم ، والحديث النبوى ، والتفسير وما يلحق به على سبيل التفصيل أو الاستطراد وردت أخبار الخليل فى سور كثيرة ، بعضها أقرب الى الاسهاب وبعضها الى الايجاز ، وهذه هى الآيات التى جمعت سيرته فى بيان مفصل

فمن سورة مريم :

« واذكر فى الكتاب ابراهيم انه كان صديقاً نبياً ، اذ قال لايه يا ايت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً ، يا ايت انى قد جاءنى من العلم ما لم ياتك ، فأتبعنى اهدك صراطاً سوياً ، يا ايت لا تعد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصياً ، يا ايت انى أخاف ان يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً ، قال أرأغب أنت عن آلهتى يا ابراهيم لئن لم تنته لارجمنك واهجرنى ملياً . قال سلام عليك سأستغفر لك ربى انه كان بى حفيماً^(١) وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى عسى الا اكون بدعاء ربى شقيماً »

ومن سورة الأنبياء :

« ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . اذ قال لايه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين قالوا اجئتنا بالحق ام أنت من اللاعبين قال

(١) حفيماً : مبالغاً فى اكرامى .

بل ربكم رب السماوات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين
وقال له لا يكذبن أصنامكم بعد ان تولوا مدبرين فجعلهم جذاذاً كبيراً لهم لعلهم
اليه يرجعون قالوا من فعل هذا بالهتنا انه لمن الظالمين فالوا سمعنا فنى
يذكرهم يقال له ابراهيم قالوا فاتوا به على اعين اناس لعلهم يشهدون قالوا
أنت فعلت هذا بالهتنا يا ابراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان
كانوا ينطقون فرجعوا الى انفسهم فقالوا انكم انتم الظالمون ثم تكسوا على
رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون قال افتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم
شيئاً ولا يضركم اف لكم ولما تعبدون من دون الله افلا تعقلون قالوا حرقوه
وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على ابراهيم
وارادوا به كيذا فجعلناهم الاخسرين ونجيناه ولوطا الى الأرض التى باركنا
فيها للعالمين. ووهبنا له اسحق ويعقوب نافلة^(١) وكلا جعلنا صالحين «

ومن سورة الصافات :

« وان من شيعته لابراهيم اذ جاء ربه بقلب سليم اذ فلل لايه وقومه
ماذا تعبدون افكاً آلهة دون الله تريدون فما ظنكم برب العالمين فنظر نظرة
في النجوم فقال انى سقيم فتولوا عنه مدبرين. فراغ الى آلهتهم فقال الا تاكلون
مالكم لا تنطقون فراغ عليهم ضربا باليمين فأقبلوا اليه يزفون قال اتعبدون
ما تحتون والله خَلَقَكُمْ وما تعملون قالوا ابناؤ له بنيانا فالقوه في الجحيم
فاردوا به كيذا فجعلناهم الاسفلين وقال انى ذاهب الى ربي سيهدين رب
هب لى من الصالحين فبشرناه بغلام حلیم فلما بلغ معه السعى قال يا بنى انى
ارى فى المنام انى اذبحك فانظر ماذا ترى قال يا ابت افعل ما تؤمر ستجدنى
ان شاء الله من الصابرين فلما أسلما وتله للجبين. وناديناه ان يا ابراهيم قد
صدقت الرؤيا انا كذلك نجزي المحسنين ان هذا لهو البلاء المبين وقديناه
بذبح عظيم وتركنا عليه فى الآخرین سلام على ابراهيم كذلك نجزي المحسنين
انه من عبادنا المؤمنین وبشرناه باسحق نبياً من الصالحين وباركنا عليه وعلى
اسحق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين «

ومن سورة البقرة :

« واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى
وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل ان طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع
السجود واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق اهله من الثمرات
من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم اضطره الى
عذاب النار وبئس المصير واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل
ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا
أمة مسلمة لك وأرتنا مناسكنا وتم علينا انك انت التواب الرحيم ربنا
وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة
ويزكيهم انك انت العزيز الحكيم ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه
نفسه زلقد أصطفيناه فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن الصالحين اذ قال له ربه
اسلم قال اسلمت لرب العالمين ووصى به ابراهيم بنه ويعقوب يا بنى ان

(١) جذاذاً : الجذاذة القطعة المكسورة . (٢) نافلة : النافلة العطيّة

يتبرع بها معطيها من صدقة أو عمل خير . (٣) افكا : الافك : الكذب .

الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وانتم مسلمون «

ومن سورة آل عمران :

« كل الطعام كان حلال لبني اسرائيل الا ما حرم اسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فاتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين فمن افتري على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون قل صدق الله فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين أن أول بيت وضع للناس للذي بمكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا «

ومن سورة البقرة :

« ألم تر الى الذي حاج ابراهيم في ربه أن آتاه الله الملك اذ قال ابراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال ابراهيم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فات بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين «

ومن سورة الأنعام :

« واذ قال ابراهيم لابيه آزر أتتخذ أصناما الهة انى أراك وقومك فى ضلال مبين وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين فلما جن عليه الليل^(١) رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الاقليات فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لآكونن من القوم الضالين فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكر فلما أفلت قال يا قوم انى برىء مما تشركون انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض حنيفا وما أنا من المشركين وحاجه قومه قال أتعاجونى فى الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به الا أن يشاء ربى شيئا وسع ربى كل شىء علما أفلا تتذكرون وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأى الفريقين أحق بالأمن ان كنتم تعلمون الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم اولئك لهم الامن وهم مهتدون وتلك حجتنا اتيانها ابراهيم على قومه نرفع درجات من تشاء ان ربك حكم عليم «

ومن سورة ابراهيم :

« واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنى أن نعبد الاصنام رب انهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم ربنا أنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ربنا انك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شىء فى الارض ولا فى السماء الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل واسحاق أن ربى لسميع الدعاء رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب «

(١) جن عليه الليل : دخل .

ومن سورة الحج :

« واذ بوأنا^(١) لإبراهيم مكان البيت ألا تشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا^(٢) وعلى كل ضامر^(٣) يأتين من كل فج عميق »

ومن سورة البقرة :

« واذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي . قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا وأعلم أن الله عزيز حكيم »

ومن سورة الذاريات :

« هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون فراغ الى أهله فجاء بعجل سمين فقهره اليهم قال ألا تأكلون فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم فأقبلت امرأته في صرة (بفتح الصاد) فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم قالوا كذلك قال ربك أنه هو الحكيم العليم قال فما خطبكم أيها المرسلون قالوا أنا أرسلنا الى قوم مجرمين لنرسل عليهم حجارة من طين مسومة عند ربك للمسرفين »

ومن سورة هود :

« ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف أنا أرسلنا الى قوم لوط وامرأته قائمة فضحكت فبسرناها باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب قالت يا ويلتنا ألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا أن هذا لشيء عجيب قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت انه حميد مجيد فلما ذهب عن إبراهيم الروح وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط ان إبراهيم لحليم أواه منيب يا إبراهيم أعرض عن هذا انه قد جاء أمر ربك وانهم آتيتهم عذاب غير مردود »

ومن سورة النحل عن دين إبراهيم :

« ان إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لانعمه اجتنابه وهداه الى صراط مستقيم »

ومن سورة الأنعام عن دين إبراهيم والاسلام :

« قل اننى هدانى الى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين »

ومن سورة آل عمران عن دين إبراهيم والاسلام وسائر الأديان :

« يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والانجيل الا من بعده أفلا تعقلون ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم

(١) بوأنا : بوأ له منزلا هياه ومكن له فيه . (٢) رجالا : جمع راجل وهو خلاف الفارس . (٣) ضامر : القليل اللحم من الخيل .

تحتاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين ان اولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين ، هذه جملة الآيات التي جاء بها القرآن الكريم مطولة في سيرة ابراهيم ، أو مشيرة الى دعوته وما فيها من سابقة للدعوة الاسلامية ، ولا حاجة بمن يكتب عن الدعوة الاسلامية الى ابراز جانب منها لاثبات الانتقال من العقيدة المحصورة في عصبية خاصة الى العقيدة التي تعم كل أمة وتخطب كل ملة ، فهذه المساواة بين الأمم هي صبغة الاسلام في كل جانب من جوانب دعوته من مبدئها الى ختامها

أما أخبار ابراهيم في القرآن فمنها ما تقدم في التوراة والمثنى ، ومنها ما انفرد به القرآن . ومداره على أمرين :

أحدهما خاص بالوقائع ، وهو قيام ابراهيم واسماعيل الى جوار البيت الحرام ، والآخر خاص بالنظرة الدينية وهو على جانب عظيم من الدلالة في هذا المقصد ، لأنه يبين الفارق بين التجسيم والتنزيه في العبادة على مدى الزمن الذي انقضى بين كتابة أسفار العهد القديم وقيام الدعوة المحمدية فالضيوف الثلاثة الذين ورد ذكرهم في سفر التكوين كانوا يأكلون ويشبعون من الطعام ، وكان مفهوما من أسلوب بعض النسخ القديمة ان واحدا منهم هو الاله ، ثم أصبح مفهوما انه ملك يتكلم باسم الاله ومعه صاحبا من السماء

الا ان القرآن الكريم يروي قصة هؤلاء الضيوف ولا يروي أنهم أكلوا وشبعوا ، بل جلسوا الى الطعام ولم تصل أيديهم اليه ، وسألهم ابراهيم أن يأكلوا فلم يفعلوا ، فأوجس منهم خيفة وعلم من ثم أنهم من غير البشر وان لهم شأنًا غير شأن ضيوف الزاد والمقام

ان هذه النقلة ليست بالأمر الهين في تاريخ بنى الانسان . فان النوع الانساني قد انتقل من استخدام مادة الحجر الى استخدام مادة الحديد في عشرات الألوف من السنين ، فهذا الانتقال بين العقل الذى يقصر عن ادراك مخلوق سماوى يخالف الأجساد الحية في مطالبها المادية ، وبين

العقل الذي تهيأ للتمييز بين الحياة الروحية والحياة المادية ، هو الانتقال الذي يؤرخ به عصران في حياة بنى الانسان ، بينهما من الفارق أبعد جدا مما بين عصر الحجر وعصر النحاس وعصر الحديد



وأهم المصادر الاسلامية بعد القرآن الكريم أحاديث النبي عليه السلام ، ومنها طائفة عن الخليل تصفه وتصف أعماله وتلم بسيرته ، وللفقهاء فيها خلاف . اذ كان بعضها ينسب أموراً الى الخليل لم يعهد في الأحاديث النبوية أن تنسبها الى الأنبياء والحكم في هذا الخلاف ان الأحاديث التي يرويها الآحاد لا يجوز أن تخالف أصول الاعتقاد لأن الآحاد يجوز عليهم الخطأ والكذب ، ومثل ذلك لا يجوز في العقيدة ، ولا سيما العقيدة التي يقرها الكتاب

وقد أخذ الامام الفخر الرازي بهذا الحكم في تفسيره ، ودارت حوله مساجلة بين الشيخ عبد الوهاب النجار ولجنة العلماء التي راجعت كتابه عن قصص الأنبياء ، فقال رحمه الله :

« نص العلماء على ان الحديث اذا كانت روايته آحادا وفيه نسبة المعاصي أو الكذب الى الأنبياء يرد »

« ففى شرح العصام على العقائد النفسية بعد أن ذكر وجوب اتصاف الأنبياء بالصدق ما نصه : اذا تقرر هذا فما نقل عن الأنبياء مما يشعر بكذب أو معصية ، فما كان منقولاً بطريق الآحاد فردود ، وما كان بطريق التواتر فمصرف عن ظاهره ان أمكن ، أو محمول على ترك الأولى أو كونه قبل البعث .. »

وجاء في الحاشية عليه قوله : فما كان منقولاً بطريق الآحاد سواء بلغ حد الشهرة أو لا فردود لأن نسبة الخطأ الى الرواة أهون من نسبة المعاصي الى الأنبياء ..

ونحن نهد بهذه الملاحظة للأحاديث التي ننقلها ، ونختار من الأحاديث ما له علاقة بصميم السيرة وندع للقارىء أن ينظر فيها وبين يديه ما

تقدم من أقوال الفقهاء ..

ففى بعض الأحاديث ان ابراهيم كان أشبه الناس بالنبي عليهما السلام ..

وعن أبى هريرة قال :

« قال النبي صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به : لقيت موسى • قسسال فنعتته • فاذا رجل حسبته - مضطرب - رجل (١) الرأس كأنه من رجال شنوءة (٢) قال : ولقيت عيسى • فنعتته النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس - يعنى الحمام - ورأيت ابراهيم وأنا أشبه ولده به »

وعن مجاهد قال : كنا عند ابن عباس رضى الله عنهما ، فذكروا الدجال فقال : انه مكتوب بين عينيه كافر ، وقال ابن عباس : لم أسمعه قال ذلك ، ولكنه قال :

« أما ابراهيم فانظروا الى صاحبكم ، وأما موسى فرجل آدم^(٣) جمعد على • أحمر مخطوم بخلبة^(٤) كأنى أنظر اليه اذا انحدر فى الوادى يلبى »
وعن جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« عرض على الانبياء ، فاذا موسى عليه السلام رجل ضرب^(٥) من الرجال . كأنه من رجال شنوءة ، فرأيت عيسى بن مريم عليه السلام فاذا أقرب من رأيت به شبها عروة بن مسعود ، ورأيت ابراهيم عليه السلام فاذا أقرب من رأيت به شبها صاحبكم »
وعن ابن عباس :

« دخل النبي صلى الله عليه وسلم البيت فوجد فيه صورة ابراهيم وصورة مريم ، فقال : أما هم فقد سمعوا أن الملائكة لا تدخل بيتا فيه صورة ، هذا ابراهيم مصور فماله يستقسم ؟ »

وعن ابن عباس انه عليه السلام لما رأى الصور فى البيت لم يدخل حتى أمر بها فمحييت ، ورأى ابراهيم واسماعيل بأيديهما الازلام فقال : قاتلهم الله ! والله ان استقسما بالازلام قط

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اختن ابراهيم النبي عليه السلام وهو ابن ثمانين سنة بالتقدم .

وقال ابن عباس فى قصة هاجر : « ثم جاء بها ابراهيم وبابنها اسماعيل

(١) الشعر الرجل بسكون الجيم ماكان بين الجهد والمرسل

(٢) ازد شنوءة ، وشنوءة قبيلة هريسة مشهورة

(٤) آدم : أسمر • (٢) خلبة : حبل من ليف • (٥) ضرب : رجل ضرب :

شديد قوي العضلات • (٦) الازلام : السهام التي يستقسم بها •

وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم ، في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء ، فوضعهما هنالك ، ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ، ثم قمى إبراهيم منطلقا فتبعته أم اسماعيل فقالت : يا ابراهيم .. أين تذهب وتتركنا في هذا الوادى الذى ليس فيه أنيس ولا شئ ؟ فقالت له ذلك مرارا ، وجعل لا يلتفت اليها ، فقالت : الله أمرك بهذا ؟ قال نعم . قالت اذن لا يضيعنا . ثم رجعت فانطلق ابراهيم حتى اذا كان عند الثانية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال : ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكروا . وجعلت أم اسماعيل ترضع ابنها وتشرب من ذلك الماء حتى اذا نفذ ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر اليه يتلوى .. فانطلقت كراهية أن تنظر اليه ، فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها ، فقامت عليه ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدا فلم تر أحدا ، فهبطت من الصفا حتى اذا بلغت الوادى رفعت طرف درعها ثم سعت سعى الانسان المجهود حتى جاوزت الوادى . ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحدا فلم تر أحدا ، ففعلت ذلك سبع مرات ...

قال ابن عباس : قال النبى صلى الله عليه وسلم : فلذلك سعى الناس بينهما .. فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا ، فقالت : صه ! تريد نفسها ، ثم سمعت أيضا فقالت : قد اسمعت ان كان عندك غواث ، فاذا هى بالملك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه أو قال بجناحه ، حتى ظهر الماء ، فجعلت تخوضه وتقول بيدها هكذا ، وجعلت تغرف من الماء فى سقائها وهو ينفور بعد ما تغرف . قال ابن عباس : قال النبى صلى الله عليه وسلم : يرحم الله أم اسماعيل لو تركت زمزم ! وقال : لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم علينا معينا^(١) قال فشربت وأرضعت ولدها ، فقال لها الملك : لا تخافوا الضيعة ، فان هذا بيت الله يبنى هذا الغلام وأبوه ،

(١) معينا : الماء المعين : الماء الظاهر الجارى على وجه الارض .

وان الله لا يضيع أهله ، وكان البيت مرتفعا من الأرض كالراية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله

« فكانت كذلك حتى مرت بهم رققة من جرهم ، أو أهل بيت من جرهم مقبلين على طريق كداء فنزلوا في أسفل مكة ، فرأوا طائرا عائفا ، فقالوا : ان هذا الطائر ليدور على ماء ، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء ، فأرسلوا جريا أو جريرين ، فاذا هم بالماء ، فرجعوا فأخبروهم بالماء ، فأقبلوا .. قال : وأم اسماعيل عند الماء ، فقالوا : أتأذنين لنا أن ننزل عندك ؟ قالت نعم ، ولكن لا حق لكم في الماء . قالوا نعم

« قال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم : فألقى ذلك أم اسماعيل وهي تحب الأنس . فنزلوا وأرسلوا الى أهلهم فنزلوا معهم ، حتى اذا كان بها أهل آيات منهم ، وشب الغلام وتعلم العربية منهم ، وأعجبهم حتى شب فلما أدرك زوجته امرأة منهم ، وماتت أم اسماعيل فجاء ابراهيم بعد ما تزوج اسماعيل يطالع تركته ، فلم يجد اسماعيل فسأل امرأته عنه ، فقالت خرج يبتغي لنا رزقا ، ثم سألتها عن عيشهم وهيئتهم فقالت : نحن بشر . نحن في ضيق وشدة ، وشكت اليه . قال : فاذا جاء زوجك اقرئني عليه السلام ، وقولي له يغيّر عتبة بابي ، فلما جاء اسماعيل كأنه آنس شيئا فقال : هل جاءكم من أحد ؟ قالت نعم . جاءنا شيخ كذا وكذا فسأل عنك فأخبرته ، وسألني : كيف عيشنا فأخبرته أنا في جهد وشدة . قال : فأوصاك بشيء ؟ قالت نعم . وهو يقرأ عليك السلام ويقول غيّر عتبة بابك . قال اسماعيل : ذلك أبي وقد أمرني أن أفارقك فالحق بأهلك ، فطلقها وتزوج من امرأة أخرى ، وغاب عنهم ابراهيم ما شاء الله ، ثم أتاهم فلم يجد اسماعيل فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت : خرج يبتغي لنا الرزق ، قال : كيف أنتم ، وسألها عن عيشهم وهيئتهم ، فقالت : نحن بخير وسعة ، وأثنت على الله فقال : ما طعامكم ؟ قالت : اللحم ، قال : فما شرابكم ؟ قالت : الماء ، قال : اللهم بارك لهم في اللحم والماء ، قال : فاذا جاء زوجك فاقرئني عليه السلام ومريه يشب

(١) طريق كداء : طريق غليظة تنعب الماشي فيها . (٢) طائرا عائفا :

عاف الطائر استدار على الشيء وحام يريد الوقوع .

عتبة بابه . فلما جاء اسماعيل ، قال : هل آتاكم من أحد ؟ قالت : نعم ،
 أتانا شيخ حسن الهيئة ، وأنتت عليه ، فسألني عنك فأخبرته ، فسألني :
 كيف عيشنا ؟ فأخبرته أنا بخير ، قال : فأوصاك بشيء ؟ قالت : نعم ،
 وهو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك . قال : ذلك أبي ،
 وأنت العتبة . أمرني أن أمسكك . ثم لبث عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد
 ذلك واسماعيل ييرى نبلا له تحت دوحة قريبا من زمزم ، فلما رآه قام
 اليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد ، ثم قال : يا اسماعيل !
 ان الله أمرني بأمر . قال : فاصنع ما أمرك ربك . قال : وتعينني ؟ قال :
 أعينك ! قال : فان الله أمرني أن أبني هنا بيتا ، وأشار الى أكمة مرتفعة على
 ماحولها ، قال : فعند ذلك رفع القواعد من البيت ، فجعل اسماعيل يأتي
 بالحجارة ، وابراهيم يبنى ، حتى اذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه
 له فقام عليه وهو يبني ، واسماعيل يناوله الحجارة ، وهما يقولان : ربنا
 تقبل منا انك أنت السميع العليم »

هذه القصة التي رواها ابن عباس وتخللها بكلمات للنبي عليه السلام
 هي أصل خبر عن ابراهيم نقله رواية الحديث
 أم الأحاديث التي أشرنا الى الخلاف عليها بين الفقهاء ، وعلماء
 ، فمنها الحديث التالي وفيه غنية :
 حدث أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« لم يكذب ابراهيم النبي عليه السلام قط الا ثلاث كذبات : اثنتين في
 ذات الله قوله اني سقيم وقوله بل فعله كبيرهم هذا ، وواحدة في شأن
 سارة ، ناذا قدم أرض جبار ومعه سارة ، وكانت أحسن الناس ، فقال لها :
 ان هذا الجبار ان يعلم أنك امرأتى يغلبني عليك ، فان سألك فأخبريه أنك
 أختى ، «انك أختى في الاسلام ، فاني لا أعلم في الارض مسلما غيرى وغيرك ،
 فلما دخر أرضه رآها بعض أهل الجبار فاتاه فقال له : لقد قدم أرضك
 امرأة لا ينبغي لها أن تكون الا لك ، فأرسل اليها فأتى بها ، فقام ابراهيم عليه
 السلام الى الصلاة ، فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده اليها فقبضت
 يده قبضة شديدة ، فقال لها : ادعى الله أن يطلق يدي ولا أضرك ، ففعلت .
 فعاد فقبضت أشد من القبضتين الاوليين ، فقال : ادعى الله أن يطلق يدي
 فلك عهد الله الا أضرك . ففعلت وأطلقت يده ، ودعا الذي جاء بها فقال له :

انك انما اتيتنى بشيطان ولم تاتنى بالناس . فاخرجها من ارضى واعطها هاجر . . قال : فأقبلت تمشى ، فلما رآها ابراهيم عليه السلام انصرف فقال لها : مهيم (١) . قالت خيرا . كف الله يد الفاجر واخدم خادما قال أبو هريرة : فتلك أمكم يا بنى ماء السماء !

وليس بعد القرآن والأحاديث النبوية من مصدر يصح أن يسمى اسلاميا غير أقوال المفسرين ..

وانما تسمى أقوال المفسرين مصدرا اسلاميا حين تكون مقصورة على تفسير معانى القرآن وألفاظه أو الاستشهاد بالأحاديث النبوية . فأما ما عدا ذلك فلا ينسب الى الاسلام . وانما المرجع فيه الى الأخبار المروية عن النسابين وأصحاب الأخبار عامة ، ومنهم اليهود الذين أسلموا والنسابون الذين توارثوا تواريخ أسلافهم بالسماع

فمن اليهود الذين أسلموا كعب بن ماتع الحميرى الذى اشتهر باسم كعب الأخبار ، كان من علماء اليهود فى اليمن وأسلم فى زمن أبى بكر ، وعاش فى المدينة زمنا ثم خرج الى الشام بعد مقتل عمر فأقام بحمص ومات فيها . ومنهم وهب بن منبه وهو من يهود اليمن أيضا وكان من أبناء الفرس الذين أرسلهم كسرى الى اليمن ثم أسلم وتوفى فى عهد الدولة الأموية ، وكلاهما كثير الرواية والنقل عن الكتب الاسرائيلية ، ويظن بهما انهما وضعا كثيرا مما رواه

والمعلوم أن المسلمين فى صدر الاسلام لم يتخرجوا من النقل عن أهل الكتاب الا فيما يناقض القرآن الكريم . لأن المسلم يؤمن بالكتب التى تنزلت قبل القرآن ويؤمن بأن العقائد التى تخالف عقيدته منها تحريف من الكهان والاحبار وأنهم يجهلون بعض ما عندهم من الآيات ويخفون بعضها أو يتمحلون^(١) له التأويل

فاذا دخل عالم من علماء اليهود فى الاسلام ونفى من روايات دينه ما يخالف القرآن ثم يتخرج المسلم أن يستمع اليه فيما ينقله عن كتبه ، وأمن له واعتبره من العلم الذى سبقه اليه أهل الكتاب ، وكذلك فعل

(١) مهيم يسكون الهاء وفتح الياء اسم فعل بمعنى ما خبرك . وهى منحوتة من « ماها يوم » العبرية ما يومك اى ما خبرك

(١) يتمحلون : تمحل الشيء طلبه بحيلة وتكلف .

كثير من المفسرين ، وبالغوا في الطمأنينة الى أولئك الرواة وفاتهم أنهم
أن سلموا من سوء النية لم يسلموا من الجهل وضعف السند وقلة الثبوت
والتحريض ..

وكان الفاروق والامام على رضى الله عنهما ينهايان كعب الأخبار عن
الافاضة في رواياته وأساطيره ، وسخر الفاروق منه حين زعم له أن مقتله
مكتوب في التوراة ، ولم يثبت أحد من جلة الصحابة شيئا من تلك
الأساطير ، ولكن كعب الأخبار وأمثاله قد طاب لهم أن يتحدثوا بتلك
الأساطير التي ينفردون بدعواها فأفرطوا فيها وجعلوا يطرُقون السامعين
بجديد كلما نفد قديمهم المعروض وآنسوا من السامعين اقبالا على هذه
البضاعة التي لا يزاحمهم فيها أحد من المسلمين

الا أن المصادر الاسرائيلية لا تستوعب كل ما وعاه العرب قبل الاسلام
من تواريخ عقائدهم ولا سيما العقائد التي تلتصق بالكعبة ونشأتها واقامة
الشعائر فيها وأسباب تلك الشعائر منذ أقدم عصورها ، ومن الخطأ أن
يقال ان الروايات عن بناء الكعبة تلتفيق من اليهود لارضاء العرب والتقرب
اليهم بتوحيد النسب بينهم والارتفاع بنسبهم جميعا الى جدهم ابراهيم .
فان نسبة العرب الى اسماعيل بن ابراهيم مكتوبة في سفر التكوين ،
ومن العرب الذين كانوا يجهلون التوراة من كانوا ينسبون أنفسهم اليه .
(نبات) بن اسماعيل كما جاء في تاريخ ديودورس الصقلى المتوفى بعد
منتصف القرن الأول للميلاد ، وقد كانت الروايات ترتفع ببناء الكعبة الى
آدم والى الملائكة ولا تقف بها عند ابراهيم وجاء فيما رواه التقى القاسي
صاحب كتاب شفاء الغرام ان الكعبة بنيت عشر مرات : بناء الملائكة وبناء
آدم وبناء أولاده وبناء ابراهيم وبناء العمالقة وبناء جرهم وبناء قصي بن
كلاب وبناء قريش وبناء عبد الله بن الزبير وبناء الحجاج ، ثم قال ان
بناءها قبل ابراهيم لم يأت به خبر ثابت ، وقال المسعودي ان بناء الملائكة
وآدم وشيث لم يصح ، وأما بناء جرهم والعمالقة وقصي فهو ترميم ،
وتوسع الأرزقي صاحب كتاب أخبار مكة غاية التوسع في هذه الروايات

التي لم تستوعبها الاسرائيليات ولا يمكن أن تستوعبها ، لأن تبجيل العرب للكعبة أقدم من هذه الاسرائيليات ، وقد جاوز حدود جزيرة العرب الى الهند ومصر كما ذكر برتون في رحلته الى الحجاز ، ولا يزال الصابئة اليوم كما كانوا قبل الاسلام يحسبوننها من البيوت السبعة التي تناظر الكواكب السبعة ويقولون انها بيت أشرفها دارا وهو زحل ، وستبقى في الأرض ما بقى زحل في السماء

وسياتى الكلام بشيء من التفصيل عن سلالة ابراهيم في البلاد العربية ، ولا محل هنا لنقل الروايات المختلفة التي اقتبسها المفسرون أو المؤرخون التفسيريون ، سواء منها ما أخذوه من الاسرائيليات وما أخذوه من حفظة الأنساب وبناء الاسلاف ، فانها جميعا على نحو ما تقدم . ولكننا ننقل هنا ما فيه اجتهاد للمفسرين أو ما فيه خبر يضاف الى أخبار السيرة ويعولون على روايته

فالمفسرون الأوائل يقولون ان النار لم تحرق ابراهيم لأن الله سلبها خاصة الاحتراق ، والالوسى صاحب روح المعاني من المفسرين المتأخرين يقول : « وأيا ما كان فهو آية عظيمة ، وقد يقع نظيرها لبعض صلحاء الأمة المحمدية كرامة لهم لمتابعتهم النبي الحبيب صلى الله تعالى عليه وسلم ، وما يشاهد من وقوعه لبعض المنتسبين الى حضرة الولي الكامل الشيخ أحمد الرفاعي قدس سره من الفسقة الذين كادوا يكونون لكثرة فسقهم كفارا فليل انه باب من السحر المختلف في كفر فاعله وقتله ، فان لهم أسماء مجهولة المعنى يتلونها عند دخول النار والضرب بالسلاح ، ولا يبعد أن تكون كفرا وان كان معها ما لا كفر فيه .. ولم يكن ذلك في زمن الشيخ الرفاعي قدس سره العزيز فقد كان أكثر الناس اتباعا للسنة وأشدهم تجنبا عن مظان البدعة ، وكان أصحابه سالكين مسلكه متشبثين بذيل أتباعه قدس سره ، ثم طرأ على بعض المنتسبين اليه ما طرأ .. قال في العبر : قد كثر الزغل في أصحاب الشيخ قدس سره وتجددت لهم أحوال شيطانية منذ أخذت التاتار العراق - من دخول

النيران وركوب السباع واللعب بالحيات ، وهذا لا يعرفه الشيخ ولا صلحاء أصحابه ، فنعوذ بالله تعالى من الشيطان الرجيم .. والحق أن قراءة شيء ما عندهم ليست شرطا لعدم التأثر بالدخول في النار ونحوه ، فكثير منهم من ينادى إذا أوقدت له النار وضربت الدفوف : يا شيخ أحمد يا رفاعى أو يا شيخ فلان لشيخ أخذ منه الطريق ويدخل النار ولا يتأثر منها دون تلاوة شيء أصلا ، والأكثر منهم إذا قرأ الأسماء على النار ولم تضرب له الدفوف ولم يحصل له تغير حال لم يقدر على مس جمره ، وقد يتفق أن يقرأ أحدهم الأسماء وتضرب له الدفوف وينادى من ينادى من المشايخ فيدخل ويتأثر . والحاصل أنا لم نر لهم قاعدة مضبوطة . بيد أن الأغلب أنهم إذا ضربت لهم الدفوف واستغاثوا بمشايخهم وعربدوا يفعلون ما يفعلون ولا يتأثرون ، وقد رأيت منهم من يأخذ زق الخمر ويستغيث بمن يستغيث ويدخل تنورا كبيرا يضطرم فيه النار فيقعده في النار ويشرب الخمر ويبقى حتى تخدم النار فيخرج ولم يحترق من ثيابه أو جسده شيء . وأقرب ما يقال في مثل ذلك أنه استدراج وابتلاء . واما أن يقال ان الله عز وجل أكرم حضرة الشيخ أحمد الرفاعى قدس سره بعدم تأثر المنتسبين اليه كيفما كانوا بالنار ونحوها من السلاح وغيره اذا هتفوا باسمه أو اسم منتسب اليه في بعض الأحوال ، فبعيد بل كأنى بك تقول بعدم جوازه ، وقد يتفق ذلك لبعض المؤمنين في بعض الأحوال اعانة له ، وقد يأخذ بعض الناس بيده ولا يتأثر لاجزاء يطلى بها يده من خاصيتها عدم اضرار النار للجسد اذا طلى بها ، فيوهم فاعل ذلك أنه كرامة .. »

والشيخ محيي الدين بن العربي يفسر الآية على أسلوب المتصوفة الذين يرمزون بالكلمات الى الأسرار فيقول : حرقوه أى أتركوه يحترق بنار العشق التى أتمتم أوقدموها أولا بالقاء الحقائق والمعارف اليه التى هى حطب تلك النار عند رؤيته ملكوت السماوات والأرض بارادة الله اياه كما قال : وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السماوات والأرض .. واشراق الأنوار الصفاتية والأسماوية عند تجليات الجمال والجلال عليه من وراء

أستار أعين . هي منشأ اتقاء النار ، وانصروا آلهم أي معشوقاتكم ومعبوداتكم في الامداد بتلك الأنوار وايقاد تلك النار . ان كنتم فاعلين . بأمر الحق « يا نار كونى بردا وسلاما بالوصول حال الفناء . فان لذة الوصول تفيد الروح الكامل والسلامة عن نقص الحدثن وآفة نقصان والامكان . — وأرادوا به كيدا — بافنائهم واحراقه .. »

ومن المفسرين المحدثين محمد على الهندي الذي ترجم القرآن الكريم الى الانجليزية واجتهد في تفسير آياته ، فقال ان الحادث — حادث الأصنام المحطمة — قد هاج نائرة القوم وأوقد نيران ضغنتهم ، وان الآية التالية تدل على أن النار نار كيد — وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين ولعلمهم أرادوا احراقه فنجاه الله من تديبرهم ، ثم فسر الآية في سورة العنكبوت : فما كان جواب قومه الا أن قالوا اقتلوه أو احرقوه فأنجاه الله من النار . فقال في تفسيرها : ان أعداءه عجزوا عن احراقه وكانوا يدبرون له القتل والاحراق فلم يستطيعوا

والامام البيضاوي يفسر : فنظر نظرة في النجوم فقال اني سقيم فيهم من الآية انما ربما رأى مواقع النجوم واتصالاتها أو نظر في علمها أو في كتابها ثم يقول : ولا منع منه مع أن قصده ايهاهم ، وقد سألوه أن يخرج معهم الى عيدهم الذي يعيدونه لأربابهم ، فأراهم انه استدل بالنجوم — لأنهم كانوا منجمين — على أنه مشارف للسقم ، وكان أغلب أسقامهم الطاعون ، ويخافون عدواه .. قال : وربما أراد انه سقيم القلب لكفرهم ، أو خارج المزاج عن الاعتدال ..

ومن الجديد في المصادر الاسلامية أن ابراهيم ولد على مقربة من دمشق وان آزر عم ابراهيم ولم يكن أباه . قال صاحب بدائع الزهور في وقائع الدهور : « روى وهب بن منبه أن ابراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم بن تاريخ بن ناخور . وقال الحافظ السهيلي انه كان مولودا ببلاد سوريا ، وقيل بقرية تسمى برزة من قرى دمشق في مغارة هناك معروفة ، وفيها الدعاء مستجاب .. قال الرواة : ان ساما وحاما وياثا

أولاد نوح عليه السلام كانوا ثلاثة أقسام فكانت النبوة في أولاد سام
ومساكنهم الحجاز وما يليها ، والقوة في أولاد حام ومساكنهم المغرب ،
والتجبر في أولاد يافث ومساكنهم المشرق .. »

ومن المختلف عليه بين المفسرين والمؤرخين التفسيرين قرابة سارة
وابراهيم .. فالحافظ ابن كثير يروى أن المشهور أنها ابنة عم لابراهيم
يسمى هاران ، ويقول ابن اسحاق الثعلبي صاحب قصص الأنبياء نقلاً
عن أهل العلم بسير الماضين أنها ابنة عمه ولا يذكر اسمه ..

ويختلفون كذلك في ولد ابراهيم الذي أمر بذبحه ، فمنهم من يرى
انه اسحاق ومنهم من يرى أنه اسماعيل ، وجاء في قصص الانبياء : أن
محمد بن اسحق روى عن محمد بن كعب القرظي انه كان يقول ان الذي
أمر الله تعالى ابراهيم بذبحه من ابنه اسماعيل .. ولم يكن يأمره بذبح
اسحاق وله فيه من الله تعالى من الوعود ما وعده ، وما الذي أمر بذبحه
الا اسماعيل . قال محمد بن كعب القرظي فذكرت ذلك لعمر بن عبدالعزيز
وهو خليفة ، اذ كنت معه بالشام . فقال لى عمر : ان هذا الشيء ما كنت
أظن فيه ، واني لأراه كما قلت ، ثم أرسل الى رجل كان عنده من الشام
وكان يهودياً فأسلم وحسن اسلامه ، وكان يرى أنه من علماء يهود
فسأله عمر بن عبد العزيز عن ذلك وأنا عنده ، فقال له : أى ابنى ابراهيم
الذى كان أمر بذبحه ؟ فقال : اسماعيل ثم قال : والله يا أمير المؤمنين ان
اليهود لتعلم ذلك ، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون
أبوكم الذى أمر الله بذبحه لما فيه من الفضل الذى ذكر انه كان منه
بصبره على ما أمر به ، فهم يزعمون انه اسحاق لأن اسحاق أبوهم «

وسنرى فيما يلى أن هذا الاختلاف له جانب هام يفوق في أهميته
جانب البحث التاريخي الذى يراد به مجرد العلم باسم الذبيح من ابنى
ابراهيم ، فانه اختلاف يتعلق به اختيار الشعب الموعود ويتعلق به الحذف
والاثبات في سيرة ابراهيم ليتصل بذرية اسحاق وينقطع عن ذرية اسماعيل
أو ليثبت من سيرته كل ما يتعلق بإسرائيل وينقطع منها كل ما يتعلق

بالعرب ، وان هذا النزاع قد بدأ قديما قبل تدوين نسخ التوراة التي كتبت في بابل ، أى قبل الميلاد بعدة قرون ..

وواضح أن النزاع في أوله لم يكن نزاعا على العقيدة ، فان العهد القديم يروى عن ابراهيم أنه قدم العشر للملكى صادق كاهن الله « العلى » أو عليون الذى كان معبودا لسكان فلسطين وما جاورها الى الجنوب ، وقد زار هيرودوت بلاد العرب الشمالية عند مدخل مصر وروى عنهم انهم كانوا يعبدون الله تعالى Arotal واللات أو ايليلات Ailat منذ قرون سابقة للقرن الخامس قبل الميلاد ، وهو القرن الذى عاش فيه هيرودوت . فلم يكن النزاع على العقيدة في نشأته الا فرعا من فروع التنازع على الميراث ، ولم يكن شأن الذرية الموعودة أو المختارة الا أنها تعزز دعواها في ذلك النزاع ، وتنفى عنه من ينازعها عليه

وهذه المشكلة التي عرضت لمحمد بن اسحاق القرظي قد صادفت فقهاء المسيحية من قبل كما صادفت فقهاء الاسلام اذ كيف يؤمر ابراهيم بذبح اسحاق وهو ابنه الموعود الذى يخرج منه شعب الله المختار ؟ ان كاتب الرسالة الى العبرانيين يقول في الاصحاح الحادى عشر حلا لهذه المشكلة « ان ابراهيم بالايمان قدم اسحاق .. وحيد .. الذى قيل له انه باسحاق يدعى لك نسل اذ حسب ان الله قادر على الاقامة من الأموات » وحل المشكلة على هذا الوجه جديد في المسيحية لم ينظر اليه أحبار اليهود الذين اعتبروا أن التضحية قائمة على تسليم ابراهيم بموت اسحاق ، وانه أطاع الله ولم يطع قلبه ولم يحفل بحنانه على ابنه الموعود ، ويبقى من المشكلة جانب آخر وهو وصف الابن بالوحيد ، فلم يكن اسحاق وحيدا مع وجود اسماعيل أما اسماعيل فكان وحيدا قبل مولد اسحاق

ان فهم النبيرة كما جاءت في الكتب الدينية أو في كتب الشروح والتعليقات لا يتهيا للباحث ما لم يضع أمامه سر الاختلاف على اسحاق واسماعيل ، وما نقلناه هنا من المصادر الاسلامية يوضح هذا السر بعض الايضاح ، وربما تم ايضاحه بما يلي من مصادر التاريخ

مراجع الصابئة

تدين بعقائد الصابئة ملة يبلغ عدد أبنائها ستة آلاف بين رجل وامرأة وطفل ، ولا يجاوز بها المبالغ في عددها عشرة آلاف وهي على قلة عددها تستقل بلغة « مقدسة » خاصة ، ولها كتابة أبجدية خاصة ، وأحكام دينية في معيشتها لا تشبه في جملتها دينا واحدا ولكنها تشبه في بعض أجزائها كل دين ومن ثم كان لها شأنها في الدراسات الدينية ففيها ولا شك عقائد سابقة لجميع الأديان الكتابية ، وعقائد سابقة لدين الخليل ..

بل فيها ، على رأى بعض الباحثين ، بقية من الديانتين المختلفتين في عصر الخليل ، لأن الصابئة يدينون بمذاهب مختلفة يرد بعضها على بعض ، ولا سيما مذاهب الكواكب والأصنام ، مما تواترت الأخبار بالاختلاف عليه بين قوم ابراهيم ومن حاربوهم واضطروهم الى الهجرة من بلادهم ..

ويقول رايت Wright صاحب كتاب المطالعة العربية ان حروفهم الأبجدية تشبه الحروف النبطية ، وأن لغتهم تشبه لغة التلمود الذى كتب في بابل ، ويقولون هم ان لغتهم الأولى سريانية وانهم كانوا بمصر على عهد الفراعنة الأول وتلقوا ديانتهم الأولى عن أحبارها ثم هجروها حين تحول أهلها عن الدين القويم

والمحقق من أمرهم أنهم يرجعون الى أصل قديم ، لأن استقلالهم باللغة الدينية والكتابة الأبجدية ، لم ينشأ في عصر حديث ولهذا يفهم الدارسون للأديان أن تحقيق لغتهم وكتابتهم يؤدي الى جلاء الغوامض عن كثير من

تاريخ الكلدان في الزمن الذي قام فيه الخليل بدعوته ، ويؤكد هذا الفهم ان هؤلاء الصابئة يقيمون في الأقاليم الجنوبية من العراق حيث أقام الخليل في رواية العهد القديم ، ومنهم فئة تحج الى حاران التي هاجر اليها ، وينسب اليها الصابئة الحرائيون ..

ومع استقلال الصابئة باللغة الدينية والكتابة الأبجدية ، يشتركون مع أصحاب الأديان في شعائر كثيرة ، ولا يعرف دين من الأديان تخلو عقيدة الصابئة من مشابهة له في احدى الشعائر .. فهم يشبهون البراهمة والمجوس والأورفيين أصحاب النحل السرية كما يشبهون اليهود والنصارى والمسلمين ، أو كما يشبهون الفلاسفة وأصحاب المذاهب العقلية في تفسير الوجود والموجودات

وهم كما يشبهون الجميع يخالفون الجميع وتعليل هذه المخالفة أنهم تشبثوا بأصل قديم لا يفارقونه ، أما تعليل المشابهة فليس باليسير ، فان مقام الصابئة عند خليج فارس يجعلهم في طريق كل ملة يتردد أبنائها على ذلك الاقليم أو يقيمون فيه ، وقد تردد عليه من قديم الزمن هنود وفرس وطورانيون وعرب وسريان وفينيقيون ، واتصل به أبناء البحار كما اتصل به أبناء الصحراء ، فليس بالعجيب أن تعلق بعقيدة الصابئة الأقدمين مسحة من كل ملة على طول الزمن وتتابع العهود ..

فمن مشابتهم للبراهمة انهم يتخرجون من ملامسة غيرهم ويتظهرون اذا لمسوا غريبا في حالة من حالات العبادة ومن مشابتهم لأصحاب العقائد الأورفية - أو السرية - أنهم يكتمون كتبهم أشد الكتمان ، ولا يباشرون شعائرهم مع الغرباء ، ويتقاسمون الخبز المقدس علامة على الأخوة الروحية ، ويعتقدون أن الكون كونا وان الخلق خلقان . فالكون الظاهر غير الكون الباطن ، ولكل مخلوق في العلانية صورة محجوبة في عالم الغيب .. حتى آدم وبنوه منهم أهل ظاهر وأهل باطن لا يراهم من يعيشون في العلانية

ومن مشابهتهم للمجوس أنهم يتوجهون الى قطب الشمال والى الكواكب عامة ولكنهم لا يعبدونها ، بل يحسبونها من مظاهر الروحانيات التى لا تبرز للعيان ..

ومن مشابهتهم للمسيحيين أنهم يدينون بالعماد وييجلون يوحنا المعمدان أو يحيى المغتسل . ولكن التعميد أعم عندهم من التعميد فى المسيحية ، ويندر منهم من يسكن بعيدا من الأنهار لحاجتهم كل يوم الى العماد ، والى التطهر بالماء ..

ومن مشابهتهم للمسلمين أنهم يقيمون الصلاة مرات فى اليوم ، ويقولون انها فرضت عليهم سبعا ثم أسقطها يوحنا عنهم وأدخل بعضها فى بعض وأكثرى منها بثلاث ، ولكنهم لا يسجدون فى صلاتهم بل يكتفون بالقيام والركوع ، وهم يتوضؤون قبل الصلاة ويغتسلون من الجنابة ويعرفون نواقض الوضوء ولكنهم يغالون فيها

وعندهم ذبائح كذبائح اليهود ويوم فى ختام السنة كيوم اليهود . ولكنهم يحرمون الختان ولا يبنون لهم هيكلًا قائما ، بل يبنون الهيكل من القصب كما تبنى الخيام ، موقوتا عند الحاجة اليه فى الأعياد . فكأنها بقية أو أصل لعيد الظلال وللهيكل المنقول

ومنهم من ينتسب الى كاظم بن تارح ، وقد ذكرهم المقرئى بين الفرق المختلفة ، وكأنهم يقابلون دين ابراهيم بدين أخ له ينتمى الى تارح ، أبى ابراهيم فى رواية العهد القديم

وهم ينكرون الأنبياء ، ويقولون ان الله لا يخاطب أحدا من البشر وانما خلق الله الروحانيات ، أى الملائكة ، ثم تلبست هذه الروحانيات بالكواكب النورانية ، ولما احتاج الأمر الى أمثلة لهذه الكواكب يراها العباد حين يشاءون ، صنعوا لها صورا من الأوثان ، وجعلوا اتجاههم انى نجم القطب لأنه ثابت فى مكانه ، لا يختلف له فلك باختلاف الأزمان ولهم أقوال فى تنزيه العقل الالهى تشبه أقوال الفلاسفة ، ومنهم من يحرم الطعام الذى حرمة أتباع فيثاغورس كالبصل ويضيفون اليه أنواعا

من الخضر كالكرنب ولحوم الحيوان ذى الذنب ، لأنهم يستوحون الغيب في الرؤيا ، وهذه الأطعمة تمنع الرؤيا الصادقة والغالب أنهم عرفوا شيئا من أقوال حكماء اليونان من طريق التساوسة النسطوريين الذين هاجروا الى جنوب العراق في صدر المسيحية هربا من الاضطهاد ، وكان أكثرهم يعرفون اليونانية ويقراءون الفلسفة ولا سيما الرواقية والفيثاغورية ، ولكن اتصال اليونان ببلاد الكلدان أقدم من المسيحية ومن اليهودية ، ومن الكلدانيين أخذ اليونانيون خصائص الكواكب المعبودة وحرمان المعابد التي تقام لها ، وشعائر الطواف بها وحماية الضحايا التي ترسل في حرم المعبد وما الى ذلك من العادات والعبادات التي اندثرت بين الصابئة المحدثين ضرورة لا حيلة لهم فيها ، لأن اقامة الحرم في مكان مطروق انما يقوم بقوة الحاكم ، وبناء المعابد انما يقوم بوفرة المال وكثرة العدد ، وهم قلائل متفرقون لا يملكون الثروة ولا السلطان

والمشهور عن الصابئة انهم يوقرون الكعبة في مكة ، ويعتقدون انها من بناء هرمس أو ادريس عليه السلام وانها بيت زحل أعلى الكواكب السيارة ، وينقل عنهم عارفوهم أنهم قرأوا صفة محمد عليه السلام في كتبهم ، ويسمونه عندهم ملك العرب ، لأن الشائع فيهم أنهم لا يؤمنون بالانبياء الا فرقة واحدة تذكر شيئا وادريس وابراهيم ويحيى المغتسل ويحسبونهم تارة من الانبياء وتارة من عباد الله الخالص الذين وصلوا بالرياضة والعبادة الى مقام الزلفى والالهام

وقد كان الباحثون يعجبون لتتويه القرآن الكريم بهذه الملة مع قلة عددها وخفاء أمرها ، ولكن الدراسات الحديثة بينت للباحثين العصريين شأن هذه الملة في دراسات الأديان كافة ، فعادوا يبحثون عن عقائدها الآن وعقائدها في عصر الدعوة الاسلامية ، وثبت لهم أنها تؤمن بالله واليوم الآخر ، وتؤمن بالحساب والعقاب وأن الأبرار يذهبون بعد الموت

الى عالم النور « آلمى دهورو » وأن المذنبين يذهبون الى عالم الظلام « آلمى دهشوخا » ويلبثون فيه زمنا على حسب ذنوبهم ، ثم ينقلون منه الى عالم النور ..

ولهم كتاب يسمونه (كنزة) ولعله من مادة الكنز التي تفيد معنى النفاسة والكتمان ، لأنهم يقدسونه ويخفونه فلا يطلعون أحدا على أسراره ..

الا ان المتفق عليه أن اللغة التي كتب بها كتاب الكنزة وغيره من الكتب المقدسة عندهم هى لغة سامية الأصل قريبة من السريانية ، وتكفى نظرة فى مصطلحاتهم للجزم بهذه الصلة الوثيقة بين لغتهم واللغة العربية الحديثة فضلا عن القديمة المهجورة



فمن كلماتهم ومصطلحاتهم « آلمى » بمعنى عالم ، و « شماس » بمعنى شمس و « هى » بمعنى حى ، و « زوحايا » بمعنى روح و « موشيه » بمعنى المسيح ، و « بهيه » بمعنى يحيى ، و « قدموى » بمعنى القديم ، وحران « سفلايى » بمعنى السفلى و « ترميد » بمعنى تلميذ ، و « أسفر » بمعنى سفر ، و « تنيائى » بمعنى الثانى ، و « تليثائى » بمعنى الثالث ، واسم الصابئة نفسه على ما يقول بعضهم مأخوذ من السابحة ، سموا به لكثرة الاغتسال فى شعائرهم وملازمتهم شواطئ الأنهار من أجل ذلك ، ولكنهم هم يطلقون على ملتهم اسم « مندالى » ولا يعرف من أين مأخذه القديم ، واشتقاق اسمهم من السبح أرجح من نسبة الاسم الى السباوث العبرية بمعنى الجنود - جنود السماء - أى الكواكب ، التى اشتهروا بعبادتها ..

والأبجدية عندهم قريبة من أبجدية حساب الجمل على حسب ترتيبها فى أبجد هوز حطى كلمن الخ وهى « آ.با.كا.دا.ها.وا.زا.ها.طا.ثا.يا.كا.لا.ما.نا.سا.أى.يا.صا.قا.را.شا.تا »

ومن هذه الحروف ما يقارب مخارج الحروف التى تقابله فى اللغة

الفارسية ، لأنهم تعودوا نطقها منذ زمن قديم ولم يتيسر حتى اليوم كشف الستار عن بواطن معتقداتهم وشعائرهم ، لأنهم يصطنعون التقية ويوجبونها ، ومن ذلك أنهم يحرمون الصيام باطنا كما اشتهر عنهم ، ولكنهم يصومون جهرا ويروى ابن النديم في الفهرست انهم يصومون ثلاثين يوما مفرقة على أشهر السنة ، وقد يتنفلون بصيام أيام النسيء الخمسة ، ويروى عنهم أيضا أنهم يصومون خمسة أسابيع يأكلون فيها الطعام نهارا وليلا ويجتنبون أكل اللحوم المباحة لهم وهي غير ذات الذنب ، ويقال ان الصيام بنوعيه قديم عندهم يرجع الى أيام البابليين

وقد ذكرهم القرآن الكريم غير مرة وجاء في سورة البقرة : « ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون »



ولا نعلم اليوم على التحقيق تفصيل عبادتهم في أيام الدعوة الاسلامية ولكنهم كانوا ولا يزالون ينزهون الله غاية التنزيه ويقولون ان الكواكب ملائكة نورانية ، ولم تكن لهم هياكل ولا أصنام عند ظهور الاسلام ، ولا بد عندهم من مخلوق متوسط بين الروحانية والمادية يهدى الناس الى الحق لأن الروحانيات مخلوقة من كلام الله جل وعلا ، دعاها بأسمائها فوجدت ، ولا يصل كلام الله الى الناس الا بوساطة مخلوق بين النور والتراب ترفعه الرياضة والهداية وتؤثره نعمة الله

وأقرب ما نشبه به هذه العقيدة انها كالحوض الذي تصب فيه مسارب الماء من كل مورد ، فاذا أخذت ماءه فحللته وجدت فيه أثرا من كل مسرب ، ولكنها توجد فيه على امتزاج ولا بد من الجهد لتصفيتها والرجوع بكل جزء من أجزائها الى ينبوعه الذي صدر منه في أصله البعيد ..

وهكذا العقيدة الصابئية في امتزاج عناصرها وعلاقة كل عنصر منها

بالعناصر الأخرى ، ولكنها على هذا الامتزاج مهمة جدا في البحث عن تلك العقائد ، وبخاصة عقيدة الخليل
فهي مهمة من وجهة المكان ، لأنها قديمة العلاقة بكل مكان تعلقت به سيرته عليه السلام ، من جنوب الفرات الى شماله ، الى بلاد السريان ، الى بلاد النبطية من شمال الحجاز

وهي مهمة من وجهة زمانها ، لأن لغتها المقدسة تشير الى زمان متوسط بين اللغات القديمة المهجورة واللغة السريانية الحديثة ولم تكن لغة ابراهيم سريانية حديثة كالتى بقيت الى الزمن الأخير ، ولم تكن احدى اللغات المهجورة التى يجمع المؤرخون موادها مبعثرة متفرقة ولا يفهمون مفرداتها وتراكيبها وقواعدها ، فان تلك اللغات المهجورة قد انقطعت صلتها بمن بعدها على خلاف لغة الخليل . فاذا أشارت لغة الصابئة الى زمن متوسط بين اللغات المهجورة واللغات السامية المتأخرة فهي احدى القرائن التى يستعان بها على تعيين زمان الخليل



وهي مهمة من جهة موضوعها ، لأنها ترينا ملئقى التوحيد القديم والوثنية القديمة ، وفيها بقايا الاصطدام بين العقيدتين ، وقد يكون مدار الاختلاف بين عقيدة الخليل ومخالفيه حول هذا المصطدم ، فان بقايا التنازع بين المعتقدات ظاهرة في العقائد الصابئية يكاد بعضها أن يكون ردا على البعض الآخر ، فلا وثنية ولا ايمان بالكواكب من جهة ، ولا خلاص في الوقت نفسه من الوثنية والايان بالكواكب على صورة من الصور ، ولعل العقيدة الصابئية كما بقيت خليط مجتمع من الجانبين بعد هجرة ابراهيم وشيعته من وطنهم القديم

ومن هنا كانت نحلة الصابئة مهمة في دراسة الأديان على العموم ودراسة دين ابراهيم على الخصوص ، وكان لها في ذلك شأن لا يناسب عددها القليل وعزلتها التى فرضتها على نفسها وفرضتها عليها أحداث الأيام ..

مصادر التاريخ القديم

لم يبق من المراجع القديمة ما يضاف الى الأبواب السابقة غير أقوال المؤرخين الأقدمين ..

وهؤلاء المؤرخون الأقدمون ينتمون الى الأديان الكتابية الثلاثة ، ويعول كل منهم على كتب دينه ، فلا يناقضها وقد يزيد عليها ما ينطوى فيها ولا ينفيها ، وقد يأتي في أخبارهم ما يخالف كتب الأديان الأخرى ويزيد عليها شيئاً لا يسلمه من يعتقدونها ، ولكن التواريخ القديمة على العموم لم تعتمد على مصدر غير كتب الدين وتفسيراتها في كل ملة وليس المقام هنا متسعاً للافاضة في النقل من كتب المؤرخين الأقدمين ، فنحن نختار مؤرخاً من كل ملة يقتدى به المقتدون في بابه ، ونكتفى بيوسيفوس من مؤرخي اليهود ، وأبى الفرج ابن العبري من مؤرخي المسيحيين وأبى الفداء من مؤرخي المسلمين

(١) تاريخ يوسيفوس

« سأتكلم الآن عن العبرانيين

« فالج بن عابر ولد له رعوس ، وولد لرعوس سيروج ، وولد لسيروج ناخور ، وولد لناخور ثيروس (١) Therrus وهو أبو ابراهيم العاشر

من سلالة نوح ، ومولده في سنة ٩٩٢ بعد الطوفان

« . . . وكان لابراهيم اخوان : ناخور وآران

« وولد لآران (حاران) لوط وبنتان هما سارة وملكة ، ومات في بلاد

الكلدان في بلدة تسمى أور الكلدانيين ، وقبره هناك يرى الى اليوم ..

(١) هكذا ينطق بالاغريقية وهو نادح في كتب اليهود

وتزوج ناخور بنت أخيه مملكة ، وتزوج ابراهيم بنت أخيه سارة ، وكره ثيروس المقام بأور حيث ممد ابنه المحزون عليه حاران فهاجر منها الى شاران (حران) بالعراق حيث مات ثيروس وله من العمر مائتا سنة وخمس سنوات ، اذ كان عمر الانسان قد قصر ولم يزل يقصر الى عهد موسى فأصبحت غايته مائة وعشرين سنة وهو عمر موسى

« ولد لناخور ثمانية من زوجته ملكة ، وهم : عز وبوغر وبثوئيل وخزام وعنرو وآدلفاس وآدفاس وثبوئيل، وهؤلاء هم أبناءه الشرعيون من زوجته ملكة . أما أبناءه الآخرون فهم : طبאי وجدام وطاو وماخاس من جاريته روما

« وولد لبثوئيل بنت اسمها رفقة وولد اسمه لابان ..

« ولما لم يكن لابراهيم ولد شرعى تبنى لوطا ابن أخيه حاران وأخا زوجته سارة ، وترك بلاد الكلدانيين وهو في الخامسة والسبعين ليذهب الى كنعان حيث أمره الله وحيث ترك ذريته من بعده

« وكان ابراهيم رجلا متيقظ الذهن في جميع الأمور ، مقنعا لمن يسمعه ، غير مخطيء في فهمه واستدلالة . فأدرك من حقائق النضائل ما لم يدركه سائر البشر ، واعتزم أن يصحح الأفكار التي شاعت بينهم عن الله ويغيرها ، فكان من ثم أول من اجترأ على المناذاة بأن الله خالق الكون واحد ، وانه اذا وجد كائن آخر ينفع الناس فانما يفعل ذلك باذنه ولا يفعله بقدرته من عنده ، وقد انتهى الى ذلك من مراقبته لما يطرأ على الأرض والماء والشمس والقمر وسائر الاجرام السماوية من عوارض التغير والتقلب ، أو لاح له ان هذه الاجرام لو كانت لها مشيئة لحكمت على نفسها ، فأما وهي لا تملك نفسها فكل ما تصنعه ، وكل ما ينفعنا من صنعها ، فليس من عندها بل من عند من يحكمها وهو الجدير دون سواه بالشكر والطاعة منا ..

« والواقع ان هذه الأفكار هي التي أثارت عليه الكلدانيين والعراقيين فرأى من الخير بمشيئة الله ومعوته أن يرحل الى أرض كنعان ، وهناك

استقر وبنى الله مذبحا وقدم عليه قربان

« ويذكر المؤرخ برسوس أبانا ابراهيم ولا يسميه حيث يقول انه في الجيل العاشر بعد الطوفان عاش بين الكلدانيين رجل صدق متبحر في العلوم السماوية .. وزاد المؤرخ هكتاتوس (١) على ذلك انه ألّف كتابا عنه ، وقال نقولا الدمشقي في الكتاب الرابع من تاريخه ان ابراميس (٢) حكم في دمشق وكان مغيرا قدم من أرض بابل من البلاد التي تسمى بلاد الكلدانيين ، ولم يمض عليه زمن طويل حتى هجرها وقومه الى أرض كنعان — وتسمى اليوم يهودا — وفيها ذريته الذين ساكّبت عنهم في كتاب آخر ، ولا يزال اسم ابرام مشهورا في إقليم دمشق حيث تسمى احدى القرى بمسكن ابرام

» ثم مضى زمن وأصاب كنعان القحط وسمع ابراهيم برخاء المصريين ، فاعتزم الهجرة الى مصر ليصيب من خيراتها ويسمع ما يقوله أحبارها في أمر الله ، وفي نفسه اذا علم من كلامهم ما هو خير مما عنده أن يتقبله ، أو يرى أن عقيدته خير مما عندهم فيدعوهم اليها

« وأخذ سارة معه ، وخاف ولع المصريين بالنساء وأن يغصبه عليها الملك ويقتله من أجلها لجمالها فأوصاها أن تقول انها أخته ، وحدث بعد وصوله الى مصر كل ما توقعه فتسامع الناس بجمال زوجته ولم يقنع فروائيس (٣) ملك المصريين بالسماع فهم بأخذها لولا ان الله أحبط جريمته بما فشا في مصر من الوباء والظلال ، ثم قرب الملك قرابينه ليعلم حقيقة البلاء فقال له الأحبار ان البلاء من غضب الله لأنه نوى في نفسه ان يغتصب امرأة رجل غريب ..

» ولما بلغ منه الرعب سأل سارة من هي ومن هو الرجل الذي جاءت به معها ، فاعتذر لابراهيم حين علم جلية الخبر وقال له انه لم يتعلق بها الا لظنه انها أخته لا زوجته ، وانما أراد أن يبنى بها ولم يرد أن

(١) عاش هكتاتوس في مصر في القرن الثالث قبل الميلاد

(٢) حسب الكتابة الاغريقية

(٣) يقصد فرعون

يغتصبها في نزوة من نزوات هواه ، ثم أغدق على ابراهيم ثروة جزيلة (١) .
 وطلق ابراهيم يباحث علماء مصر وتزداد شهرته بالعلم والفضيلة
 « ولما رأى ابراهيم ان المصريين متشبثون بعبادات شتى يخالف بعضهم
 بعضا من جرائها ويعادى بعضهم بعضا لأجلها جعل يناقشهم فيها كل فريق
 على حدة ويبدى لهم جميعا انها ليست على شىء من الحق ، ويحل بذلك
 منهم محل الاعجاب فيعلمون انه لم يكن على نصيب وافر من الفطنة
 وحسب ، بل كان كذلك عظيم القدرة على اقناع سامعيه في كل موضوع
 تناوله ببحثه ، وقد أطلعهم على علم الحساب وقوانين الفلك ، ولم يكن
 أحد من المصريين على علم بها قبل مقدم ابراهيم ، وانما جاءت من
 الكلدان الى مصر ثم من مصر الى الاغريق

« ثم قسم الأرض بينه وبين لوط بعد عودته الى أرض كنعان ، وكان
 رعائهم يتنازعون المرعى في مكان واحد ، فجعل لوطا يختار ما يشاء ورضى
 هو بما تركه له من منخفض الأرض في تابرو - حبرون - وهى أقدم
 من مدينة تانيس بسبع سنوات (٢)

« أما لوط فاختار السهل الى ناحية نهر الأردن غير بعيد من مدينة
 سدوم ، وكانت مدينة عامرة قضى الله عليها بالخراب لما سببته في موضعه
 « وكانت سدوم مزدهرة في العصر الذى سيطر فيه الاشوريون على
 آسيا ، وغزت ثروتها وتكاثر عدد شبابها وحكم أرضها خمسة ملوك هم
 بالاس وبالياس وسينابان وسنفر وملك البالان - كل منهم في اقليمه ،
 وزحف الاشوريون على هؤلاء الملوك الخمسة بعد أن قسموا جيوشهم
 الى أربعة أقسام يقود كل جيش منها قائد غير قواد الجيوش الأخرى ،
 ثم ضربوا عليهم الحصار ودارت المعركة بينهم وفرض الاشوريون جزية
 على الملوك السدوميين ، وخضع هؤلاء الملوك اثنتى عشرة سنة يؤدون
 الجزية التى فرضت عليهم ، ولكنهم ثاروا في السنة الثالثة عشرة فجرد

(١) فى موضع آخر من تاريخ يوسيفوس يذكر ان حاكما اغار على فلسطين واقناد سارة
 مع السبائيا
 (٢) يرجع تاريخ تانيس الى اكثر من ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد وكان الشائع في الفرن الاول
 للميلاد على غير ثقة ان حبرون بنيت سنة ٢٣٠٠ قبل الميلاد

عليهم الأشوريون جيشا بقيادة امرا بسيدس واريوخ وقدر لعومروثدال ،
وعاث هؤلاء في سورية جميعا وأخضعوا سلالة الجبارين ثم بلغوا سدوم
وعسكروا في الوادى المعروف بحفرة القار ، اذ كان الوادى كثير الحفر
حين كانت سدوم عامرة ، ثم امتلأت الحفر بالماء بعد تدميرها وأصبحت
بحيرة تسمى بالاسفلتية ، وسأعود الى خبر هذه البحيرة قريبا

« واشتبك السدوميون والأشوريون في قتال عنيف هلك فيه كثيرون
ووقع الباقون من السدوميين في الأسر ، وكان بين الأسرى لوط وقومه
لأنهم حالفوا السدوميين

« وسمع ابراهيم بالنكبة فداخله الخوف على قريبه لوط والاشفاق
على أصحابه وجيرانه السدوميين ، واعتزم التعجيل باقتادهم وخرج في
الليلة الخامسة فانقض على الأشوريين بالقرب من مدينة دان على احدى
شعبتى نهر الأردن وفاجأهم قبل أن يستعدوا بالسلاح ، وذبح بعضهم
وهم على فراشهم جاهلين بمصيرهم ، وهرب الآخرون الذين استلقوا على
الفراش سكارى ولما يستغرقوا فى الرقاد ، فجد ابراهيم فى اقتفاء أثرهم
حتى بلغ (أوبه) بأرض الدمشقيين ودل بذلك على ان النصر لايتوقف
على كثرة الأيدي وان الغيرة والصلابة تغلبان العدد الكثير ، لأنه انتصر
بثلاثمائة وثمانية عشر من عبيده وثلاثة من أصحابه على ذلك الجمع الكبير،
وأرسل بقيتهم ناجين بالخزى الى ديارهم

« ولما خلاص ابراهيم السدوميين ومعهم قريبه لوط عاد فى سلام ، ولقيه
ملك سدوم فى المكان المسمى بالوادى الملكى واستقبله هناك ملك سليمان
ملكى صادق ، ومعنى هذا الاسم الملك الصديق وهو اسم اشتهر به بين
الجميع فاختروه كاهنا لله ، وأصبحت سليمان هذه المكان الذى عرف
بعد ذلك باسم (اورشليم)

« ١٩. حب ملكى صادق بابراهيم ووسعه ومن معه فى ضيافته وجعل فى
أثناء اضيافته يثنى على ابراهيم ويحمد الله الذى أسلم أعداءه الى يديه ،
فقدم له ابراهيم عندئذ عشر الغنائم فقبل الهدية ، أما ملك سدوم فقد

رجا ابراهيم أن يستبقى له كل الغنائم ولم يطلب غير رعيته التي أسرها الأثوريون ، فأبى ابراهيم أن يأخذ شيئاً غير طعام عبيده ، ووهب بعض الغنائم لشركائه في القتال ، وأولهم اسخون والآخران عنر ومامبر

« ورضى الله عن هذه المأثرة منه وقال له : انه لن يضيع جزاءه على هذا العمل الطيب ، فأجاب ابراهيم : وأى شيء يسرنى من هذا الجزاء ان لم يكن لى وريث بعدى ؟ فأنبأه الله انه سيعقب ولدا تبلغ ذريته عدد النجوم فى كثرتها . فقرب ابراهيم الى الله قربانا حسب أمره عند سماعه بهذه البشرى ، وكان القربان على هذا النحو ، اذ أخذ عجلا ابن ثلاث سنوات وحملا ابن ثلاث سنوات كذلك ويمامة وحمامة ، وذبحها وشطر كلا منها شطرين ما عدا الطير ، وقبل أن يقام المذبح ، ولما تزل جوارح الطير تحوم على الذبائح ، متعطشة الدم ، سُمع صوت الهى يقول له : ان ذريته ستلقى الشر من جيرة مصر أربعمائة سنة ولكنهم بعد العذاب يغلبون عدوهم ويقهرون الكنعانيين فى القتال ويملكون أرضهم ومدائنهم ..

« وكان ابراهيم يعيش على مقربة من بلوطة عجيج ، غير بعيد فى أرض كنعان من مدينة الحبرونيين ، حيث أحزنه عقم زوجته فصلى لله كى يرزقه ولدا ذكرا وأمره الله أن يوقن من ذلك كما أيقن بالخير من طاعته لأمر الله الذى أمره بالهجرة من العراق

« وأحضرت سارة بأمر الله الى فراشه احدى جواربها المصريات المسماة هاجر عسى أن يرزق منها ذرية ، فلما حملت اجترأت على اهانة سارة واتخذت سمة الملكات كأنما تصير حوزة ابراهيم كلها الى ابنها الذى لم يولد ، فأسلمها ابراهيم الى سارة تؤدبها ، ولم تصبر هاجر على مذلتها فهربت ودعت الى الله أن يتولاها برحمته ، وبينما هى فى البرية ظهر لها ملك من عند الله وأمرها أن تعود الى سيدها وسيدتها ووعدها أن ترضى عن عيشها إذا هى غضت من كبريائها لأنها لقيت ما لقيته من جراء الاستطالة على مولاتها ، وانها ذا عصت أمر ربها هلكت ولكنها

إذا عادت الى البيت صارت أما لولد يملك تلك الأرض ، فأطاعت وعادت الى سيدها وسيدتها فسامحها ووضعت بعد قليل ولدا سمته اسماعيل أى المسموع من الله ، لأن الله استمع لصلاتها

« وكان ابراهيم قد بلغ السادسة والثمانين حين ولد له هذا الولد ، وبلغ التاسعة والتسعين حين تراءى له الرب وبشره بولد يرزقه من سارة ، آمرا له أن يسميه اسحاق وموحيا اليه أن أمما عظيمة وملوكا سيخرجون من نسله وأنهم يستولون بالحرب على أرض كنعان كلها من صيدا الى مصر ، وعليهم أن يختنوا لكيلا يختلطوا بالأمم الأخرى ، وأن يكون الختان فى اليوم الثانى بعد الولادة ، وسأين فيما بعد أسباب عادة الختان عندنا .. »

« وسأل ابراهيم عن اسماعيل هل يعيش ؟ فأنبأه الله انه سيعيش ويعمر ويصبح أبا لأمم عظيمة ، فشكر ابراهيم لربه هذه النعم ، واختن هو وآل بيته جميعا واسماعيل الذى كان يومئذ فى الثالثة عشرة ، وكان أبوه فى التاسعة والتسعين .. »

ثم مضى يوسف يروى قصة سدوم ، ونجاة لوط الى صغير التى سميت بذلك لصغرها ، وان بنتى لوط أشفقتا من هلاك الجنس البشرى فولدتا لأبيهما موآب ومعناها من الأب ، وعمان ومعناه ابن السلالة ، ومن ذريتهما أبناء سورية الشرقية والجنوبية

ثم روى يوسف مولد اسحاق وختانه فى اليوم الثامن ، وان العرب يؤجلون الختان الى السنة الثالثة عشرة كما اختن أبوهم اسماعيل ، وان سارة عادت فأصرت على اقضاء هاجر وابنها ، فخرجا الى البرية وكاد الغلام أن يموت عطشا تحت شجرة من أشجار التنوب لولا ان هدى الملك من الرب هاجر أمه الى ينبوع ماء قريب

قال يوسف يوسيفوس : ولما بلغ الصبى مبلغ الرجال زوجته أمه مصرية من قومها فولدت له اثنى عشر ولدا هم : نايوث ، وقدار ، وعبدئيل ، ومبسام ، ومشمع ، وادوم ، وماسم ، وقدم ، وتيمان ، وجثور ،

ونافس ، وقدماس ، واستولى هؤلاء على الأرض كلها من العراق الى البحر الأحمر وسموا بالنبتيين (النبطيين) وهم الذين سمي باسمهم جميع أمة العرب وقبائلها اكراما لشأنهم ولشهرة ابراهيم

ثم بنى ابراهيم بعد ذلك بقطورة وولد له منها ستة أبناء أقوياء على العمل سرعة في الفهم ، وهم : زمبران وجزار ومدان ومديان ولوشباق وسوس .. فأرسلهم ابراهيم وأبناءهم يلتمسون لهم منازل على التروجلوديتس (١) Troglodytis وفي بلاد العربية السعيدة التي تمتد الى البحر الأحمر ، ويقال ان افرون بن مدان جرد حملة على لوييا واحتلها وان أبناء أبنائه أقاموا هناك وسموا الأرض باسم افريقيا

ثم ختم يوسفوس قصة ابراهيم نبياً وفاته

وقال : ان اسحاق واسماعيل دفناه الى جوار سارة في مقبرة حبرون ، وكان قد روى في ختام قصة سارة ان الكنعانيين تبرعوا بدفنها على النفقة العامة ، ولكن ابراهيم اشترى المدفن من اخرايم بأربعمائة مثقال

٢ - ابن العبري

واذا كان يوسفوس مثلاً للمؤرخ القديم من الوجهة الاسرائيلية فابن العبري أبو الفرج بن هرون صاحب مختصر الدول المتوفى سنة ١٢٨٦ قد يكون المثل الوحيد للمؤرخ القديم من الوجهة المسيحية في هذا الموضوع لأنه امام من أئمة الكنيسة السريانية التي ينتشر أتباعها في مواطن ابراهيم ويحفظون أخباره التقليدية منذ القرن الأول للميلاد

قال في كلامه عن دولة الأولياء - أي الآباء - في بني اسرائيل :

« ومن أئمتنا باسليوس وافريم يزعمان ان من آدم الى عابر هذا كانت لغة الناس واحدة وهي السريانية ، وبها كلم الله آدم

« وتنقسم الى ثلاث لغات : أفصحها الآرامية وهي لغة أهل الرها وحران والشام الخارجة وبعدها الفلسطينية وهي لغة أهل دمشق وجبل

لبنان وباقي الشام الداخلة ، واسسها الكلدانية النبطية وهي لغة أهل جبال آشور (آشور) وسواد العراق . ويعقوب الرهاوي يقول ان اللغة لم تزل عبرية الى أن تبلبلت الألسن ببابل
 « وفالغ بن عامر ولد له ارعو وعمره على الراى السبعينى (١) مائة وثلاثون سنة وعلى راى اليهود ثلاثون سنة ، وجميع أيامه ثلثمائة وثلاث وأربعون سنة ..

« فى سنة مائة وأربعين لفالغ فلغت الأرض أى قسمت قسمة ثانية بين ولد نوح . فصار لبني سام وسط المعمورة فلسطين والشام آشور وسامرة وبابل وفارس والحجاز ، ولبنى حام التيمن كله أى الجنوب : افريقية والزنج ومصر والنوبة والحبشة والسند والهند ، ولبنى يافث الجربيا أى الشمال : الأندلس والأفرنجة وبلاد اليونانيين والصقالبة والبلغار والترک والأرمن . وبعد وفاة فالغ ثارت الفتن بين بنيه وبين بنى يقطان أخيه ، وشرع الناس فى تشييد الحصون

« وأرعو بن فالغ ولد له ساروغ وعمره على الراى السبعينى مائة واثنان وثلاثون ، وعلى راى اليهود اثنتان وثلاثون سنة ، وجميع أيامه ثلثمائة وتسع وثلاثون سنة

« وفى سبعين سنة لأرعو قال الناس بعضهم لبعض : هلموا نضرب لبنا ونحرق آجرا وبنى صرحا شامخا فى علو السماء ، ويكون لنا ذكر كى لا تتبدد على وجه الأرض ، فلما جدوا فى ذلك بأرض شنعار وهى السامرة ونمرود بن كوش قات رافعى الصرح بصيده - أى جلب لهم القوت - وهو أول ملك قام بأرض بابل ، وهو الذى رأى شبه اكليل فى السماء واتخذ مثله ووضع على رأسه فقبل ان اكليله نزل من السماء .. قال الله تعالى : هذا ابتداء عملهم ولا يعجزون عن شىء يهتمون به ، سوف أفرق لغاتهم لئلا يعرف أحدهم مايقول الآخر. فبدد الله شملهم على وجه الأرض، وأرسل رياحا عاصفة فهدمت الصرح ومات فيه نمرود الجبار وتبلبلت

(١) ترجمة النوراة المرونة بالترجمة السبعينية لاشترك اثنين وسبعين مترجما فى نقلها الى اليونانية

لغات الآدميين ، ولذلك دعى اسم ذلك الموضع بابل .. وبني نمرود ثلاث مدن : ارخ وخلييا - أى الرها ونصيبين - والمدائن

« وساروغ بن ارغو ولد له ناحور وعمره على الرأى السبعينى تسع وسبعون سنة وعلى رأى اليهود تسع وعشرون سنة ، وجميع أيامه مائتان وسنة واحدة ، وفى خمس وعشرين سنة من عمره كان جهاد أيوب الصديق على رأى أروذ الكنعانى ، وبني ارمونيس ملك كنعان سدوم وغامورا على اسم ولديه ، ومدينة صاعر على اسم أمهما

« وترح بن ناحور ولد له ابراهيم وعمره على الرأين جميعا سبعون سنة ، وجميع أيامه مائتان وخمس وسبعون سنة ، ومات بمدينة حران ، وبني مورفوس ملك فلسطين مدينة دمشق قبل ميلاد ابراهيم بعشرين سنة ، ويوسيفوس يقول ان عوص بن آرام بناها ، ومن ها هنا يتفق التاريخان السبعينى والعبرانى

« وابراهيم بن ترح ولد له اسحاق وعمره مائة سنة ، وجميع أيامه مائة وخمس وسبعون سنة ، ولما أنت عليه خمس عشرة سنة استجاب له الله فى العقاقع - أى الطيور - التى كانت تفسد فى أرض الكلدانيين وتسحق رروعهم .. وأحرق ابراهيم هيكل الأصنام بقربة الكلدانيين ودخل هاران أخوه ليطفىء النار فاحترق ، ولذلك فر ابراهيم وعمره ستون سنة مع أبيه ترح ، وناحور أخيه ، ولوط بن هاران أخيه المحترق ، الى مدينة جران وسكنها أربع عشرة سنة

« ثم خاطبه الله قائلا : انتقل عن هذه الديار التى هى ديار آبائك الى حيث أمرك . فأخذ سارة امرأته ولوط ابن أخيه وصعد الى أرض كنعان وحارب ملوك كدراعمر وقهرهم . وفى عوده من المحاربة اجتمع بملكيزدق الكاهن الأعظم وخر لوجهه بين يديه وأعطاه عشرا من السلب وباركه ملكيزدق ..

« وفى سنة خمس وثمانين من عمره وعده الله أن يجعل نسله كعدد الكواكب فى السماء ، وذريته كرمل البحار ، فوثق ابراهيم بالله حق الثقة .

وفي هذه السنة دخل الى مصر ووشى بحسن سارة امرأته الى فرعون فسأل ابراهيم عنها ، فقال : هي أختى من أبى لا من أمى . ولم يكذب بقوله هذا لأنها كانت ابنة عمه ، فأقام جدهما مقام أبيهما

« فاحتازها فرعون الى نفسه مختليا حتى تحقق انها زوجته فردّها اليه مع هدايا جزيلة ، من جعلتها هاجر المصرية أمة سارة ، وتقدم اليه بالانتزاع من بلده خوفا من أن يهجس في صدره هاجس سوء ثانيا

« ولأنه لم يكن لابراهيم ولد من امرأته سارة سمحت بجارتها هاجر فوطئها ابراهيم وولدت له اسماعيل ، واستهانت هاجر بسارة مولاتها شامخة عليها بسبب ولدها فأزاحتها سارة من عندها الى القفر بغيظة منها . فترأى ملك الرب لهاجر قائلا : لا تياسى من رحمة ربك ، فان الله قد بارك على الصبى حين خاطب أباه ابراهيم ، وكان خاتمة البركة باللغة السريانية هكذا : وأكبرته طب وأعظمته جدا جدا

« أقول قد اتفق في هذه الألفاظ سر عجيب لاح في عصرنا وهو أنا اذا جمعنا حروفها بحساب الجمل كان الحاصل ستمائة وستا وخمسين سنة ، وهى المدة من الهجرة الى السنة التى قتل فيها آخر الخلفاء العباسيين وزوال الملك المعظم جدا عن آل اسماعيل

وبعد مائة سنة مضت من عمر ابراهيم ولد له اسحاق من سارة ، ولما حصل لاسحاق تسع عشرة سنة أصعده ابراهيم لجبل نابو ليضحى به ضحية لله تعالى ، ففداه الله بحمل مأخوذ من الشجرة وأنقذه ..

« والحمل مثال لسيدنا يسوع المسيح له المجد الذى فدى العالم بنفسه ، ولذلك قال فى انجيله المقدس : ان ابراهيم كان يرجو أن يشاهد يومى ، فشاهد وسر . وقيل فى تلك السنة أتم ملكيزدق بناء أورشليم « وفى ثمانى وثلاثين سنة من عمر اسحاق درجت سارة أمه وعمرها

مائة وسبع وعشرون سنة ، وتزوج ابراهيم قنظورا ابنة ملك الترك « ولما بلغ اسحاق أربعين سنة نزل اليعازر - وليد بيت ابراهيم - الى حران وجاء برفقا زوجة اسحاق ، ولما توفى ابراهيم دفن الى جانب

قبر سارة زوجته في المغارة المضاعفة التي ابتاعها من عفرون الحيثاني
خوفا من عود الطوفان ..

٣ - أبو الفداء

ونختار أبا الفداء من المؤرخين الاسلاميين ، لأنه كتب في القرن الثامن
واعتمد على كبار المؤرخين الموسوعيين من قبله ، وقضى أيامه على صلة
بأقطار العراق العليا و « أشور » القديمة وعلى علم بمراجع أصحاب
السير فيها ، فليس أقدر منه على تلخيص تاريخ ابراهيم والتعقيب عليه
من مصادره في زمنه ..

قال عن ابراهيم عليه السلام :

« هو ابراهيم بن تارح ، وهو آزر بن ناحور بن ساروخ بن رعو بن
فالخ بن عابر بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح . وقد اسقط ذكر
قينان بن أرفخشذ من عمود النسب ، قيل بسبب أنه كان ساحرا فأسقطوه
من الذكر ، وقالوا شالح بن أرفخشذ وهو بالحقيقة شالح بن قينان بن
أرفخشذ فاعلم ذلك ..

« وولد ابراهيم بالأهواز ، وقيل ببابل . وهي العراق . وكان آزر
أبو ابراهيم يصنع الأصنام ويعطيها ابراهيم لبييعها . فكان ابراهيم يقول :
من يشتري ما يضره ولا ينفعه ! .. ثم لما أمر الله ابراهيم أن يدعو قومه
الى التوحيد دعا أباه فلم يجبه ، ودعا قومه فلما فشا أمره واتصل بنمرود
ابن كوش - وهو ملك تلك البلاد . وكان نمرود عاملا على سواد العراق
وما اتصل به للضحك . وقيل بل كان نمرود ملكا مستقلا برأسه - فأخذ
نمرود ابراهيم الخليل ورماه في نار عظيمة فكانت النار عليه بردا وسلاما
وخرج ابراهيم من النار بعد أيام ، ثم آمن به رجال من قومه على خوف
من نمرود ، وآمنت به سارة وهي ابنة عمه هاران

ثم ان ابراهيم ومن آمن معه وأباد على كفره فارقوا قومهم وهاجروا
الى حران وأقاموا بها مدة ، ثم سار ابراهيم الى مصر وصاحبها فرعون ،

قيل كان اسمه سنان بن علوان ، وقيل طوليس فذكر جمال سارة لفرعون . وهو طوليس المذكور - فأحضر سارة اليه وسأل ابراهيم عنها فقال : هذه أختي ، يعنى فى الاسلام . فهم فرعون المذكور بها فأبىس الله يديه ورجليه ، فلما تخلى عنها أطلقه الله تعالى ، ثم هم بها فجرى له . كذلك ، فأطلق سارة وقال : لا ينبغي لهذه أن تخدم نفسها ، ووهبها هاجر جارية لها ، فأخذتها وجاءت الى ابراهيم ، ثم سار ابراهيم من مصر الى الشام ، فأقام بين الرملة وايليا ، وكانت سارة لا تلد ، فوهبت ابراهيم هاجر ، وواقعها ابراهيم فولدت اسماعيل ، ومعنى ابراهيم بالعبرانى مطيع الله « وكانت ولادة اسماعيل لمضى ست وثمانين سنة من عمر ابراهيم ، فحزنت سارة لذلك فوهبها الله اسحاق ، وولده سارة ولها تسعون سنة . ثم غارت سارة من هاجر وابنها اسماعيل ، وقالت : ابن الأمة لا يرث مع ابني ، وطلبت من ابراهيم أن يخرجهما عنها ، فأخذ ابراهيم هاجر وابنها وسار بهما الى الحجاز وتركهما بسكة .. وبقي اسماعيل بها وتزوج من جرهم امرأة ..

« وماتت هاجر بمكة ، وقدم اليه أبوه ابراهيم وبنا الكعبة ، وهى بيت الله الحرام ، ثم أمر الله ابراهيم أن يذبح ولده ، وقد اختلف فى الذبيح هل هو اسحاق أم اسماعيل ، وفداه الله بكبش « وكان ابراهيم فى أواخر أيام بيوراسب المسمى بالضحاك ، وفى أوائل ملك افريدون ، وكان النمرود عاملا له حسب ما ذكرناه

« وكان لابراهيم اخوان وهما : هاران وناحور : ولدا آزر « فهاران أولد لوطا ، وأما ناحور فأولد بتويل ، وبتويل أولد لابان ولابان أولد ليا وراحيل زوجتى يعقوب . ومن يزعم ان الذبيح اسحاق يقول كان موضع الذبيح بالشام على ميلين من ايليا ، وهى بيت المقدس . ومن يقول انه اسماعيل يقول ان ذلك كان بمكة « وقد اختلف فى الأمور التى ابتلى الله ابراهيم بها ، فقيل هى هجرته عن وطنه ، والختان ، وذبح ابنه ، وقيل غير ذلك

« وفي أيام إبراهيم توفيت زوجته سارة بعد وفاة هاجر ، وفي ذلك خلاف ، وتزوج إبراهيم بعد موت سارة امرأة من الكنعانيين ، وولدت من إبراهيم ستة نفر ، وكان جملة أولاد إبراهيم ثمانية : اسماعيل واسحاق ، وستة من الكنعانية على خلاف في ذلك .. »

ثم انتقل المؤرخ الى سيرة اسماعيل واسحاق ، فقال عن اسماعيل .. « انه ولد لابراهيم لما كان لابراهيم من العمر ست وثلاثون سنة ، ولما صار لاسماعيل ثلاث عشرة سنة تطهر هو وابراهيم ، ولما صار لابراهيم مائة سنة وولد له اسحاق أخرج اسماعيل وأمه هاجر الى مكة بسبب غيرة سارة منها ، وقولها : أخرج اسماعيل وأمه . لأن ابن الأمة لا يرث مع ابني . وسكن مكة مع اسماعيل من العرب قبائل جرهم ، وكانوا قبله بالقرب من مكة . فلما سكنها اسماعيل اختلطوا به ، وتزوج اسماعيل امرأة من جرهم ورزق منها اثني عشر ولدا . ولما أمر الله تعالى ابراهيم عليه الصلاة والسلام ببناء الكعبة - وهو البيت الحرام - سار من الشام وقدم على ابنه اسماعيل بكفة ، وقال : يا اسماعيل ! ان الله تعالى أمرني أن أبني له بيتا ، فقال اسماعيل : أطع ربك . فقال ابراهيم : وقد أمرك أن تعينني عليه . قال : اذن افعل .. فقام اسماعيل معه وجعل ابراهيم يبيئه واسماعيل يناوله الحجارة ، وكانا كلما بنيا دعوا فقالا : ربنا تقبل منا .. انك أنت السميع العليم ، وكان وقوف ابراهيم على حجر وهو يبنى ، وذلك الموضع هو مقام ابراهيم ، واستمر البيت على ما بناه ابراهيم الى أن هدمته قريش سنة خمس وثلاثين من مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان بناء الكعبة بعد مضي مائة سنة من عمر ابراهيم بمدة ، فيكون بالتقريب بين ذلك وبين الهجرة ألفان وسبعمائة ونحو ثلاث وتسعين سنة »

« وأرسل الله اسماعيل الى قبائل اليمن ، والى العماليق ، وزوج اسماعيل ابنته من ابن أخيه العيص (١) بن اسحاق ، وعاش اسماعيل مائة وسبعا

(١) هو عيسو في لغة التوراة

وثلاثين سنة ومات بمكة ودفن عند قبر أمه هاجر بالحجر ، وكانت وفاة
اسماعيل بعد وفاة أبيه ابراهيم بثمان وأربعين سنة .. «
ثم قال المؤرخ بعد أن استطرذ الى سيرة موسى الكليم : « وكان مولد
موسى لمضى أربعمائة وخمس وعشرين سنة .. الى أن قال عن خراب بيت
المقدس سنة عشرين من ولاية بختنصر تقريبا ، وهي السنة التاسعة
والتسعون بعد التسعمائة لوفاة موسى .. »

تذييل

الى هنا انتهت المصادر الدينية ومراجع التاريخ القديم التي رويت فيها سيرة الخليل ابراهيم

وهذه المراجع هي الأساس الذي يقوم عليه كل ما تجده في العصر الحديث من أخبار الحفريات الأثرية وتعليقات المؤرخين عليها ومن الواجب أن نعرف مبلغ قوة هذا الأساس قبل أن ننتقل منه الى البناء الذي يرتفع عليه

ففي تقديرنا ان هذا الأساس اليوم أقوى مما كان عليه عند المؤرخين العلميين قبل القرن العشرين

فقد كانت البدعة الشائعة في القرن الماضي ان التواريخ الدينية لا تصلح أن تكون أساسا للتواريخ العلمية

وكان يكفي أن تروى الحادثة وتنسب الى سبب خارق للطبيعة ليقول المؤرخون العلميون انها لم تحدث ولا يعقل ان تحدث ، ولا يقنعوا بالشك في السبب ومحاولة البحث عن سبب آخر داخل في التعليلات الطبيعية ..

وكان يكفي أن يقال ان نيبا من الأنبياء عاش ثلاثمائة سنة أو نحوها ليقال انه لم يوجد قط فضلا عن أن يكون قد وجد وقد عاش أقل من عمره المذكور ..

كل هذا قد تغير في معيار البحث الحديث أو وجب أن يتغير ، لأنه مناقض للعلم نفسه ، عدا ما هو ظاهر من مناقضته للدين

فقد ثبت اليوم ان الأخبار الدينية سبقت المباحث الحفرية والمقارنات

العلمية الى تقرير أحكام التاريخ التي صحت في رأى المتأخرين
بالبراهين الحديثة ..

ومن أمثلة ذلك وحدة الأجناس السامية في نشأتها ، فان العلماء
العصريين قد عرفوا هذه الوحدة من المقارنة بين اللغات ، ومن الدراسات
الأخيرة في علم السلالات البشرية ، ومن تفسير الكتابة على الآثار
المطمورة والهيكل المهجورة

وهذه الدراسات جميعا من مستحدثات الزمن الأخير ، لم يستخرج
منها العلماء دليلا موثوقا به قبل مائة سنة

فاذا احترم العالم حكمه وتقديره وجب أن يفهم ان كلام الأمم السامية
عن وحدة أصولها يستند ولا شك الى أصل عريق وسند وثيق ، لأنها
تكلمت عن هذه الوحدة وهى لا تعرف شيئا من مقارنات اللغات والأحافير
ولم يكن فى وسعها أن تعرف شيئا عنها قبل ألوف السنين
فمن أين جاء لتلك الأمم انها سلالة أصل واحد ان لم يكن لها مرجع
تعول عليه ولا يجوز للعلم رفضه واسقاطه من الحساب ؟

كذلك شاعت فى القرن الماضى بدعة العلم - أو أدعاء العلم - الذين
رفضوا كل خبر له علاقة بالمعجزات وخوارق الطبيعة
فاذا قال قائل ان هذه المدينة دمرها الله لفسادها وعدوانها على أنبيائه
أسرع أولئك الأدعاء فأبطلوا القصة كلها وقالوا : انه لا مدينة ولا فساد
ولا أنبياء ، وان الأمر كله حديث خرافة أو تلفيق خيال ..

فاليوم قد ثبتت وقائع لا شك فيها من تواريخ تلك المدن التى تواترت
الأنبياء الدينية بتدميرها فى الزمن القديم

وقد تتابع التنقيب فى وادى الأردن وشواطئ البحر الأحمر ورمال
الأحقاف من جنوب بلاد العرب ، فظهر من الأحافير انها كانت بلاد زلازل
وأغوار وعوارض جوية تطابق ما وصفته الكتب الدينية من أحوال
عمارها وأحوال خرابها ، وان الزمن الذى وقعت فيه نكباتها قريب من
الزمن المقدور لقيام الأنبياء فيها ، ولم ينحصر الأمر فى دلالات الكوارث

الطبيعية كالزلازل والأعاصير ، بل جاءت الدلالات الاجتماعية مصححة موضحة تعلم الباحثين الاناة والرصانة قبل التعجل بالرفض والانكار فلم يكن أبناء الشواطىء على البحر الاحمر يعلمون شيئاً عن التواريخ التى كتبت بالاغريقية واللاتينية ثم اندثرت فى القرون الوسطى وظلت مندثرة الى أن تجددت وانتشرت بين الأوربيين والمطلعين على اللغات الأوربية فى العصر الحديث

ولكن القدماء على شواطىء البحر الأحمر تحدثوا عن المدن التى كانت تحبكر التجارة وتماكس^(١) وتبالغ فى اضافة الأرباح والأتاوات ، ولم تأت هذه الأخبار من المراجع الاغريقية أو اللاتينية بطبيعة الحال ، فلا بد من الاعتراف لها بمرجع معول عليه ، وليس من الجائز أن يتعجل العالم الأمين بالشك فيه ..

ومن أمثلة هذه الأخبار مثل الهزيمة التى حلت بأبرهة الأشرم صاحب الفيل الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم ، وان جيشه هلك بالطير الأبايل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، وقال أبو عبد الله عكرمة مولى عبد الله ابن عباس انهم أصيبوا بالجدرى (وان من أصابته الحجره ، جدرته) فهذا الخبر عن الجدرى قد أيده من لم يرد تأييده من مؤرخى اليونان رومان ، فقد ذكر الوزير برکوب Procobe من أبناء القسطنطينية ان رض الجدرى ظهر فى مصر عند منتصف القرن السادس قبل الميلاد ، وروى بروس Bruce الذى زار بلاد الحبشة فى القرن الثامن عشر أن الأحباش يذكرون فى تواريخهم كيف ارتد ابرهة وانه رجع عن مكة لما أصاب جيشه من المرض الذى يصفونه بصفة الجدرى ، وكتب غير واحد من مؤرخى اليونان ان ابرهة زحف على مكة فى مركبة يجرها أربعة من افيلة وان جيشه لم يعد منه الا القليل لكثرة من مات منه بالوباء فأيسر ما يفهمه العالم الأمين من هذا وأشباهه أن المصادر القديمة قائمة على أساس لا يجوز اهماله ، وان المستقبل خليق أن يفسر منه أكثر مما فسرناه حتى اليوم

(١) تماكس : ماكس المشتري البائع : جادله وطلب منه حط الثمن .

وقد تمحّصت مسألة الأعمار الطوال ووضعت في مواضعها من الدراسة التاريخية فليس فيها ما يعترض الباحث في تاريخ قديم أو تاريخ حديث وهذه المسألة - أى مسألة الأعمار - قد نوقشت كثيرا قبل القرن العشرين ، وتساءل المتناقشون فيها : هل حساب السنين واحد بين الأوائل والأواخر ، أو هما حسابان مختلفان ؟

وضربوا لذلك مثلا بأيام الخليفة ، فان خلق العالم في ستة أيام يعنى أياما غير الأيام التى تحسب بطلوع الشمس وغروبها ، لأن الشمس خلقت في اليوم الرابع ، فلا بد أن يكون معنى الأيام انها أدوار لا تحسب بالشروق والغروب

وتقرر ان الأوائل كانوا يحسبون للسنة رأسين : رأس السنة الزراعية ورأس السنة الديوانية ، فربما اجتمع في العام الواحد رأسان للسنة على هذا الحساب ..

وظن بعضهم ان حساب السنين كحساب الأهلة عند الأوائل ، ومن هؤلاء أبو العلاء المعرى حيث يقول :

ورأيت الحمام يأتى على العا	لم من قاهر ومن مقهور
وادعوا للمعمرين أمورا	لست أدري ماهن في المشهور
أتراهم فيما تقضى من الأيا	م عدوا سنينهم بالشهور
كلما لاح للعيون هلال	كان حولا لديهم في الدهور

وليس هذا الظن بالصواب ، لأن الأوائل كانوا يعرفون حساب الأهلة وحساب الشمس منذ عهد بعيد يرجع الى ما قبل التاريخ واجتهد بعضهم فقال ان الأعمار المقدرة هنا هى أعمار العشائر والدعوات النبوية ، وكثيرا ما يجرى الحديث حتى اليوم باسم رأس العشيرة ويكون المقصود هو العشيرة كلها ، أو يقال ابن الشرق وابن الغرب وابن اوربة وابن أمريكا ، والمقصود هنا هو العشائر بأجمعها وتوافق على هذه المذاهب من التأويل اناس من كل ديانة كتابية ، فليست هى مقصورة على المسلمين ولا على المسيحيين ولا على اليهود ،

بل يشترك فيها أصحاب الفقه من جميع الأديان ونحن هنا لا حاجة بنا الى الفصل في هذه التأويلات ، وانما أردنا بتحصيلها ووضعها في مواضعها ان الاتفاق تام بين أصحابها جميعا على أمرين :

« أولا » ان تقدير الأعمار في كتب العهد القديم يزداد كلما تباعد الزمن بين رواة الخبر وبين عصور المعمرين الذين تحسب أعمارهم ، فكلما صغرت المسافة بين الزمنين كان التقدير أقرب الى العمر المؤلف .

ف عند كتابة العهد القديم كان قد انقضى على عهد موسى عليه السلام نحو سبعة قرون ، وانقضى على عهد ابراهيم عليه السلام نحو احد عشر قرنا ، فحسب عمر موسى مائة وعشرين سنة ، وعمر ابراهيم مائة وخمس وسبعين سنة ، ويزداد التقدير الى أكثر من ذلك كلما أوغل الزمن في القدم الى ما قبل التاريخ

فبهذه القاعدة أصبح تقدير الأعمار مساعدا على تقرير وقت الكتابة وتقرير الفترات بين العهود ، فلم يبطل حساب المراجع القديمة بهذا الاختلاف بين الأوائل والأواخر في حساب الأعمار الطوال ، بل جاء فيه ما يساعد على الموازنة والقياس

و « ثانيا » يلاحظ ان حساب العهود بيننا وبين الأوائل لا يختلف كما يختلف حساب الأعمار ، فابن الأثير مثلا يقول اعتمادا على مصادره . جميعا ان عهد ابراهيم مضى عليه ألفان وسبعمائة ونحو ثلاث وتسعين سنة قبل الهجرة المحمدية ، وهذه التقديرات لا تطيل العهود والفترات بينها بنسبة الطول في أعمار الأفراد المعمرين ، فان هذا الحساب قريب من حساب علماء الأحافير وطبقات الأرض الذين يقيسون الفترات بمقياس تكوين الطبقات وتتابع الظواهر الجيولوجية ، وسيأتى فيما بعد أن التفاوت بين تقديرات علماء الأحافير أنفسهم لا يقل عن التفاوت بين تقدير ابن الأثير على حسب مصادره وبين تقديرات هؤلاء العلماء مجتمعين وأيا كان مقطع الرأى في هذه المسائل جميعا فليس من أمانة التاريخ

أن يستند إليها أحد في نفي الأخبار المتواترة ، ولا سيما أخبار اليهود والدعوات ، ولا تزال الأسانيد الأولى أساسا قويا لتواريخ الأمم ، ترجح فيه دلائل الثبوت على دلائل البطلان

وبهذا الوزن تنتقل من المصادر الأثرية الى ما بعدها ، ونعتمد على هذا الأساس ثم لا يمنعنا هذا الاعتماد أن نفرق بين الأسانيد في درجة القبول وميزان الترجيح ..

ولا تنتقل من الكلام عن المصادر الأثرية في جملتها حتى نضيف إليها مصدرا يستمد قوته من السكوت ولا يستمدتها من البيان والايضاح فلا يخفى ان السكوت المتعمد يدل على كثير ، وربما كان في ميزان الصدق أدل من الكلام الذى يتعرض للتورية والمحال

فاذا علمنا من بعض التواريخ انها تسكت عمدا عن بعض الأمور فقد علمنا شيئا صحيحا يبين لنا تلك الأمور المسكوت عنها ، وبخاصة حين نعلم سبب السكوت

لقد سككت مصادر اليهود عن حالة العرب الدينية كل السكوت ، وترجع هذه المصادر الى القرن السابع قبل الميلاد

وقد تعمدت هذه المصادر أن تخرج ابناء اسماعيل من حقوق الوعد الذى تلقاه ابراهيم من الله ، وقالت ان هذا الوعد انما هو حق لأبناء ابراهيم من سلالة اسحاق

ان انتساب العرب اذن الى اسماعيل قد كان تاريخا مقمرا لا سبيل الى انكاره عند كتابة المصادر اليهودية التى حصرت النعمة الموعودة في أبناء اسحاق ..

ولو لم يكن انتساب العرب الى اسماعيل بن ابراهيم تاريخا مقمرا في ذلك العصر - عصر كتابة المصادر اليهودية الأولى - لما كانت بهم حاجة الى التمييز بين أبناء اسحاق وأبناء اسماعيل . اذ كان يكفى أن يقال ان النعمة الموعودة من نصيب أبناء ابراهيم عامة ليخرج من هذا الوعد من لم يكن من اليهود الذين لا ينازعهم أحد في الانتساب الى ابراهيم

لكن انتساب العرب الى ابراهيم كان تاريخيا مقفرا كما هو واضح مما تقدم ، فلم يكن في الوسع انكاره ، ولم يكن ثمة مناص من التفرقة بين أبناء ابراهيم من سلالة اسماعيل وأبناء ابراهيم من سلالة اسحاق وأكثر من ذلك ان كهان اليهود كانوا يحسون من العرب منافسة دينية فضلا عن المنافسة الدنيوية ، فلو لم يكن للعرب حياة دينية يخشى الكهان منافستها لكان يكفيهم أن يحصروا وعد ابراهيم في آبائهم المؤمنين دون آبائهم الوثنيين الذين لا يعرفون الله الواحد الأحد ، فيخرج العرب بهذا الاستثناء من وراثة ابراهيم الروحية ، ولا تدعو الحاجة الى أكثر من ذلك الاستثناء ..

ولا شيء غير خطر المنافسة في النسب وخطر المنافسة في العقيدة الدينية يلجئ الكهان الى حصر النعمة الموعودة في أبناء اسحاق دون أبناء ابراهيم وقد لوحظ ان الكهان يحصرون النسب شيئا فشيئا كلما أحسوا بخطر المنافسة على سلطانهم وسلطان هيكلهم على الخصوص فخصصوا أبناء يعقوب بعد أن كان الوعد عاما شاملا لأبناء اسحاق أجمعين ، وقالوا ان الاسرائيليين هم أبناء يعقوب دون غيره ، واسرائيل هو لقب يعقوب

ثم انقسمت دولة اليهود الى دوتة في الشمال تسمى مملكة اسرائيل ودولة في الجنوب تسمى مملكة يهودا ، فقال كهان الهيكل ان النعمة الموعودة محصورة في أبناء داود

وقبل ذلك بزمن طويل كان اللاويون يحصرون الرياسة الدينية فيهم دون غيرهم ، لأنهم يقولون ان اللاويين قبيلة موسى الكليم فاستثناء أبناء اسماعيل لم يحصل عبثا منذ القرن السابع قبل الميلاد على الأقل ، ولا بد من منافسة دينية ودنيوية دعت الى هذا الاستثناء ، والى السكوت عن الحالة الدينية التي تخشى منها المنافسة ويشعر بها الكهان ولعل المنافسة في الحقيقة كانت بين الايمان بـ « يهوا » والايمان بالايال أو الاله ، فان العرب الأقدمين لم يذكروا « يهوا » قط بين أربابهم ، وانما

ذكروا الايل والاله والله تعالى ، وكان اليهود يعبدون الايل كما يعبد
العرب ، ومن ذلك تسمية اسماعيل واسرائيل وبتوثيل . فلما تشابه
النسب بالانتماء الى ابراهيم ، وتشابهت العبادة بالاتفاق على اسم الاله ،
جدت الرغبة بالكهان في الاستئثار من جهة والاستثناء من جهة أخرى ،
فحصروا النعمة الموعودة في أبناء اسحاق ثم في أبناء يعقوب ، ثم في أبناء
داود ، جريا على عاداتهم المطردة في أمثال هذه الأحوال

ومهما يكن من أمر: هذا التاريخ المسكوت عنه فوجود النسبة إلى
اسماعيل قديم لم تكن فيه حيلة لليهود ولا للعرب
فلو أراد العرب أن يخترعوا لما اخترعوا نسبة ينتمون بها الى جارية ،
وتخص غيرهم بالانتماء الى الصيدة المختارة
ولو كان في وسع اليهود أن يخشكروا النسب الى ابراهيم لما ذكروا
شيئا عن نسبة غيرهم اليه ..

فالانتساب الى ابراهيم لم يكن مسألة اختراع واختيار ، ولكنه كان
مسألة تاريخ مقرر لابد من البحث فيه على هذا الأساس ، ومن هنا قيمته
التاريخية التي نضيفها الى الأسانيد القوية في سيرة الخليل .

ويقضى استيفاء البحث في الأخبار المسكوت عنها أن نشير هنا الى
المراجع التي ذكرتها كتب العهد القديم ولم يبق لها أثر بن هذه الكتب
ولا بين غيرها من المراجع الاسرائيلية

فليست الكتب التي ضمت الى العهد القديم هي كل كتب التوراة
المعترف بها ، لأن الكتب التي جرى الاستشهاد بها على السنة الأنبياء
من بنى اسرائيل لم توجد كلها بين أسفار التوراة ، كما هو واضح من
الشواهد الكثيرة التي نلم ببعضها في هذا السياق

ففي ختام كتاب الأيام الأول يقول الكاتب : « وأمور داود الملك
الأولى والأخيرة هي مكتوبة في سفر أخبار صموئيل الرائي وأخبار
ناثان النبي وأخبار اسرائيل وأخبار جاد الرائي ، مع كل ملكه وجبروته
والأوقات التي عبرت عليه وعلى اسرائيل وعلى كل ممالك الأرض »

فهناك على هذا كتب تاريخية لم توضع بين كتب العهد القديم ، لأن كتاب صموئيل موجود بينها ، ولا يوجد بينها كتاب للنبي ناثان ولا للرأى جاد ..

وفي الاصحاح التاسع من كتاب أخبار الأيام الثانى ان « بقية أمور سليمان الأولى والأخيرة اما هى مكتوبة فى أخبار ناثان النبى ، وفى نبوة اخيا الشيلونى وفى رؤى يعدو الرئائى على يربعام بن نباط »

وقد تقدم ان كتاب ناثان غير موجود ، وكذلك نبوة اخيا الشيلونى ورؤى يعدو الرئائى ، فانهما غير موجودين على افراد أو على اتصال بغيرهما من الكتب المعروفة

وفي الاصحاح الرابع عشر من كتاب الملوك الأول : « واما بقية أمور يربعام كيف حارب وكيف ملك فإنها مكتوبة فى سفر أخبار الأيام لملوك اسرائيل » .. وجاء فى الاصحاح السادس عشر من كتاب الملوك الأول : « ان بقية أمور يعشبا وما عمل وجبروته ، اما هى مكتوبة فى سفر أخبار الأيام لملوك اسرائيل ا » ..

وليس فى كتاب الملوك شىء عن هذه الأمور ، ولا عن أمور تاريخية أخرى وردت الاشارة اليها مردودة الى نحو ثلاثين كتابا لم يبق منها أثر محفوظ ..

ومن هذه الأمور ما هو منسوب الى الاله كما جاء فى الاصحاح الحادى والعشرين من كتاب العدد حيث يقول الكاتب : « لذلك يقال فى كتاب حروب الرب واهب فى سوفة وأودية ارنون ومصب الأودية» .. أو كما جاء فى الاصحاح العاشر من كتاب يشوع : « حينئذ كلم يشوع الرب يوم أسلم الرب الأمور بين امام بنى اسرائيل وقال أمام عيون اسرائيل يا شمس دومي على جبعون ويا قمر على وادى ايلون . فدامت الشمس ووقف القمر حتى انتقم الشعب من أعدائه . أليس هذا مكتوبا فى سفر ياشر ؟ » ..

وليس بين المراجع المحفوظة كتاب ياشر الذى أشير اليه فى هذين

الموضعين ، وقد أشير اليه في موضع آخر من كتاب صموئيل الثاني حيث يقول : « ورثى داود بهذه المرثاة شاول ويفرباثان ابنه ، وقال ان يتعلم بنو يهوذا نشيد القدس ، هو ذا مكتوب في سفر ياشر »
ويؤخذ من مراجع كثيرة كالكتاب الرابع لعزرا وكتب الحكيم فيلون وكتب آباء الكنيسة الأولين ان أسفارا غير الأسفار الخمسة كانت تنسب الى موسى عليه السلام

وصفوة القول في هذا الصدد ان المراجع الاسرائيلية قد سكتت عن بعض الأمور ولم تستوعب أموراً أخرى في سجلاتها المحفوظة فليس من الجائز أن يعترض المعترضون على أمر من الأمور التاريخية لأنه غير مذكور في تلك المراجع ، واذا جاز أن يذهب بعض السجلات من تاريخ سليمان وأبنائه فمن الجائز أن تذهب سجلات أقدم منها في التاريخ ، كالسجلات التي حفظت عن عهد ابراهيم ، وهي أقدم منها بعدة قرون واذا صرفنا النظر عن هذا كله ، ولم نقدر أن. هناك أخبارا مسكوتا عنها ، وأخبارا ضائعة فالمسألة التي لا يصح الخلاف عليها عند المقابلة بين المصادر القديمة ، هي نقص المصادر اليهودية حتى في أخبار البلاد المجاورة لمملكة اسرائيل ، فان المصادر الاسلامية أوفى بأخبار هذه البلاد من مصادر اليهود ، ويكفى لتقرير ذلك ان كتب اليهود لم تذكر قط أخبار عاد وثمود ، وانفرد القرآن الكريم بذكرها مع ما جاء عنها في المأثورات العربية ، ولولا ان اسم عاد واسم ثمود قد وردا في جغرافية بطليموس لكان من اليسير على الذين يحملون اسم الخرافة على أطراف ألسنتهم أن يزعموا انها إحدى الخرافات ولكن اسم عاد Oadita واسم ثمود Thamudita قد وردا في جغرافية بطليموس ، وليس موقعها كما وصفه الجغرافي الكبير بعيدا عن مملكة اسرائيل ، فاذا كان بطليموس قد سمع بهما فلا يعقل أن يكون أمرهما مجهولا عند كتاب العهد القديم ، وانما المنعقول ان السكوت عن كل رسالة في أبناء اسماعيل هو المقصود ومن الواجب تقرير هذه الملاحظات قبل الانتقال الى مصادر الأحافير وتعليقات المؤرخين المحدثين.

الأحافير و التعلقات

البلاد والسكان :

بلاد الشعوب التي تعرفت بالسامية - أو على الأصح بالعربية- هي شبه جزيرة العرب ، ومن شبه جزيرة العرب هاجرت بعض القبائل الى بلاد الهلال الخصيب بين وادي الفرات والبحر الأبيض المتوسط وهاجرت قبائل أخرى من جنوب شبه الجزيرة الى الحبشة في افريقية

والرأى الغالب ان الهجرة تتبع طريقها من جنوب الجزيرة الى شرقها في محاذة البحر الهندي فالخليج الفارسي فنهر الفرات الى أقصاه شمالا ، ويرتفع بعض المؤرخين بأول فوج من أفواج الهجرة العربية الى القرن الثلاثين قبل الميلاد ، ثم تتابعت الأفواج من هذا الطريق الى مابعد التاريخ فالأشوريون والأكاديون والبابليون والكلدانيون هم أفواج متلاحقة على فترات متباعدة تتراوح الفترة منها بين ستمائة سنة وألف سنة ، وأقدمها ما أقام في الشمال ، لأن الأقاليم الشمالية في وادي النهرين كانت أخصب الأقاليم وأصلحها للزراعة والمرعى خلافا لأقاليم الجنوب التي كانت مغمورة بماء البحر المالح وظلت كذلك زمنا طويلا قبل أن ينحسر عنها الماء وتصلح فيها الأرض. للسكن والزراعة . فلما أنجسر عنها الماء أصبحت أعمر الجهات في وادي النهرين ، لقيام المدن على شواطئها ووفرة الموارد فيها من التجارة والزراعة

ومن شمال العراق ، كانت قبائل المهاجرين الأوائل تنحدر الى بادية انشام والى شواطئ البحر الأبيض المتوسط على مقربة من صحراء سيناء فالقبائل العربية التي أقامت في فلسطين. من شمالها- الى جنوبها انما فدمت اليها على الأكثر من الشرق لا من الجنوب ، ولم يظهر لنا من

الآثار ما يدل على هجرة كبيرة من طريق الحجاز وشواطئ البحر الأحمر قبل الدعوة الإسلامية

وسبب ذلك ان الحجاز — كما هو معلوم — واد غير ذى زرع ، فلم يكن فيه من السكان من يزحفون في حشد كبير لغزو البلاد الشمالية ، وكان معظم الرحلة فيه للتجارة مع القوافل التي تذهب وتعود ، ولا يبقى منها في الشمال الا العدد القليل ، ولكنه مع هذا كان طريقا غير منقطع من طرق التجارة القديمة . لأن سلوك القوافل بين اليمن والعقبة على طريق البر أيسر من سلوكها بحرا مع قلة السفن واعتماد العرب في أسفارهم على الجمل الذى سموه بحق سفينة الصحراء

وربما حدث مرات أن يوغل العرب الشماليون جنوبا كلما ضاقت بهم مساكنهم أمام المغيرين عليهم أو حاقت بهم نكبة من الزلازل والصواعق وهى كثيرة فى تلك البقاع ، كما ظهر من آثارها الباقية الى هذه الأيام .. ولهذا يعتقد المؤرخون ان اليمن هى مصدر العربية الأولى ، ويتلاقى هنا رأى المؤرخين المحدثين ورأى المؤرخين الأقدمين من أهل الحجاز ، اذ كانوا يقولون ان العرب العاربة هم أهل اليمن ، ثم يليهم العرب المستعربون ..

ولكن هذا الترتيب اذا صح من حيث النسب لا يصح من حيث الارتقاء باللغة العربية ، فان اللغة العربية الأولى فى اليمن لم تبلغ من الصقل والفصاحة وانتظام القواعد ما بلغته لغة الحجاز ، فهى نهاية الدورة بعد مضاف اللغة العربية من أقصى الجنوب فى شبه الجزيرة الى أقصى الشمال فى العراق ، الى الرقعة الوسطى بين العراق والبحر الأبيض المتوسط ، وهى لا تزال تنتفع وتتهذب فى كل مرحلة من مراحل المطاف .. على ان البقايا التى تخلفت منذ عشرات القرون قبل الميلاد لا تدع مجالا للشك فى وحدة اللغة بين الأقسام العربية فى شبه الجزيرة العربية وفى أرض الهلال الخصيب ، ويقول البرايت Albright فى كتابه عن أحافير فلسطين (١)

« ان اللغات السامية المشهورة في القدم هي الأكادية - الآشورية - البابلية - والسامية الشرقية والسامية الغربية ، وتنقسم هذه الى العربية الشمالية والعربية الجنوبية أى المعينية والسبئية والأثيوبية ومعها لهجات شتى بعضها قديم وبعضها حديث ، وكل تقسيم من هذه التقسيمات فانما هو مسألة اصطلاح ، والتفرقة فيه أقل جدا من التفرقة بين اللغات الهندية الجرمانية التى درسها الباحثون خلال القرن أو القرن والنصف الأخير ، اذ ان اللغات السامية القديمة - عدا الأكادية - تتقارب فى الأجرومية والنطق بحيث تشترك كل لهجة وما جاورها ولا يلحظ الانتقال من لهجة الى لهجة الا كما يلحظ مثل هذا الانتقال اليوم بين اللهجات الفرنسية والجرمانية .. ولما بدأ عصر الآباء العبريين عند مطلع الألف الثانية قبل الميلاد لم يكد الفرق بين اللغات يزيد على الفرق بين اللهجات العربية الأصيلة فى هذه الأيام ، ولم تكن الأكادية نفسها منفصلة عن سائر اللغات السامية الغربية أكثر من الانفصال بين المالطية والعراقية الحديثتين »

ويقرر علماء المقارنة الدينية مثل هذا عن التقارب بين عبادات العرب الأولين . فيقول الأستاذ اندرسون فى مجموعة العهد القديم والدراسات العصرية (١) : « ان اله الكنعانيين الأعلى - ايل - يعبد بأسماء متعددة .. ساميين الغربيين ، ويعرف باسم شداى ، وايل عليون ، وسالم ، بوسادق ، وحداد ، ويرى انجنل Engenell ان اسم يهوا واحد من هذه الأسماء كان مهملًا على عهد موسى فأحياه موسى بدعوته ، ثم امتزج اسم يهوا بالصينغ الأخرى ولاسيما صينغة ايل عليون فى اورشليم وتم هذا الامتزاج بسهولة لأنها عنوان على اله واحد .. »

ثم تال ان الوحدانية التى كانوا يدركونها فى ذلك الزمن لم تكن وحدانية تفكير ولكنها كانت وحدانية تغليب لرب من الأرباب على سائر الأرباب ..

ويقول وولى Woolley صاحب أهم المباحث فى تاريخ ابراهيم : « انه

من المحتمل جدا ، وان لم يكن ثابتا ثبوت اليقين - ان اسم يهوا كان معروفا عند بعض قبائل سورية الشمالية قبل زمان موسى بعهد طويل « (١) » والظاهر انهم كانوا الى الزمن الذي كتب فيه المزمور الخامس والثلاثون بعد المائة من المزامير المنسوبة الى داود ، يصفون يهوا بأنه « مفرق جميع الآلهة » ..

والظاهر كذلك انهم كانوا الى ما بعد خروجهم من مصر لايزعمون انهم مميزون على القبائل الأخرى ، بل ينظر لهم كما جاء في الاصحاح الأول من سفر التثنية ان الرب « لبغضه لهم قد أخرجهم من أرض مصر ليدفعهم الى أيدي العموريين ويهلكهم على أيديهم »

وظاهر كذلك ان وحدة الأصل واللغة كانت توقع اللبس في تسمية القبيلة الواحدة أو الشعب الواحد ، فنسخه يهوا من العهد القديم تسمى سكان غرب الأردن بالكنعانيين ، ونسخة الوهيم كانت تسميهم بالعموريين كما يرى من مراجعة الاصحاح الأول من سفر القضاة

ويعيننا في هذا الفصل ان نبرز هذا التشابه في السلالة العربية منذ أقدم العصور التاريخية : فلم نعر في مصدر واحد على خبر يفهم منه ان ابراهيم التثني بمن يعارض عقيدته الالهية بعد خروجه من موطنه الأول ، وقد كانت في طريقه عبادات محلية مختلفة وأرباب محليون مختلفون ، وشأن هؤلاء كشأن الأولياء والقديسين الذين يتشفع بهم أبناء كل جهة في الأمم التي تؤمن بالوحدانية ، فأبناء الجهة يفضلون أولياءهم وقديسيهم وقد يتحولون من جهتهم الى جهة أخرى فلا ينكرون التشفع بالأولياء والقديسين في الجهة التي تحولوا اليها ، لأنهم أصحاب الحق فيها . أما العقيدة الالهية فهي واحدة أو متقاربة ، ولولا ذلك لما كان الخليل عليه السلام يوقر ملكى صادق ويقدم قربانه للاله عليون كما روى سفر التكوين ..

انما اشتد الخلاف الدينى وخلاف العصية بين أبناء هذه الشعوب

عندما وقر في أذهان طائفة من العبريين انهم هم وحدهم ذرية ابراهيم المختارة ، وكانت دعواهم هذه طارئة لم يسمع بها الا بعد أيام موسى بمئات السنين ، وفي هذا يقول سفر التثنية : « أتمم مارون بتخم اخوتكم بنى عيسو الساكنين في سعير ، فيخافون منكم فاحترزوا جدا . لا تهجموا عليهم لأنى لا أعطيكم من أرضهم ولا وطأة قدم . ولعيسو قد أعطيت جبل سعير ميراثا .. طعاما تشترون منهم بالفضة لتأكلوا وماء تبتاعون منهم بالفضة لتشربوا .. وميتى قربت الى تجاه بنى عمون لا تعادهم ولا تهجموا عليهم لأنى لا أعطيكم من أرض بنى عمون ميراثا ، ولبنى لوط قد أعطيتها وهى أيضا تحسب أرض رفائيين ، سكنوها قبلا .. لكن العمونيين يدعونهم زمزميين : شعب كبير وكثير وطويل كالعناقين أبادهم الرب من قدامهم فطردوهم وسكنوا مكانهم الى هذا اليوم .. »

هكذا كانت حال الشعوب المتفرعة على الأصول العربية، ولكنها لم تكن وحدها في بقاع الهلال الخصيب أو بين النهرين ، إذ كانت هذه البقاع مفتوحة للواردين من الشرق والغرب والشمال ، وما حدث في عهود التاريخ المعلومة قد حدث مثله في العهود التي لم يدركها التاريخ فقد نزع قوم من الشرق يدعون بالسومريين ، وأناس من الغرب يدعون بالحيثيين ، وأناس من الشمال مجهولون يحسبهم المؤرخون تارة من السومريين وتارة من الحيثيين ..

فالسومريون في الغالب من أصل مغولى ، وسواء ثبت انهم من المغول أو ثبت غير ذلك ، فالأمر الذى لاشك فيه انهم من غير الساميين أو السلالة العربية ، لأنهم كانوا يتكلمون لغة غروية Agglutinative بعيدة جدا في أصولها وقواعدها من اللغات السامية الاشتقاقية ومنها العربية Inflectiona ومن المقابلة بين صورهم وتماثيلهم وبين الصور والتماثيل العريية في أرض بابل وغيرها يبدو الفرق واضحا بين الملامح والتقسيمات ، فضلا عن الفروق البعيدة في الطبائع والعادات ، ولكنهم لم يعرفوا باسم غير الاسم الذى أطلقه عليهم العرب الأقدمون ، وهو اسم السومريين أى

سمر الرؤوس كبا جاء في وصفهم على الآثار
والحيثيون على الأغلب آريون قدموا من الشرق الى آسيا الصغرى
قبل فجر التاريخ ، ولا بد أن يكون مقدمهم الى آسيا الصغرى بعد
احتلال الساميين للهلال الخصيب بقوة لم يستطع الحيثيون أن يتغلبوا
عليها ، والا لما تجاوزوا هذه البقاع المخصصة الى ما وراءها

ويذهب أناس من المؤرخين المحدثين الى أن العموريين أيضا من الأقوام
التي لا تنتمي الى سلالة سامية عريضة ، ومن هؤلاء المؤرخين العلامة
سايس Sayce المشهور .. وحجته في ذلك ان صورهم على معبد
رمسيس تخالف في اللون والقامة صور الأقوام الأخرى من أبناء آسيا
الغربية ، وهي حجة لا تنهض وحدها أمام اللغة وانقطاع الصلة بينهم وبين
كل قطر من الأقطار التي يفرض الفارضون انهم قدموا منها ، ولا يعقل
انهم قدموا من أوربة عن طريق افريقية وهي خالية ثم اختاروا بقاع
فلسطين وسورية دون غيرها ، ولا يعقل كذلك انهم حاربوا أبناء البلاد
التي وقعت في طريقهم وتغلبوا عليهم واجتازوهم دون أن يسلبوهم
أرضهم ويستقروا فيها ، وليس أقرب الى التقدير الصحيح من مجيئهم
في زمن قديم من الشرق عند وادي الفرات ، ولعلمهم ينتمون الى الأرض
المعروفة باسم (امرو) هناك ، ولا اعتداد بلون البشرة أو طول القامة ،
فلم يثبت قط أن الجو العربى منذ الأزمنة الخالية كان يستلزم السمرة
والقصر ، ولم يزل بين أجناس الجنوب عمالقة غير العموريين

ذلك مجمل الحال من حيث السكان في بلاد النهرين والهلال الخصيب ،
فمن شرق الدجلة الى شاطئ البحر الأبيض المتوسط عشائر عربية تقيم
وتترحل وينافس بعضها بعضا على المرعى والمورد كلما ضاقت بها البقاع
أو جاءها من الجنوب وارد جديد

وكان السلطان الأكبر على هذه العشائر للدولة التي تقوم في العراق ،
سواء كانت دولة الأشوريين أو الأكاديين أو البابليين ، أو كانت دولة
السومريين قبل هؤلاء أجمعين .. لأن هذه العشائر تقيم وتترحل في بقاع

لا تنفصل عن بقاع النهرين ، وربما دخل بعض البقاع في حوزة مصر وتولاها حكام من قبل فرعون ، وربما اقتدى بعض العشائر بالمصريين في العادات والعبادات ، وربما انتقل بعضهم الى مصر مرتادين أو متجرين فاقتبسوا كذلك من عاداتها وعباداتها ، ولكن وحدة اللغة ووحدة المكان ووحدة العادات كانت هي الغالبة على طول الزمن ، ولهذا كان الولاة المصريون على آسيا الغربية يكتبون الى فرعون بالخط المسماى وعلى الواح الطين المطبوخ ، كما كان يكتب البابليون والأشوريون ..

وحدث غير مرة أيام ضعف الدول أن تجترى العشائر القوية عليها فتتهزمها وتنشئ فيها دولتها : حدث هذا من العموريين والعيلاميين في وادى الفرات ، وحدث من الرعاة الذين اشتهروا باسم الهكسوس في وادى النيل ، ويرتبط تاريخ الخليل كما يلى بقيام هذه الدول وانتقال هذه العشائر من أماكنها كلما قامت لاحداها دولة مستقرة في الحواضر والعواصم ، وهجرة ابراهيم على اتصال وثيق بالزعاىع التى تنشأ حتما من تبدل النظم وتبدل العبادات والكهانات وحلول الجديد منها محل القديم ، مع المساومة والمصالحة بين النظام المقبل المعمول به والنظام المدبر المهجور ..

ولكننا على كثرة الأحافير لا نجد بينها خبرا يعين لنا التاريخ فى حادث من الحوادث تعيين الجزم واليقين . ولم يهتد المنقبون الى تاريخ منها الا على وجه التقريب ، وبعد الموازنة والترجيح

وعلة ذلك ان الدول الكبرى فى تلك العهود لم تكن موحدة الحكومات ، بل كانت منقسمة موزعة يتولاها فى الوقت الواحد ثلاثة أمراء أو أربعة أو أكثر من ذلك ، فاذا حاول المنقب أن يضع لهم ترتيبا متعاقبا لم يلبث أن ينكشف له من محفورات جديدة انهم كانوا فى عصر واحد ، ومن الأمثلة الكثيرة على هذا ان المنقبين كانوا يعينون سنة ١٩٤٠ قبل الميلاد لحكم حمورابى ثم انكشفت أحافير (مارى) للأستاذ اندريه باروت André Parrot فقدموها قرنا كاملا الى نحو سنة ١٨٤٠ لأنهم

وجدوا ملوكا معاصرين له وكانوا يحسبونهم سابقين له في موطنه

وفي مصر كان المظنون أن ترتيب الأسر متعاقب ، ثم ظهر من النقوش المتوافقة في الزمن ان الأسر الثانية عشرة والثالثة عشرة والرابعة عشرة حكمت في عصر واحد بين أقاليم الوجه البحرى والصعيد، وان الاصلاحات التى تمت في اقليم الشمال لم تكن من عمل الهكسوس المعاصرين ، وان من هؤلاء الهكسوس من كان يرسل الهدايا والاتاوات الى ملوك الصعيد .. ويقول المؤرخ بترى *Petrie* ان الصورة التى على معبد بنى حسن هى صورة رئيس من الهكسوس ، وان الكلمة مركبة من هيك بمعنى أمير ومن شو اسم القبيلة ، وانه يضاهى اسم (خيان أو شر) المنقوش بين أسماء الملوك الشماليين على معبد تحوتمس الثالث بالكرنك واسم خيان هذا خليق أن يقف عنده القارئ ، لأنه قريب من اسم ريان الذى حسبه مؤرخو العرب الأقدمين بين أسماء ملوك الرعاة ، ونتيجة هذا التداخل في أزمنة الأسر الحاكمة أن يلتبس الأمر على المؤرخ عند تعيين أوقات الحوادث وتعيين اسم الأمير الذى تنسب اليه ، وقد مضى زمن على الهكسوس في الوجه البحرى وهم رواد يطلبون المرعى والضيافة ولا يجسرون على المنازعة في الملك ، فاذا وجدت لهم آثار سابقة لعصر دولتهم فلا يلزم من ذلك تعديل تاريخ الدولة ، لأن دخول الهكسوس الى مصر للمرعى والرحلة من مكان الى مكان غير دخولهم بجموعهم وجنودهم للسيطرة واقامة الملك بأسمائهم ، وكل ما يدل عليه السماح لهم بالدخول واهمال الحيطة في أمرهم ان فراعنة الصعيد كانوا يومئذ في شاغل بالنزاع عن الحيطة والتحصين

ولا داعى كذلك لتخطئة المؤرخين الذين تقبوا في فلسطين ، فعينوا للهكسوس تاريخا غير تاريخ دولتهم بالديار المصرية ، فان زحف الهكسوس على جنوب فلسطين سابق بالبداهة لقيام دولتهم بالوجه البحرى من أرض مصر . فالمنقبون في مدينة اريحا علموا من بقاياها انها خربت بالزلازل وقذائف البراكين ثلاث مرات ، وعلموا من أساليب البناء

ونقش الفخار واثرت التحلل على المنسوجات في طبقات الأرض متى كان الموعد المقارب لكل كارثة من هذه الكوارث . وفي الدور الثالث وجدوا مقابر للهكسوس واستطاعوا أن يعينوا وقتنا لوجودهم بأرض كنعان حوالي سنة ١٧٥٠ قبل الميلاد ، وعلموا ان أمير (اريحا) توطأ مع الهكسوس على غزو مصر وان هؤلاء أقاموا معه موظفا يسمونه كاتب الوزير للرقابة على البيادر وخزائن الغلال ، وان الفترة كانت فترة اضمحلال وهزال أصاب الدول في مصر والعراق وشجع الرعاة والقبائل الرحل على غزوها وتوطيد أقدامهم فيها فكان هجوم الهكسوس على مصر معاصرا لهجوم قبائل البدو من عيلام وعمور على بابل ، وكانت الأرض التي في طريق مصر موزعة بين العمالة والحيشيين واليوسيين والعموريين ، وليس بينهم ذكر للعبرانيين ..

الا ان المنقبين الذين عينوا زمنا للهكسوس حوالي سنة ١٧٥٠ لم يعرفوا من هم هؤلاء الهكسوس (١) على وجه التحقيق ولكنهم استخلصوا من « خط السير » الذي اتبعوه بعد خروجهم من مصر منهزمين انهم عادوا الى مواطنهم في شمال سوريا ، وانهم على الأرجح مزيج قديم من الآراميين والحيشيين ، ولم يطل مقامهم بمصر أكثر من قرن ونصف قرن ، ثم تعقبهم المصريون ودمروا المدن التي توطأت معهم على غزو الديار المصرية ، ومنها اريحا ، وقد وجد المنقبون فيها بين الفصوص الكثيرة فص خاتم باسم خاميس أو احمس قاهر الهكسوس

الى هذا التاريخ لم يكن للعبريين الذين يسمون أنفسهم بأبناء اسرائيل أى أثر بين القبائل التي في طريق مصر ، ولم يذكر لهم اسم في أثر من الآثار التاريخية قبل سنة ١٢٢٠ قبل الميلاد

في هذا الأثر يروى الفرعون مرثتاح خبر حملته التأديبية على عسقلان وجزير ويوانام واسرائيل ، ويقول انه محا اسرائيل فلم تبق منها باقية ، ويؤيد خبره هذا ان النصب الذي أقيم بعد ذلك مسجلا لانتصار

(١) كتاب قصة اريحا للاستاذ جارستانج وابنه Garstang

رئيس الثالث على العموريين والفلسطينيين والحيشيين سنة ١١٩٠ قبل الميلاد ، لم يرد فيه ذكر لاسرائيل وعصر ابراهيم قبل هذه الفترة على التحقيق ، فمن القرن الثاني عشر الى القرن الثامن عشر قبل الميلاد لم يكن لابراهيم وذريته مقام في غير الجنوب عند جيرار أو وراءها جنوبا ، ولم يكن لابراهيم مقام في حبرون، ولهذا يرجح الدكتور (كامبيل) ان ابراهيم لم يدفن في مغارة مكفيل بحبرون على مقربة من اورشليم ولكن الذين اتنسبوا اليه تعلقوا بذكرى هذا المدفن لتسويغ دعواهم في مملكتهم ، ولا بد هنا من ابراهيمين أحدهما جاء بعد الآخر بزمن طويل

ويذهب الدكتور كامبيل بعيدا جدا في هذا الفرض . فيشير الى ورود اسم ابراما في الآثار البابلية . وقد ورد في خلال قصة زراعية حيث قيل ان ابراما استأجر ثورا للزرع من أحد الفلاحين ، ولا شأن لابراما هذا بسيرة الخليل .. ولكن الدكتور كامبيل يسرد أسماء أخرى في الأحافير قريبة من هذا الاشتقاق ، ومنها « أبرمراما » ، وهو على رأى الدكتور قد يكون أمر مرابى الذى هو أمورابى بعينه . وهو ولا شك جد من جدود العموريين الذين ملكوا بابل ، وكانت منهم شعبة تملك بيت المقدس وحبرون بجوارها ، فلما امتزج العموريون والعبريون ، واشتركوا في العبادة وفي السيادة سعد العبريون بنسبهم الى جد مدفون في حبرون يسمى ابرام وذكروا ان قبره مشتري بالمال من ملوك الأرض (١) الأصلاء ، فليس في دفنه ثمة عدوان ولا ادعاء

وقصة الابراهيمين قد لجأ اليها كاتب منقّب لا يفلو في فروضه على هذا المثال ، وهو السير ليونار صاحب كتاب ابراهام والكشوف الأخيرة ، فقد رجح ان ابراهام غير ابرام ، وقال ان تسمية الحفيد باسم الجد كانت مألوفة جدا في البلاد البابلية كما يظهر من مقابلة أسماء الملوك من

أسرة واحدة ، فاذا كان لابراهيم جد باسم ابرام كما جاء في كثير من الروايات فالأقرب الى المؤلف ان المتأخرين بعد عصره جمعوا بين أخبار الاثنين ، ووصلوا عمر أحدهما بعمر الآخر فبلغوا بهما مائة وخمسة وسبعين سنة ..

وغير بعيد أن يكون العبريون المتأخرون قد تكلموا عن ابراهيمين لا عن ابراهيم واحد ، فهذا التاريخ الغامض قد زاده اختلاطاً على اختلاط دعوى الطائفة العبرية التي تنتسب الى ابراهيم انها ذريته التي ترثه في الأرض والسماء ، وانها ورثت أرض فلسطين من أيام ابراهيم مع انهم كانوا الى أيام موسى يشتركون المرعى والمورد فيها بالفضة ، ولم يستطيعوا أن يدخلوا فلسطين الا بعد ضعف العموريين والحيشيين والهكسرس

ومن حقائق التاريخ المطردة ان الملك هو بلاء القبائل الرحل فلما ملك الحيشيون والهكسوس ضاعوا واندحروا ، ولما هجم العموريون على بابل فملكوها ضاعوا واندحروا في بابل وفي بيت المقدس ، ولما دخل العبريون أنفسهم بيت المقدس وملكوا فيها ضاعوا واندحروا وحق بهم ما حاق بالقبائل الأولى ..

فالملك هو نهاية كل قبيلة من تلك القبائل ، وقد ظلت كلها قبائل نامية الى أن ملكت ، فاتتهت بذلك الى دورها الأخير

وعلى هذه السنة عاش العموريون والكنعانيون والحيشيون ، وعاش معهم العبريون قلة ضعيفة الى أقصى الجنوب من تلك البقاع ، فكان وطن ابراهيم عند سيناء وشمال الحجاز ، وكان الجنوب مفتوحاً له وأيسر له من الشمال ، حيث تجول القبائل التي بلغ من قوتها أن تغير احداها على بابل وتغير الأخرى على مصر ، فأيسر من اجلائها عن أرضها أن يبقى حيث هو أو يمعن في الجنوب ويستقبل الحجاز ، وعبرة التاريخ هنا ان المتحذلقين الذين خطر لهم أن ذهاب ابراهيم الى الحجاز أعجوبة ملفقة يرون بالنظر الصادق انها هي التقدير الصحيح ، وان الأعجوبة هي اتجاهه من الجنوب الى الشمال

(١) حاق : حاق بالشيء أحاط به ، وبهم العذاب نزل وأحاط .

اللغة

ربما كان من المفاجآت عند بعض الناس أن يقال لهم ان ابراهيم عليه السلام كان عربيا ، وانه كان يتكلم اللغة العربية ولكنها الحقيقة التاريخية التي لا تحتاج الى فرض غريب أو تفسير نادر غير ترجمة الواقع بما يعنيه ، وانما الفرض الغريب أن يجيد المؤرخ عن هذه الحقيقة لينسب ابراهيم الى قوم غير قومه الذين هو منهم في الصميم ..

وليس معنى هذا بالبداهة انه كان يتكلم العربية التي نكتبها اليوم أو نقرأها في كلام الشعراء الجاهليين ومن عاصرهم من العرب الأقدمين ، فلم يكن في العالم أحد يتكلم هذه اللغة في عصر ابراهيم ولا في العصور اللاحقة به الى القرن الرابع أو الثالث قبل الميلاد ..

وانما اللغة العربية المقصودة هي لغة الأقوام التي كانت تعيش في شبه جزيرة العربية وتهاجر منها واليها في تلك الحقبة ، وقد كانت لغة واحدة من اليمن الى مشارف العراق والشام وتخوم فلسطين وسيناء

ولقد عرفت تلك اللغة حينما باسم اللغة السريانية غلظا من اليونان في التسمية ، لأنهم أطلقوا اسم اشورية أو اسورية على الشام الشمالية ، فشاعت تسمية العربية باسم السورانية والسريانية من المكان الذي أقامت فيه بعض قبائل العرب الوافدة من شبه الجزيرة منذ أقدم العصور ، قبل عصر ابراهيم بزمن طويل ..

واشتملت هذه اللغة السريانية في بعض الأزمنة على عدة لغات لا تختلف فيما بينها الا كما اختلفت لهجات القبائل العربية قبل الدعوة الاسلامية ، ومن هذه اللغات لغة ارام وكنعان وادوم ومواب ومديان وما جاورها في الأقاليم الممتدة بين العراق وسيناء

وربما كانت المفاجأة أشد على من يسمع ان الخليل لم يكن عبريا من
العبريين ..

فقد مضى زمن طويل والناس يفهمون ان العبرية واليهودية كلمتان
بمعنى واحد ، ولم تكن اليهودية قط مرادفة للعبرية في معنى صحيح
فالعبرية في نحو القرن العشرين قبل الميلاد كانت كلمة عامة تطلق على
طائفة كبيرة من القبائل الرحل في صحراء الشام ، وكان من أبناء هذه
القبائل من يعمل كالجنود المرتزقة هنا وهناك حسب المواقع والمناسبات ،
وبهذا المعنى وردت كلمة العبرى والابرى والهيبرى وما قاربها لفظا
في أحافير « تل العمارنة وفلسطين وآسيا الصغرى والعراق ، وجاءت
بهذا المعنى في الكتابات المسمارية والفرعونية » ولم يكن لليهود وجود
في ذلك الحين ..

ولما وجد اليهود وانتسبوا الى اسرائيل كانوا هم أنفسهم يقولون عن
العبرية انها لغة كنعان ، ثم انطوت العبرية في الآرامية التي غلبت على
القبائل جميعا بين فلسطين والعراق مع اختلاف يسير بين الآرامية الشرقية
والآرامية الغربية ..

وأصبحت العبرية لهجة تختلف بنطق بعض الحروف كما تختلف القبائل
بنطق الشين والكاف أو نطق الميم واللام الى هذه الأيام

فقى الاصحاح الثانى عشر من سفر القضاة يقول : « كان رجال جلعاد
يقولون له : أنت من افراميم ؟ فان قال لا كانوا يقولون له : قل شبولث .
فبقول شبولث . فكانوا يأخذونه ويذبحونه »

ولما كشف حجر موآب المشهور (١) وجدت الكتابة عليه
فربية جدا من العبرية ، وهو يرجع الى القرن التاسع قبل الميلاد
وقد أقام هذا الحجر ملك موآب ميسا بن شمس ، وقال فيه ان الاله
شموس (أى الشمس) نصره على اله اسرائيل ، وانه بنى هيكل بعل
معون ، وذكر (اشتهار شمس) في موضع آخر كما قال إنه جر محاريب

(١) كشفه « كلين » الالماني سنة ١٨٦٨

(يهوا) أمام ربه المعبود ، وكان هذا الرب راضيا عنه بعد جفاء وعقاب
 وظهر من أحافير اليمن والعراق والشام وفلسطين أن أسماء الاله واحدة
 في جميع هذه البلاد ، ففي كلامها اسم بعل والرب وايل وصادق بمعنى
 المعطى الوهاب ، ومن هذا التشابه اسم ملكى صادق في فلسطين واسم
 ايل صادق في معين وحضرموت

ومن أقوى الأشياء دلالة على العلاقة بين ابراهيم والحجاز ان اسم
 بعل يطلق كثيرا على الاله في ديانات جميع القبائل ما عدا القبائل التي دانت
 بدعوة ابراهيم وخلفائه ، فان اطلاق اسم البعل على الاله مكروه فيها
 لا يذكرونه الا عرضا في تركيب الأسماء التي يتوارثها الناس بغير نظر
 الى معناها ، وقد ورد اسم البعل في ديانات الجزيرة العربية ماعدا ديانة
 الكعبة أو ديانة الحجاز ، ومن قال ان اسم (هبل) تصحيف لاسم (يهوا
 بعل) لم يستند الى دليل ولا قرينة معقولة . اذ لا معنى لتصحيف الكلمة
 في اسم الصنم مع وجودها في اللغة بمعنى السيد أو الزوج الى اليوم ،
 ولو كانت الكلمة منسية لما كان بالتصحيف من غرابة ، وأما وهي مفهومة
 معروفة فتصحيفها في اسم صنم معبود غير معقول ، وأبعد من هذا القول
 أن يقال أن (هبل) منحوت من كلمة يهوا وكلمة بعل فان الدعوة الى يهوا
 تناقض الدعوة الى بعل ، ومن آمن بهذا لم يؤمن بذلك .. الا أن يقال ان
 اسم (يهوا) مأخوذ من لغة العربية الحجازية أو الجنوبية ، وينبغي لمن
 يقول هذا أن يستشهد بأمثلة لوجود الكلمة مفردة ومقتزنة ببعل في أثر
 ثابت ، وليس لهذا الأثر وجود ..

ويرجح بعضهم ان اسم ابرام يتألف من أب ورام ، وان رام معنا بمعنى
 أحب ، فاسم ابرام اذن يعنى محبوب الله ، وهو وصف يوافق تلقينه
 بخليل الله ، ويستبعد مرجليوت (١) أن تكون (رام) من مادة الرفعة
 كالرامة التي تطلق على القرية في البناء العالى ، وتجمع على رام كما تجمع
 ساعة على ساع وحالة على حال وحانة على حان

(١) رسالته في مطبوعات الاكاديمية البريطانية سنة ١٩٢٤

وينقل مرجليوت عن جليزر Glaser ان الملك الحميري شرحبيل يعفور ذكر اسم الله في الحجر المنقوش على سد مأرب فسماه « بعل السمائين والأرضين » وانهم عرفوا التوحيد في منتصف القرن الخامس للميلاد ، وينقل عن دسو Dussand ان الأحافير النبطية التي ترجع الى القرن الثالث قبل الهجرة تدل على تقارب شديد بين الآرامية والعربية الفصحى .. وقد لوحظ التقارب بين اللغات أو اللهجات العربية ، فيما هو أقدم من ذلك كثيرا بحيث لا يحسب تاريخه بأقل من ألفى سنة قبل الميلاد . فان أداة التعريف وضمير المتكلم والغائب وكلمات النفي والنهي وتصريف الأفعال مشتركة في اللغة العربية واللغة الأشورية التي تنسب اليها السريانية كما تقدم ..

وهذا التقارب هو الذي أوحى الى الأستاذ دويرتى أن يترجم اسم (دمقى اليسو) بحبيب الله من المقة بمعنى الحب والاييل بمعنى الله وضمير الاضافة ، وجاء فلبى فظن ان هذا الاسم يطابق في الزمن والصفة اسم الخليل ابراهيم ، وان الخليل كان ملكا من الملوك الذين حكموا جنوب العراق عند الخليج القارسى لأن الأقوال متواترة بمقام الخليل هناك في اور الكلدانيين ، ولأن اسم (دمقى اليسو) ورد في الآثار البابلية بين عدة ملوك يسمون بملوك الشاطيء أو ملوك الأرض البحرية (١) وهو اصطلاح لهم يطلقونه على العرب من سكان تلك الجهات

وهذا التقارب في اللغة والكتابة يفرض لنا - فيما نعتقد - خلافا شديدا دخل فيه المهاجمون للاسلام والمدافعون عنه حول نسب الخليل ابراهيم واسم أبيه ..

فقد جاء في القرآن الكريم « واذ قال ابراهيم لأبيه آزر .. » فاتخذ المهاجمون للاسلام من ذلك دليلا على الخطأ في تسمية أبي الخليل ، وقالوا ان اسمه تارح كما ورد في العهد القديم

وجاء بعض المفسرين من المسلمين فحاولوا طويلا أن يجعلوا لكلمة (آزر) موضعا من الاعراب أو مدلولاً يبطل ذلك الانتقاد ويردون به تخطئة المهاجمين ..

والواقع ان هذه التخطئة لا محل لها عند النظر في أصول الأسماء ، فان ابراهيم قد انحدر الى أرض كنعان من أرض اشور ، واعتقد شراح الكتب الاسرائيلية في غير موضع ان الآباء الأولين كانوا ينسبون الى بلادهم أو أمهم كما يقال عن ابن مصر وابن أوربة وأبناء الشرق وأبناء الغرب وأبناء النيل .

فاذا نسب ابراهيم الى اشور فمن الجائز جدا أن يكون تارح وآزر لفظين مختلفين لاسم واحد ، سواء كان هذا الاسم علما على رجل أو على الجد القديم الذي تنسب اليه أمة اشور ، وكثيرا ما اتسب القوم الى اسم جد قديم كما يقال في النسبة الى عدنان وقحطان

ونظرة واحدة في كتابة اسم اشور ونطقها الى اليوم في العراق وسورية تقرب لنا هذا الاحتمال الذي يبدو بعيدا لأول وهلة فقد كتبت اشور تارة أزور وتارة أثور وتارة أتور بالتاء وتارة أسور بالسين ..

ولا يخفى ان اللغات السامية لم تكن تكتب لها حروف علة الى زمن قريب ، وان الاغريق الذين أطلقوا اسم (أسورية) على وطن ابراهيم من نهر الفرات الى فلسطين ينطقون الياء الاغريقية بين الواو والياء ، ولهذا تكتب لوييا بالواو كما تكتب بالياء ، وتُنطق سيريه بالياء في اللغات الأوربية وتنطق سورية بالواو في اللغات الشرقية

ولا يخفى كذلك ان كلمة تارح تنطق تيرح على لسان الكثيرين من الناطقين باللغات السامية ، وتنطق تيرا وتيره عند الذين لا يستطيعون النطق بالحاء ..

فاذا لاحظنا ذلك كله فليس أقرب من تحويل أتور واتير الى تيره وتيرح ، وقد وردت في تاريخ يوسيفوس بغير الحاء ووردت في تاريخ

يوسيبوس أثور ، وهو مكتوب باليونانية ، وقد ورد في التوراة اسمان بمعنى الأميرة أحدهما بالحاء وهو سارح (٤٦ تكوين) والآخر بغير الحاء وهو سار أو ساره ..

ومؤدى هذا أن (آزر) هى النطق الصحيح الذى عرف به اسم أسور القديم ، وإن تيره وتيرح هى نطق الذين يكتبونها اتيره واتيرح ، وينطقون بكلمة أتور بين الواو والياء

روى صاحب (المزهرة) عن الاصمعى ان رجلين « اختلفا فى الصقر فقال أحدهما بالصاد وقال الآخر بالسين ، فتراضيا بأول وارد عليهما فحكيا له ما هما فيه ، فقال : لا أقول كما قلتما انما هو الزقر ، وعلى هذا يتخرج جميع ما ورد من التداخل نحو قلى يقلى وسلى يسلى »
وإذا اختلفت الحروف فى اللهجة العربية الواحدة هذا الاختلاف فلا محل للجزم بالتخطئة حين تختلف السين والزاي أو التاء والثاء فى لغات باعدت بينها الآماد ..

وأيا كان القول فى نسبة ابراهيم الى آزر بمعنى اسور فهو أقرب من القول بأن أباه سمى تارحا من الحزن أو من الكسل ، وليس عليه دليل من وقائع التاريخ والجغرافية ولا من الاشتقاق

وتفيد هذه الملاحظة فائدة جلى فى معرض آخر من معارض سيرة الخليل ، فلم يكن تاريخ ابراهيم فى الاسلام مستمدا من المصادر اليهودية كما زعم بعض المتسرعين من رواة الأخبار الدينية غير الاسلامية ، والا لما كان أيسر من تسمية أبيه تارحا أو تيرحا أو تيره وما شابه هذه التصحيفات ، ولما كان هناك سبب قط لتسميته بأزر على أى توجيه .
وانما هذا بينة من بينات شتى على ان دعوة ابراهيم لم تصل الى الحجاز من مصادر اليهود ..

والبينة الكبرى التى تأتى من مباحث اللغة هى التقارب الشديد بين لغة الحجاز ولغة النبط أو النباتيين الذين ينتمون الى نبات من أبناء اسماعيل ..

فقد عقد اللغويون مقارنات كثيرة بين لهجات العربية القديمة التي بقيت الى ما قبل الاسلام ، فظهر من هذه المقارنات ان التقارب بينها يقاس بالزمان ولا يقاس بالمكان ، فقد يكون الجاران مختلفين غاية الاختلاف ، وقد يكون التشابه قريبا جدا بين طائفتين تسكن احدهما الى أقصى الجنوب وتسكن الأخرى الى أقصى الشمال

فالحميريون كانوا يقيمون بأقصى الجنوب من الجزيرة العربية ، والأشوريون كانوا يقيمون بأقصى الشمال من العراق ، ولكن التشابه بين لهجة حمير ولهجة آشور أقرب جدا مما بين اللهجة الحميرية واللهجة القرشية بمكة ، والمسافة بين اليمن والحجاز أقرب المسافات

فاللغة الحجازية لم تتطور من اللغة اليمانية مباشرة ، وانما جاء التطور من العربية القديمة الى الأشورية الى الآرامية الى النبطية الى القرشية ، فتقاربت لغة النبط ولغة قريش من هذا السبيل ، وكان التقارب بينهما في الزمان ، أو في درجات التطور ولم يكن تقاربا يقاس بالفراسخ والأميال هذه هي البيئة الكبرى من مباحث اللغة على قرابة أهل الحجاز من النبطيين أو النباتيين أبناء اسماعيل ، ولم تكن هذه القرابة من اختراع النسابين أو فقهاء الاسلام ، ولكنها كانت قرابة الواقع التي حفظتها أسانيد اللغة والثقافة واستخرجتها من حجارة الأحافير والكشوف الحديثة وما يدعو الى احترام روايات النسابين في هذا الباب انهم عرفوا الحقيقة التي كشفها علماء الأحافير في الزمن الأخير ، فقال ابن عباس :

« نحن معاشر قريش من النبط »

هذا من جهة الأصل واللغة ، ومن جهة الكتابة يقول الشاعر المنتصر ابن المنذر المدني :

ملوك بين حطى وسعفص في الندى وهوز أرباب الثنية والحجر
وربما اختلفوا في مسألة الكتابة لأنها طارئة لم يتعلمها منهم غير
القليين . أما النسب ومرجه الى نبات والنباتيين ، فالتوافق فيه واضح
بين رواية النسابين وتحقيق الأحافير

مدن القوافل

أكثر غوامض التاريخ يخلقها المؤرخون ، لأنهم ينظرون الى التاريخ كأنه حسبة أرقام لاحصاء الستين والأيام ، أو كأنه أطلس مواقع ومعالم ، أو كأنه سجل حوادث وأنباء .. ولو أنهم واجهوه على قاعدة واحدة ، وهى انه وصف نفوس انسانية وان. حوادثه وأنباءه ومعالمه ومواقعه وكل ما يحسب فيه من السنين والأيام انما هو تبع لوصف النفوس الانسانية لما بقى فيه غموض أو بقى فيه الغموض الذى يغمض علينا لسبب مجهول ..

وقد غمض على المؤرخين شئ كثير من أحوال الرسائل النبوية ، لأنهم لم يرقبوا حالة مشتركة فى جميع هذه الرسائل ، وهى الحالة النفسية التى تكون عليها الأمم فى طور واحد ، وذلك هو طورها حيث تتصل البداوة والحضارة ، فلم تنهيا النفوس للرسالة النبوية فى حالة قط كما تهيات لها وهى قائمة بين البداوة والحضارة ، ولم يعرف التاريخ رسالة نبوية فى الحضارة دون غيرها أو فى الصحراء المنعزلة دون غيرها ، وانما عرفت هذه الرسائل على الدوام فى مدينة حولها صحراء ، أو فى صحراء على مقربة من مدينة ، ولهذا كانت مدن القوافل وما فى حكمها أحق الأماكن بالدراسة من جانبها هذا الذى يرشحها لقيام الدعوات الدينية ..

لِمَ اختصَّ الله الأمم السامية بالرسالات النبوية ؟ لِمَ لم تظهر هذه الرسائل فى الهند أو فى الصين أو فى القارة الأوربية ؟ لِمَ كانت هذه الرسائل هى الدور الذى تهيات له أمة واحدة فى وسط العالم : أمة وسطا كما نعتها القرآن الكريم ؟

تلك أسئلة غامضة تظل على غموضها ، حتى ننظر فى الأحوال النفسية التى يكون عليها الانسان بين الحضارة والبداوة ، ولا تهيت له الحضارة

على انفراد ، ولا البداوة على انفراد ، بل لابد فيها من التقاء الشعورين وامتزاج المجتمعين ، ولم يحدث قط انهما التقيا وامتزجا على هذا النحو في غير البلاد التي قامت عليها الحضارات الأولى ، وظلت زمنا طويلا جامعة بين الصحراء والمدنية والأقطار المتحضرة ، كأنها خلقت للنهوض بهذه الأمانة ، ثم نهضت بها ونشرتها في جميع أنحاء العالم ، فهي دورها الأكبر بين سائر الأدوار التي توزعتها الأمم والعصور لماذا كانت مدن القوافل أو المدن القريبة من الصحراء ، أصلح البلاد للرسالة النبوية ؟

انها صلحت لذلك لأن الأحوال النفسية التي تتوافر فيها لا تتوافر في حضارة العمران المتصل ولا تتوافر في الصحراء المنعزلة ولا تتم أسبابها الحسنة ولا أسبابها السيئة في بيئة أخرى كما تتم في المدينة حولها الصحراء . فأما القطر الذي يتصل عليه العمران فهو مختلف من هذه الناحية ، وأما الصحراء التي تنزل عن العمران فهي من هذه الناحية مختلفة كذلك ، وسنرى أوجه هذا الاختلاف في عرض موجز لهذين الطرفين المتقابلين ثم نعود الى الوسط الذي يلتقيان لديه ان القطر الذي تتصل فيه الحضارة وتتلاحق فيه مظاهر العمران يعطينا المشتريين والكهّان ولا يعطينا الأنبياء المرسلين أو الرسل ففي هذا القطر يسرى العرف وترتقى العادات الاجتماعية ، ويستقر نظام القانون والمعاملة وقد يتقدم أهله في ادراك العقائد الدينية من طريق تقدم المجتمع وتقدم الثقافة ومعاهد التعليم بل هو قد يتقدم قبل البداوة الى ادراك عقيدة الوحدانية ، لأن الدول الكبار تنشأ في مبدأ أمرها من قبيلة تتسلط على قبائل أصغر منها ، ثم يجتمع من القبائل شعب كبير يتسلط على شعوب أصغر منه ، فتقوم دولة الحضارة من امتزاج هذه القبائل والشعوب ، وتتقدم الى الايمان بالوحدانية كلما اشتركت في عبادة واحدة يفرضها الشعب الذي سادت عبادته على مختلف العبادات

فالقبيلة القوية تفرض على القبائل الصغيرة أن تطيع ربا كما تفرض عليها أن تطيع أميرها ، ثم يجتمع من هذه القبائل شعب كبير يفرض على الشعوب التي دخلت في حوزته أن تطيع ربه وأن تدين بديانته ، ولا تزال كذلك حتى يتوحد لها رب معبود تدين له جميعا وتؤمن بوحدانيته وتؤمن بسيادته على جميع الأرباب زمنا ، حتى يبطل التعدد ويستقر التوحيد

ان دولة الحضارة التي تقوم على هذه الأسس قد تسبق البداوة الى الايمان بالوحدانية ، ولكن مسألة الدين فيها تؤول الى سلطان الكهان ، وهم أعداء الأنبياء ، وعداوتهم لهم تتكشف للعيان حتى في الأمم التي تعودت أن تتلقى الرسالات النبوية منذ عهد بعيد

فلما توطن سلطان الكهنوت في بني اسرائيل خرج من الكهان أنفسهم من يتنبأ وينكر دعوة النبوة على غير أصحاب الكهانة ، وقال زكريا صاحب آخر كتاب - قبل الأخير - من كتب العهد القديم :

« .. يقول رب الجنود اني أقطع أسماء الأصنام من الأرض فلا تذكر بعد ، وأزيل الأنبياء أيضا والروح النجس من الأرض ويكون اذا تنبأ أحد بعد أن أباه وأمه - والديه - يقولان له : لا تعيش لأنك تكلمت بالكذب باسم الرب ، فيقطعنه أبوه وأمه - والداه - عندما يتنبأ ، ولا يلبسون ثوب شعر لأجل الغش ، بل يقول : لست أنا نبيا أنا انسان فالج الأرض لأن انسانا اقتناني من صباى ، فيقول له : ما هذه الجروح في يديك ؟ فيقول : هي التي جرحت بها في بيت أحبائي »

ويحدث أحيانا أن يتصدى الكاهن للنبي لحماية لعرش الملك كما فعل الكاهن أمصيا حين وبخ النبي عاموس وأنذره بالرحيل من بيت ايل : « فأرسل أمصيا كاهن بيت ايل الى يربعام ملك اسرائيل قائلا : قد فتن عليك عاموس في وسط بيت اسرائيل لا تقدر الأرض أن تطيق كل أقواله . لأنه هكذا قال عاموس : يموت يربعام بالسيف ويسبى اسرائيل عن أرضه ، فقال أمصيا لعاموس : أيها الرائي اذهب . اهرب الى أرض

يهودا وكل هناك خبزا ، وهناك تنبأ . وأما بيت ايل فلا تعد تنبأ فيها بعد ، لأنها مقدس الملك ، وبيت الملك

« فأجاب عاموس وقال لأمصيا ، لست أنا نبيا ولا أنا ابن نبي ، بل أنا راع وجاني جميزة فأخذني الرب من وراء الضأن ، وقال لى الرب اذهب تنبأ لشعبي اسرائيل »

وقد ينقسم الكهان والأنبياء الى معسكرين عند الاختلاف على ولاية العهد ، كما حدث عندما وثب (ادونيا) بن داود لاغتصاب العرش .. : « وأعد لنفسه عجلات وفرسانا وخمسين رجلا يجرون أمامه ، ولم يفضبه أبوه قط قائلا : لم فمت هذا رهو أيضا جميل الصورة جدا . وكان كلامه مع .. أبياتار الناهن وأما ناثان النبي .. فلم يدعه »

وحدث في أوقات شتى أن مساومة السياسة وصلت الى الايمان بالاله المختار ، فترك المازك عبادته وعبدوا (البعل) وصنعوا له التماثيل ، فتزوج آخاب ملد اسرائيل بنت ملك صيدا « وسار وعبد البعل وسجد له وأقام مذبحا لبعل في بيت البعل الذى بناه في السامرة »

وحدث هذا من أحد أبناء داود .. فلم يستقم آحاز في عيني الرب كداود أبيه « بل سار في طرق ملوك اسرائيل وعمل أيضا تماثيل مسبوكة للبعليم » (١)

وكان النبي أرميا ينمى على الأنبياء انهم يتواطأون على نسيان اسم الاله « كما نسي آباؤهم اسمى لأجل البعل » . واستمرت هذه المساومات الى عهد النبي هوشع الذى تخيل أمة اسرائيل مزفوفة الى (يهوا) لا تدعوه باسم البعل وتنزع أسماء البعل من فمها

حدث هذا بين بنى اسرائيل ولم يطل بهم عهد الملك والاستقرار ولم يزل اكثرهم رعاة يتنقلون في البادية ، ولم يزل من هؤلاء الرعاة أناس يجهرون بالنبوة بين حين وحين ، فليست دعوة النبوة بالدعوة التى تشيع وتجذب اليها الأسماع في مواطن الحضارة القديمة بعد استقرار العمران

(١) الاسحاح السابع . سفر الملوك الاول

فيها بعاداته وآفاته مئات السنين أو ألوف السنين ، وليس بالنادر في هذه المواطن أن يعلم الكهان حقيقة الوحداية ويتركوا الشعب وشأنه يعبد الأصنام والأرباب المتعددة ويتخذ له في كل اقليم ربا مقصورا عليه ويستبقون اله الدولة الأكبر لمراسم الدولة الكبرى في الأعياد والمواكب

التي يشهدها أصحاب التيجان ورؤساء الكهان

وإذا شاع الفساد في مواطن الحضارة فالمسألة في هذه الحالة مسألة تشريع وقانون أو مسألة تنظيم وتديير ، وربما حالت ألفة العادات الفاسدة دون التنبيه لاصلاحها بالتشريع أو بالتنظيم

وأوضح الأمثلة على موقف الحضارة بالنسبة للدعوات الدينية هو مثل الملك اخناتون بالديار المصرية . فان دعوة اخناتون بلغت بالتوحيد أعلى مرتقاه في تلك العصور ، وبلغت بتنزيه الاله غاية لم تدرکها حتى اليوم بعض الأمم في البلاد الشرقية أو الغربية ، ولكنها دعوة جاءت من طريق الأوامر والقوانين ، ولم تلبث أن ذهبت بذهاب الملك الذي أصدر تلك الأوامر والقوانين ثم عادت الحضارة الى مجراها كأنها لم تنحرف عنه في عهد الملك الراحل طرفة عين

فليست بلاد العمران المتصل مهذا صالحا للرسالة والنبوة ، فما حال الصحراء التي انقطع ما بينها وبين العمران كل الانقطاع ؟

ان لم يكن شأنها في أمر الرسالة النبوية شأن العمران المتصل فما هو بأصلح منه ولا أيسر

فليس في الصحراء التي انقطع ما بينها وبين العمران من شريعة غير شريعة العدوان ، ولا عمل للقبائل فيها غير الاغارة والاستعداد لدفع الغارات من الآخرين . وربما تفاهموا على آداب الجوار والمهادنة كأنها من التدبيرات العملية التي لا ترتقى الى طبقة الفضيلة والعقيدة ، وربما تحل بعض الناس فيها بمناقب الشجاعة والسخاء وما اليها من مناقب الميادين وشمائل السيادة والرئاسة . أما أن يتعارف المقاتلون المنقطعون عن العمران على الحقوق والفضائل وخلائق الصلاح والاستقامة التي

ينشرونها باسم الاله ويستمعون وحيها من نذر السماء فذلك من وراء التخييل فضلا عن التفكير

وقد عرفت في البداوة حالات قريبة من عقيدة التوحيد ولكنها لم تعرف حتى كان أصحابها معروفين لأهل العمران في المدن المجاورة ، ولولا ذلك لما اتصل خبرها بالتاريخ

فحالة البداوة التي ترشح أصحابها لعقيدة التوحيد هي حالة البدوي المترقى من عبادة الجن والعفاريت الذين ينتشرون في كل موطن الى عبادة رب كريم يرعاه حيث سار وحيث أقام ، فهذه الحالة من البداوة ترشح صاحبها للايمان بالاله الموجود في كل مكان . لأن الايمان باله «محلى» محصور في مكان واحد عبث ينفر منه طبعه ولا يلائم مطالب عيشه ، ولا يتكفل له بالأمان الذي يتطلع اليه في حله وترحاله ..

وكثير من أهل البادية الأقدمين من يجمعون بين عقيدة التوحيد وبين الوثنية على نحو يوافقهم في حالتى المقام والمسير فيتخذون لهم تماثيل يحملونها معهم ويرمزون بها الى الاله ، وقد بقيت هذه التماثيل عند قبائل بنى اسرائيل الى ما بعد أيام داود عليه السلام ، وهى التماثيل التى كانوا يسمونها بالطرافين ويقتنيها أصحاب كل بيت كما يقتنون اللوازم المترلية ..

ولكن هذا التوحيد كتوحيد أهل الحضارة الذى تقدم ذكره - كلاهما لا يخلق الجو الذى يلائم الرسالة النبوية ، ولا بد لهذا الجو من شىء يأخذه من البداوة وشىء يأخذه من الحضارة ، ولم يتحقق ذلك فى غير مدينة القافلة وما اليها

لابد من النخوة الحية التى تتوقد بما تعتقد وتحس فى أعماقها ان العقيدة حياة تحياها وليس قصاراها أنها تدير من المجتمع أو قانون من الدولة ..

لابد من بساطة التصديق الذى لا يعرف التردد ولا يحسن اللف والدوران وتخريج الكلمات وتزييف الشعائر والأحكام

لابد من الاستغراق في الايمان على وجهة واحدة لا تتحمل ولا تتأول ولا تجعل العقيدة أجزاء مفرقة تتوزعها النصوص والفتاوى وتتعاورها^(١) المتون والشروح ..

لابد من الجمع بين سهولة التغيير وصعوبة التغيير في وقت واحد ، وهذه خصلة تيسر للبداءة ولا تيسر في الحضارة ، فليس أكثر من التغيير في حياة البدوى لأنه أبدا على عزم السفر والانتقال ، وليس أكثر من الثبات في حياة البدوى لأنه محافظ على عهد الآباء والأجداد ينوط^(٢) الفخر كله بما بقى له من التراث القديم

وهذه هي حصة البداءة في تهيئة الجو للرسالة النبوية

أما حصة الحضارة فهي أصول الاستقرار وقواعد الشريعة وحماية المعاملة وأسباب السخط والثورة والدعوة الى التغيير وهذه الأسباب موفورة في مدينة القافلة من جوانبها الحسنة ومن جوانبها السيئة على سواء ، وعندها حصتها وافية لقيام الدعوة النبوية في زمان بعد زمان

فمن الأسباب الحسنة التي تهيأت بها مدينة القوافل للرسالة النبوية « ذمة الحرام » أو الحرم المقدس ، أى المكان الذى تبطل فيه العداوات و فيه الناس من كل ملة ونحلة على سلام بدأ الحرم المأمون من مآثورات المدائن المطروقة بحكم موقعها وتشعب الموارد منها واليها

وقديما نشأت مدائن كهذه بين دولتين متناظرتين على عدااء دائم لا يهدأ الا في تلك المدائن المطروقة ، كمدينة تدمر أو بعلبك في موقعها بين دولة القياصرة من الغرب ودولة الأكاصرة من الشرق ، ويتبع هؤلاء وهؤلاء أخلاط من كل قوم وكل لغة وكل عقيدة ، وبينهم ما لا بد ان يكون بين هذه الأخلاط من التنافر أو من الخصومة أو من التراث والدخول أو من التزاحم في المصالح والتجارات . فان لم يكن هنالك ملاذ يأمنه الجميع وحرم يتسع لعبادة كل عابد وولاء كل حاكم ، تقطعت

(١) تتعاورها : تعاور القوم الشيء تداولوه وتعاطوه . (٢) ينوط :

العلاقات وأحجم الوارد وبارت التجارة وكسدت الأسواق
ومن المدائن ما يقوم في أمة واحدة متفرقة القبائل والبطون بتربص
بعضها لبعض في كل موقع وكل موسم ، ولا غنى لها عن موقع واحد في
موسم معلوم تنسى فيه هذه الفوارق ويتلاقى الناس فيه للمعاملة والمعاونة
لا للقتال والانتقام

فهذه الشقة الحرام احدى الأسباب الحسنة التي تنهياً بها المدائن على
حافة الصحراء لرعاية الحرمات وفهم القداسة في البيع والمناسك ، وكفى
بكلمة « البيعة » نفسها دليلاً على فضل المدائن المطروقة في رعاية حرم
العبادة من أقدم العصور ، وكفى بكلمة « الاحترام » دليلاً على الصلة
بين هذه الحرمات وبين شعور التوقير والرعاية

ومن الأسباب الحسنة تقرير الحقوق واقامة القواعد في المعاملات
وتواضع المختلفين والمؤتلفين على مبادئ الأخذ والعطاء والذمة والوفاء :
وعمل الحاضر للغائب والقريب للبعيد على ثقة واطمئنان

وليس في وسع أحد أن يزعم ان الحقوق والقواعد التي يتعارف عليها
الناس في مدن القوافل تصان في كل صفقة وتحفظ في كل علاقة . فقد
يكون الغش فيها أكثر من الصدق ، والخداع فيها أكثر من الأمانة ،
ولكنهما على أسوأ الأحوال ملزمة للمشاركين فيها لا يجترىء القوى على
الجهر بنكرانها والعدوان عليها ، سواء كان العدوان على قوى مثله أو
على ضعيف غير مرهوب الذمار

ومن الأمثلة التاريخية على ذلك حرب الفجار وحلف الفضول في مكة
المكرمة ، وهي من أكبر مدن القوافل ومن أعظم النماذج لها في جميع
ما ذكرناه ..

ففي حرب الفجار أجاز زعيم من هوازن قافلة للنعمان بن المنذر على
غير العرف المتفق عليه ، اعتراضاً بعزته ومنعته ومكانة النعمان بن المنذر
في الأمم العربية ، فهاجت لها حرب استمات فيها الفريقان حتى شد
بعضهم نفسه بالحبال لكيلا يفر من القتال

وفي حلف الفضول كان سبب الحلف ان رجلا من زييد قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاصي بن وائل وحبس عنه حقه فاستعان عليه الزبيدي جماعة من الرؤساء فلم يعينوه ، فوقف الرجل على جبل أبي قبيس عند طلوع الشمس وصاح يطلب الغوث ، فمن جراء ذلك اجتمعت هاشم وزهرة وتيم بن مرة في دار ابن جذعان فتعاقدوا وتعاهدوا بالله ليكونن^١ يدا واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدي اليه حقه ثم مشوا الى العاصي بن وائل فاتتزعوا منه سلعة الزبيدي فدفعوها اليه ، وقال أحدهم :

سيعلم من حوالى البيت أنا أباة الضيم نمنع كل عار

وقال ابن قتيبة ان قريشا قد سبقها الى مثل هذا الحلف قبيلة جرهم ، فتحالف منهم ثلاثة هم الفضل بن فضالة والفضل بن وداعة وفضل بن الحارث ، فسمى لهذا حلف الفضول وجاءت قريش فسمت حلفها بهذا الاسم لأنه مقصود لما قصده الأحلاف الأولون

وليس بالقليل ما تعلمته الأمم من اقامة « الحوزة » التى يدين لها الجميع بالرعاية ويتعودون عندها أن يجعلوا الدم والعهود فى حماية الاله المعبود ، ومن الجائز ان تعدد الأرباب وتناقض الدعاوى فى موطن واحد يجاور فيه كل دير ، تقيضه ، قد فتح الأعين على ما وراء ذلك من السخرية والتهافت ، ولا سيما أعين الطارئين العابرين من أهل البادية الدارجين على البساطة واجتناب المتناقضات

أما الأسباب السيئة التى أوجبت قيام الدعوات النبوية فى تلك المدن فهى أسباب قوية كثيرة لم تكن توجد يومئذ فى غيرها بهذه القوة وبهذه الكثرة ..

وأقوى تلك الأسباب مساوىء الاحتكار والاستغلال .. فان تجارة العالم اذا توقفت على مدينة هنا ومدينة هناك صارت فى كل مدينة الى فئة قليلة من السادة وأصحاب اليسار يحتكرون المقايضة والنقل ويبرعون فى أساليب الماكسة ورفع الأسعار وزيادة الضرائب والأجور على الرجال

والمطايا وجند الحراسة ، ويغتنم هؤلاء المحتكرون فرصتهم فيخدعون البسطاء ويحتالون على الأصول والشرائع ، ويأخذون باليمين والشمال من الوارد والصادر والغادى والرائح ولا حيلة للتجار فيهم ولا لناقلى التجارة لأنهم قابضون على الزمام ، وليس فى قدرة دولة أن تحاربهم الا بالاشتباك فى الحرب مع دولة أخرى ، أو بانفاق أموال فى الغزو والحصار تزيد على الأموال التى يغتصبها المحتكرون أو يختلسونها ، وقد يفلو هؤلاء المحتكرون فى الجشع والتحكّم حتى يدفعوا الدول الى المخازفة بالغارة مرة تريحها من مرات

كذلك صنع انتيجون خليفة الاسكندر مع أهم هذه المدن فى زمانه وهى سلع (أو البتراء) فجرد عليها حملتين ولم يفلح فى غزوها ، وهاجمها تراجان بقوة كبيرة فدمرها وحول الطريق منها الى بصرى ، ولم يبق من حولها غير مدن صغار

واشتهرت سدوم بين هذه المدن بالظلم وسوء المعاملة وسلب الغرباء وتدليس^(١) القضاء ، وفى قضائها يقول المعرى :

وأى امرىء فى الناس ألقى قاضيا

ولم يمض أحكاما كحكم سدوم

ومن أمثلة هذا القضاء فى احتياله على الشريعة ان رجلا اسمه حضور رأى طارئا غريبا أعجبه فى رحله بساط ملون فدعاه الى منزله ليبيت فيه وسرق منه البساط ، فلما طلبه الرجل قال له انك حالم ، وان تفسير البساط الملون فى الرؤيا انك تزرع أرضا ينمو فيها الثبت من كل لون ، ثم ساقه الى القاضى ليعطيه أجره على تفسير رؤياه ، فقضى له بالأجر المطلوب ..

ومن أمثلتها أنهم سرقوا اليعازر خادم ابراهيم عليه السلام ، فلما أخذ بتلايبهم ضربوه ورماه أحدهم بحجر وساقه الى القاضى يطلب منه أجره على فصده ، ولم يخلصه من حكم القاضى الا انه ضربه بحجر وأسأل دمه ، ثم قال له اننى نزلت عن أجرى كى تعطيه لغريمى !

(١) تدليس : دلس الرجل كتم عيب الشيء عن الآخر ومنه التدليس

وفي المشنا أسماء يزعمون ان يعازر هذا أطلقها على قضاة سدوم
وهي شقارة أى الكاذب وشقرورة أى المحتال. وكذبان أى المزور ومضل
دين أى المتجانف فى دينوته وقضائه ، وليس أكثر من حكايات التديس
التي تروى عنهم فى كتب المشنا والمدراش
ولا ينسى القارىء ان الجريمة الكبرى التي أحصاها القرآن الكريم
على أهل مدين - ومدائن الحجر عامة - انهم يختلسون ويظفون
الكيل :

« والى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ،
ولا تنقصوا المكيال والميزان انى أراكم بخير وانى أخاف عليكم عذاب
يوم محيظ ويا قوم أوفوا المكيال والميزان ولا تبخسوا الناس
أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين »

ولا يلبث الترف ان يجنى جنايته على هؤلاء المحتكرين فيغيريهم بكل
مفسدة ويجلب الى بلادهم كل فاسد ، وشر هذه المفاسد فى أعين أبناء
القطرة من قبائل البادية رذائل الشذوذ وتدنيس غريزة النسل التي
تصونها تلك القبائل على فطرتها ، وهم توجد مدينة من مدائن القوافل
سلمت من هذه الرذائل ، حتى قالت كتب المدراش ان طوفان نوح انما
كان من جرائم هذا الشذوذ فى قومه ، وانه كان فاشيا فى بيت المقدس
يوم أنذر النبى حزقيال قومه بالنهى أو بالسبى والتشريد (١)

هذه الأسباب جميعا هي التي هيأت مدن القوافل للدعوات الدينية ،
لأنها دعوة تنهياً أسبابها بين الحاضرة والبادية ولا بد لها من التقاء هذه
وتلك ، ولا غنى لها عن صفات المدينة وصفات الصحراء . ولحكمة بالغة
قال النبى صلوات الله عليه : « ما من نبى الا وقد رعى الغنم » .. ولحكمة
بالغة قامت مدينة القوافل بدورها فى تاريخ بنى الانسان . فنشأ الحكماء
والنساك فى الصين والهند على مثال كنفشيوس وبوذا ولم ينشأ فيهم
الأنبياء المرسلون والرسل المجاهدون . اذ كانت أمانة النبوة المجاهدة

(١) صفحة ٢٤٦ من المجلد الاول وصفحة ٤٢٠ من المجلد السادس من اساطير اليهود

شيئا غير أمانة الاصلاح والتعليم ، وما عهدنا سورة العقيدة تملأ الوجدان كله وتشغل الحياة كلها كما عهدناها في المرسلين الى الأقسام الذين عاشوا على هذه الرقعة الوسطى من العالم ، وتلقوا عقائدهم كأنهم يصلون الأرض بالسماء صلة اللحم والدم ، ولا يحسبون سمة من سمات الأدب والمعرفة وكفى ، أو نصا من نصوص الشريعة والنظام وحسب ، أو نهجا من مناهج السلوك ولا زيادة

وأحسب لو اتنا بدأنا دراسة التواريخ الدينية في الشرق العربي على ضوء هذه الحقيقة منذ بداءة النظر في هذه التواريخ لما تسرع المتسرعون بالنفى والانكار تارة والفهاة وسوء الفهم تارة أخرى ، بل كان من الميسور لهم أن يربطوا الدعوات الدينية كما ترتبط الحلقات في السلسلة الواحدة ، وأن يملأوا فراغ التاريخ بما يسده ، بدلا من خلق الفراغ حيث لا فراغ ..

ان بعض الفلكيين قد عرفوا أماكن الكواكب المجهولة قبل اختراع المجاهر المكبرة ، لأنهم قدروا موقعها من الفلك بحساب المدارات والأحجام ..

وقد عرف بعض الكيمييين أماكن عناصر لم يشهدها في الطبيعة ، لأنهم قدروا نسبة الكهارب والنواة فيها الى العناصر المشهودة

ولو اتنا تتبنا سلسلة الدعوات في مواقعها وتواريخها لما قال المتشككون : ان ابراهيم لم يوجد .. بل لتالوا : هنا مكان لا ابراهيم لا بد أن يشغل ، واستطاعوا بالبحث والمقارنة وتعليق النتائج بمقدماتها ان يربطوا بين أور وأشور وبيت المقدس وجاشان والبتراء ومكة ، لأنها نسق واحد يدل الأخير منه على الأول كما يتقدم الأول منه في زمانه ووضع على الأخير.. فكلها دعوات لا بد فيها من شخص الرسول ولا بد فيها من عنصرى الحضارة والبداءة ، ولا بد فيها من تمام الجزوء ووصل المقطوع واطراد مراحل التطور على نهجه الوحيد ، وليس له نهج وحيد أصح من نهجه الذى هيأته أسباب الدعوات موقعا بعد موقع ، كما تعينت

مواقع الكواكب في دراسة الفلك ومواقع العناصر في دراسة الكيمياء أو لعلنا نصل الى النتيجة من درب قريب اذا اعتمدنا علي قياس التاريخ بمقياسه الذي لا يقبل الخطأ : وهو تصور الحوادث كما يرسمها الواقع والعقل . فان هذا المقياس شبيه بمقياس العمليات الحسابية في التمييز بين الخطأ والصواب ، وما علينا اذا أردنا أن نمتحن حادثة تاريخية ، أو سلسلة من الحوادث التاريخية ، الا أن نسأل أنفسنا : كيف ينبغي أن تحدث ؟ فاذا ارتسمت لنا على الترتيب الذي يقبله العقل ويطباق الواقع فذلك هو الامتحان الصادق وما نستخلصه منه هو الصواب كأصدق ما يمكن أن يصوره تاريخ الحوادث لمن لم يشهدا شهادة العيان

اذا كانت دعوات النبوة متصلة بمدائن القوافل فليس أولى من بلاد النهرين في العصر القديم أن تبدأ منها الدعوة الأولى ، ثم تتلوها المدن الأخرى على حسب مكائنها ومكانها من حيث النظر الى الطرق العالمية ومظاهر الحضارات المختلفة

فالدول القديمة بين النهرين لم يكن لها نظام غير النظام الذي اشتهر في علم السياسة باسم نظام « حكومات المدائن » لأنه يقوم على مدن أربع أو خمس من العواصم العظمى تحيط بها البادية التي تزرع مرعاها أو ترعى ماشيتها في المزارع الطبيعية وتساfer بالقوافل على حسب مراحلها ، ويجوز أن تتغلب دولة واحدة على جميع هذه المدن الى فترة قصيرة كما يجوز أن تتفرق وأن تنفرد كل منها بحكومتها ، ولكنها على الحالتين مدائن تحيط بها البادية وتعتمد على نقل التجارة من أقصى العالم المعمور الى أقصاه في الأزمنة القديمة

وترتيبها على حسب مكائنها ومكانها في وادي النهرين ، وفي العالم كله : يبدأ من مدينة (أور) في الجنوب وينتهي الى مدينة أشور شمالا ، ثم يتجه غربا وجنوبا الى فلسطين ومدن خليج العقبة فالحجاز ، حيث تلتقى قوافل الشمال وقوافل الجنوب .

فمدينة (أور) أهم هذه المدائن لأنها تتلقى التجارة من البحر ومن البر

وتنقلها من الشرق الى الغرب ومن الغرب الى الشرق ، كما تنقلها بين الجنوب والشمال ..

ويليها في مكانها ومكانتها مدينة أشور لأنها تأخذ من الجنوب وتوزع على ما حولها ، وقد تصل قوافلها الى أقصى الشمال من القارة الأوربية كما تصل الى آسيا الصغرى وأوربة الشرقية ..

وفي مدينة (أور) بدأت دعوة ابراهيم ، والى مدينة (أشور) انتقلت ولم يطل بها القرار في هذه النقلة العاجلة وهنا كان مبدأ الدعوة النبوية التي لم يكن لها نظير في غير هذه البقاع من أوطان الأمم العربية الأولى

ويطرد الترتيب بزمانه كما يطرد بمكانه ، فمن أشور الى حبرون أو بيت المقدس ، الى مدن خليج العقبة الى مدينة الحجاز المقدسة ، وعندها نهاية المطاف ..

جاء في تاريخ مكة قبل أيام اسماعيل ان مضاض بن عمرو كان يعشر (أى يفرض ضريبة العشر) على من دخل مكة من شمالها ، وان السמידع كان يعشر على من دخل مكة من أسفلها

وجاء في العهد القديم ان الخليل قدم العشر لصاحب بيت المقدس (ملكى صادق) لأنه سادن الاله العلى في محرابها الأعلى

نظام واحد في مدن القوافل يدل عليه هذان التاريخان المنفصلان وتتوالى الدعوات النبوية بعد ذلك على حسب المكانة بين مدن القوافل ، وعلى حسب المكان من بقاع الهلال الخصيب والجزيرة العربية ..

فلما بدأ تاريخ الدعوة النبوية من أور الى أشور الى بيت المقدس الى مدن الجنوب كانت هذه المدن الجنوبية على غايتها من الازدهار وعلى غايتها من الفساد ، وكان لها دورها الذى انتهى بكوارث الزلازل أو الهزيمة ..

وبقيت شواهدا في خرائبها تنطق بما كان بينها من صلوات ومعاملات
ففي البتراء محاريب الحجارة السود التي تساقطت من السماء ، وفيها
هيكل النت أو الربة المصرية « ايزيس » .. وما ايزيس ؟ .. أتكون هي
العزى التي عبدت زمننا في الجنوب ؟

تكون أو لا تكون .. فالرواة الذين أرخوا ظهور الأصنام في الكعبة
المقدسة بمكة لم يدرسوا الآثار المصرية ولم يدرسوا الأحافير التي
درسها المصريون في القرن العشرين ، ولكنهم أرخوا الأصنام فقالوا :
ان سيد مكة في زمانه (عمر بن لحي) سافر الى الشام وعاد منها
بطائفة من الأصنام ، وان أبناء اسماعيل بالحجاز تعودوا عبادة الأنصاب
لأنهم كانوا يحملون معهم الحجارة المقدسة للتبرك بها كلما ابتعدوا من
الحرم ، ثم انتقلوا من التبرك بها الى عبادتها مع طول الزمن ، وكانت
روايتهم هذه مصدقة لما فعله أتباع ابراهيم وموسى وسائر الأنبياء في
الأماكن الأخرى ، فهكذا تحولوا من عبادة الاله الواحد الى عبادة
الأنصاب والتعاويد والتماثيل والطرافين

وسواء صح هذا كله أو لم يصح فالصحيح الذي لاشك فيه أن
الصلة الدينية والثقافية واللغوية والتجارية لم تنقطع قط بين النبطيين
والمكيين ، واننا لو سلطنا التاريخ الديني طردا وعكسا ، ثم سلطنا
عكسا وطردا ، لما كان له من مسلك أقوم وأثبت من بدايته ونهايته بين
(أور) في جنوب العراق ومكة في وسط الحجاز !

وإذا كان التاريخ يرتسم على هذه الصورة معقولا وموافقا للواقع أو
ما ينبغي أن يقع ، فلا وجه للشك فيه ، بل الوجه كل الوجه أن نلتمس
من طريقه هذا أسباب اليقين

النسبة

عثر الباحثون في آثار بابل وأشور على كلمات كثيرة في الألواح المسامرية من مصطلحات علم الفلك القديم ، ومنها أسماء المنازل والبروج ومجاميع الكواكب والنجوم وأكثر الباحثين في الآثار البابلية والأشورية معنيون بمباحث التوراة ونواريخ الأنبياء ، لعلاقتها بأرض بابل أيام الخليل ثم أيام السبي بعد عصر الخليل بأكثر من ألف سنة ، فهي علاقة تمتد من أقدم العصور الأثرية الى أحدثها ، أى من قبل عصر الخليل الى ما بعد عصر الميلاد فعاد الباحثون الى كتب العهد القديم يعارضون عباراتها على الكلمات المسامرية ولا سيما الكلمات التي تطلق على الشئون السماوية ، فتوقفوا عند كلمات مختلفة كانوا يرون بها ولا يلتفتون لمعنى فيها غير ظاهر معناها .. وعن بعضهم ان بعض الأنبياء من العبرانيين كانوا على علم بالفلك ، وأن النصوص التي كتبت بها نبوءاتهم تثبت علمهم به على نحو قاطع أو على ترجيح يقرب من اليقين ..

وليس لابراهيم كما هو معلوم نصوص محفوظة منسوبة اليه ووجدت نبوءات يعقوب فعارضوها على معلوماتهم من اللغة المسامرية ، واختاروا منها ما كان من قبيل الطوالع الفلكية وهي الطوالع التي احتواها الاصحاح التاسع والأربعون من سفر التكوين وفيها ينبيء يعقوب أبناءه بما يصيبهم في آخر الأيام ، فترأى لهم ان التوافق بين ألفاظها ومنازل السماء أوضح من أن يعزى الى المصادفة ، وهذا هو الاصحاح الذي وجهوا اليه معظم البحث في كلام يعقوب :

« ودعا يعقوب بنيه وقال اجتمعوا لأنبئكم بما يصيبكم في آخر الأيام . اجتمعوا واسمعوا يا بنى يعقوب واصغوا الى اسرائيل أيكم

« رأوين أنت بكرى ، قوتى وأول قدرتى ، فضل الرفعة وفضل العز . فائرا كالماء لا تتفضل ... »

« شمعون ولاوى أخوان ، آلات ظلم سيوفهما ، فى مجلسهما لاتدخل نفسى .. بمجمعهما لا تتحد كرامتى . لأنهما فى غضبهما قتلانا فى رضاهما عرقبا ثورا »

« يهوذا اياك يحمد اخوتك .. يهوذا جرو أسد .. جثا وربض كأسد وكلبوة ، من ينهضه ، لا يزول قضيب من يهوذا ومشترع من بين رجليه حتى يأتى شيلون وله يكون خضوع شعوب ، رابطا بالكرمة جحشه وبالجنفة ابن اتانه ، غسل بالخمير لباسه وبدم الغنب ثوبه زبولون عند ساحل البحر يسكن ... »

« يساكر حمار جسيم رابض بين الحظائر ... »
 « دان يدين شعبه كأحد أسباط اسرائيل ، يكون دان حية على الطريق .. يلسع عقبى الفرس فيسقط راكمه الى الورا »
 « جاد يزحمه جيش ولكنه يزحم مؤخره »
 « أشير خبزه سمين وهو يعطى لذات ملوك »
 « نقتالى ايله مسبية يعطى أقوالا حسنة »

يوسف غصن شجرة مشرة على عين ... فمررته ورمته واضطهدته
 « ب السهام ، ولكن ثبتت بمتانة قوسه وتشددت سواعد يديه ... »
 « بنيامين ذئب يفترس فى الصباح يأكل غنيمة وعند المساء يقسم نهما »
 هذه الطوالع درست باستفاضة وتدقيق وكتب خلاصة درسها الأستاذ اريك بروز فى كتابه طوالع يعقوب وبلعام (١) فاتتهى منها الى وحدة بين كل اسم من أسماء الأسباط وبين برج من أبراج السماء
 فرأوين الفائز كالماء يقابل برج الدلو ، وقد جاء فى مدارش التكوين ان أباه قال له : جعلت نفسك دلوا ، وبرج الدلو فى منطقة البروج على صورة انسان قائم باسط يديه وآخذ باحدهما كوزا مقلوبا ليسكب

منه الماء ، وفي الكلمة جناس بين كلمة رآب. بمعنى نام واسم رأوبين
وشمعون ولاوى أخوان ، طالع يشير الى برج التوأمن ، وهو برج
اله الحرب زجال عند البابليين ويصورون أحدهما وفي يديه خنجر
والآخر في يديه سلاح شبيه بالمنجل ، والى هذا تشير كلمة آلات الظلم
التي في سيوفهما ، وتشير عرقبة الثور الى برج الثور الذى يتعقبه
التوأمان في السماء كأنهما يطارداه ويعرقبان رجله

ويهوذا ... ربض كآسد وكلبوة . اشارة الى برج الأسد . وقد كان
عند البابليين برجان : أحدهما برج الأسد أرجولا والثانى أرماع وهو
أحد نجوم الدب الأكبر ، وأمام الأسد فى البروج علامة الملك Seonis
Rogulus ... والى هذا يشار بالقضيب الذى تخضع له ملوك

وزبولون عند ساحل البحر يسكن . اشارة الى برج الحوت ، وكان
عند البابليين على صورة أصبعين منفصلتين احدهما ترمز الى الدجلة
Diglat والأخرى الى الفرات Purattu

ويساكر اشارة الى برج اليعمور « حمار جسيم رابض بين الحظائر »
ويلقت الباحثون النظر الى التشابه بين اللون الأشقر وبين يشاكر أو
يساكر ، والى ورود اليعمور بمعنى حمار الوحش ومعنى الطبى فى
اللغة العربية ..

ودان .. حية على الطريق يلسع عقبى الفرس ، والمراد صورة الحية
الشمالية أو عنق الحية ، وموقعه الى شمال برج العقرب ..

أما قوله « يلسع عقبى الفرس » فالاشارة فيه الى النعائم الصادرة
Sagittaru وصورتها كالسنتأور الذى له جسم فرس ورأس انسان ،
ويضعون السلاح على مقدمه وعلى مؤخره وقد يكون فى هذا تفسير
طالع (جاد) الذى يأتى بعد « دان » ويحمله جيش ولكنه يزحم مؤخره
وأشير طعامه سمين ، والكلمة العبرية (لحم) وتتصرف الى برج
السرطان والى جانبه علامة الملك ، ومن ثم يعطى لذات ملوك ..
وعلى هذا النمط يبنى علماء الأحافير فى تفسير هذه الطوالح ، ومن

تفسيراتهم ما هو قريب ومنها ما هو بعيد معتسف ، لارتباط الجنس اللفظي تارة بمدلول الفلك وتارة بمدلول النسب والتاريخ وقد صنعوا مثل ذلك في دراسة طوالع بلعام كما جاءت في الاصحاح الثالث والعشرين وما بعده من سفر العدد ، وقد اشتملت على تكرير عدد السبعة ، وعلى اسم الثور والحمل والظبي والأسد وعلى طوالع الأمم التي ليست من اسرائيل ، وعارضوا المصطلحات الفلكية على أقوال الأنبياء الآخرين ، وثبت على الأقل من هذه المعارضات أن معرفة الفلك كانت شائعة عند كتاب هذه الطوالع ، سواء كتبت على أيام الأنبياء الذين نسبت اليهم أو كتبت بعد أيامهم عندما تحقق بعض الطوالع أو بدا أنه متحقق عما قريب .

فاذا صحت هذه التخريجات - كلها أو بعضها - فهذا موضوع من الموضوعات التي تطابقت فيها الأحافير وأخبار التواريخ الأثرية والتواريخ القديمة ، إذ كانت هذه التواريخ مجمعة على معرفة الأنبياء الأوائل بالنجوم ، وان اختلفوا في المقصود بعلم النجوم

وندع المبالغت من قبيل مفاخر يوسيفوس ودعواه ان ابراهيم هو الذى علم أخبار المصريين أسرار الكواكب وحساب الفلك ، فليس الخبر كله في هذه المسألة خبر تواريخ وروايات . لأن العقل يفرض بغير حاجة الى التواريخ والروايات أن يكون رؤساء القبائل المترحلة على علم بمواقع النجم ومطالع الأفق ومهاب الأنواء ، وقد كان الأنبياء الأوائل رؤساء لقبائلهم لا تبرم هذه القبائل أمرا من الرحلة والاقامة الا بمشورتهم وتوجيههم ، ومقام الأنبياء في بابل حيث يرقب الناس الكواكب لأنهم يعبدونها ولأنهم يربطون بها مواسم الزرع والرى خليق أن يشغلهم بها للمحاجة في شئون العبادة وللنظر في شئون المعاش

وقد جاء في القرآن الكريم ان ابراهيم كان ينظر في النجوم ، وان يوسف كان يعبر الرؤيا وان موسى كان يطلع على سحر الكهان ، فمن موافقات الأحافير انها تأتى بالسند المكتوب انذى يشرح لنا تفصيلات

هذه الأخبار ، ويكاد أن يعين لنا الوقت الذي كتبت فيه طوالع الأنبياء ، لأن تقسيم بروج الفلك قد مر في أدوار متلاحقة من تاريخ بابل ، بعضها محدود على وجه التقريب

والحد الفاصل بين النبوة والكهانة في السلالة العربية مرسوم أو كأنه مرسوم ، فكان الأنبياء هم أول من تولى أمر الدين في أمم السلالة العربية ، وكانوا يسوسون أمر الدنيا فيما تتطلبه الرئاسة ، ومنه علم النجوم ..

ثم افترق عمل النبي وعمل الكاهن ، ووقع بينهما العداء أحيانا كما رأينا في غير هذا الفصل ، فأصبحت الكهانة وظيفة تعارض النبوة في كثير من الأوقات وهنا الفارق الأعظم بين النبوة والكهانة فالكهانة وظيفة ولكن النبوة ليست بوظيفة ، ولم يحدث قط أن أحدا عين نبيا ليعمل النبوة كما حدث كثيرا تعيين الكهان لعمل الكهانة

ان النبوة التي تنفصل من الكهانة خاصة لم تتكرر في غير السلالة العربية ، فما من ديانة كبرى أو صغرى في أنحاء العالم الا يستطيع المؤرخ أن يحيلها كلها من مبدأ التاريخ الى عمل الكهان ، وما من كهانة الا وهي وظيفة قابلة للتعيين

أما ديانات الأنبياء فلا وجود لها في غير السلالة العربية ، والاختلاف بينها وبين الديانات الأخرى ان النبي لا يعينه أحد ولا ينبعث بأمر أحد ، ولكنه ينبعث بباعث واحد من وحى ضميره ووحى خالقه ، وقد يأتي ليصدم العبادات التي يقوم الكهان على شعائرها ومراسمها ، وهم أنفسهم مرسومون معينون ..

والفرق بين النبي وبين الكاهن في جوهر العمل أوسع جدا من الفرق بينهما في التعيين والاختيار ، فالكاهن موكل بالشعائر والمراسم والأشكال ، يحرص عليها ويأبى أن يشاركه أحد فيها ..

ولكن النبي تعنيه روح الدين وحقيقته في الضمير قبل هذه الشعائر والمراسم والأشكال

سريرة الانسان هي وجهة النبي وغايته من التبشير والانذار ، وأما الكاهن فوجهته نظام المجتمع وتقاليد الدولة وما اليها من الظواهر أو الواجبات العامة ..

ولم تخل الديانات الكبرى من أحبار معينين يوجبون على الناس الاستقامة ويحذرونهم غضب الاله على الذين ينحرفون عن سبيلها ولكن الاله هنا أشبه برئيس الديوان الذى يجرى الأحكام وفقاً للمأثور من نظام الدولة ، والكاهن أشبه بمندوبه وأمين سره فى المحاسبة على الشريعة : كلها مسألة نظام ومجتمع ، وكلها مراسم وتقاليد

أما النبي فالعالم الذى يصوره لنا أسرة حية ، والاله قائم على ذلك العالم لأنه على صلة قريبة بكل من فيه من خلقه ، وكل كائن من تلك الخلائق رهين^(١) برضاه وغضبه ، وذو شأن فى دعوة الدين مقدم على شأن المجتمع والدولة ، وأهمه وأصدق ما كان فى الضمائر والنيات

والنبي ذو شأن حى فى دعوته يلعب نفسه ولا يريجه دون أن يبرىء منه ذمته ، وليس كذلك جماعة الكهان الذين لهم محل مستقر وعمل راتب وعلاقة بالناس كعلاقة المصلح والأشغال

وهنا أيضا نرجع الى « القبيلة » ولا سيما القبيلة فى حالة الشعور بالخطر كائنا ما كان ، فضلا عن الخطر الأبدى الذى يحيق بالحياة وما بعد الحياة ..

فلا ينتظر من المصلح أو المعلم أو الكاهن فى بلاد الحضارة وال عمران أن تخامره نخوة اللحم والدم كما تخامر النفس التى تعودتها فى كل شعور وفى كل علاقة ، ولم تعرف حالة غيرها فيما بينها وبين الناس واذا كان هذا الطابع ملازما لبعثات الرسالة حول مدن القوافل جميعا فقد عرفنا ما نفتقده اذا افتقدنا سرا من أسرارها ، وعرفنا كيف تتببع آثارها اذا انقطعت الصلة بين سوابقها ولو احقها ، فلا نخبط على ضلال ، ولا نضيع البحث فى شكوك محيرة للسالك ، لا موجب لها على هذا المهيج المسلوك ..

(١) رهين : مرتبط ومعلق .

أنبياء من غير بني إسرائيل

كلمة النبي عربية لفظا ومعنى
عربية لفظا ، لأن مادة النبأ والنبوءة أصيلة في اللغة
وعربية معنى ، لأن المعنى الذي تؤديه لا تجمع كلمة واحدة في اللغات
الأخرى : فهي تجمع معانى الكشف والوحي والإنباء بالغيب والإنذار
والتبشير ، وهي معانٍ متفرقة تؤديها اللغات الحديثة بكلمات متعددة ،
فالكشف مثلا تؤديه في اللغة الانجليزية كلمة Revelation والوحي تؤديه
كلمة Inspiration واستطلاع الغيب تؤديه كلمة Divination أو Oracle
ولا تجتمع كلها في معنى النبوة كما تجتمع في هذه الكلمة باللغة العربية
وقد وجدت كلمة النبوة في اللغة العربية غير مستعارة من معنى آخر ،
لأن اللغة العربية غنية جدا بكلمات العرافة والعيافة والكهانة وما إليها
من الكلمات التي لا تلتبس في اللسان العربي بمعنى النبوة كما تلتبس
في الألسنة الأخرى عند أصل التسمية واشتقاق المعانى الجديدة من
الألفاظ القديمة ..

فكلمة النبي تدل على معنى واحد لا تدل على غيره ، خلافا لأمثالها
من الكلمات في كثير من اللغات

والعبريون قد استعاروها من العرب في شمال الجزيرة بعد اتصالهم
بها ، لأنهم كانوا يسمون الأنبياء الأقدمين بالآباء ، وكانوا يسمون المطلق
على الغيب بعد ذلك باسم الرائي والناظر ، ولم يفهموا من كلمة النبوة
في مبدأ الأمر الا معنى الانذار

وقد أشارت التوراة الى ثلاثة أنبياء من العرب غير ملكي صادق الذي
لقيه الخليل عند بيت المقدس ، وهؤلاء الأنبياء الثلاثة هم يثرون وبلعام
وأيوب ، ومنهم من يقال انه ظهر قبل اثنين وأربعين قرنا ، وهو أيوب

وقصة بلعام تروى لنا ما يحدث بين شيوخ مديان (مدين) بعد خروج بنى اسرائيل من مصر ، فان بالاق ملك موآب قد استعان عليهم بالنبي بلعام من تخوم العراق ، ليبتل دعواهم باسم النبوة ويدحض أقوالهم بأقوال من قبيلها ، فجاء بلعام وحكم بتفضيل عبادة الله على عبادة بعل الذى كان يومئذ معبودا للموآبيين

وأما يثرون فهو نبي مدين قبل خروج بنى اسرائيل من مصر ، ويظن بعض الشراح أنه هو شعيب المشار اليه فى القرآن ، ولعل شعيبا هو قريبه (هو باب) أو شوياب بمعنى محبوب الله .. وبين النطق العربى والنطق العبرى تقارب محسوس ، ومن شراح التوراة من يقول ان « يثرون » لقب وليس باسم يدعى به نبي مدين ، فلا يعد اذن ان يكون شعيب اسمه الذى لم يذكره

ومجمل القصة مع قصة بلعام يفيد أن النبوة كانت معهودة متكررة فى تلك الأرض قبل خروج بنى اسرائيل من مصر ، وأيام أن كان موسى سائحا فى الأرض لم يتلق الوحى ولم يرجع الى مصر ليخرج بقومه منها ... أما أيوب فالرحالة برترام توماس صاحب كتاب « مفزعات وكشوف فى بلاد العرب » *Alarms & Exploration in Arabia* يحسبه من أهل عمان ، وغيره يحسبه من أهل نجد ، وزمنه متباعد بين المؤرخين وشراح التوراة ..

ومنهم من استعان بعلم الفلك على تحديد زمنه ، لأنه ذكر النعش والجبار والثريا ومخادع الجنوب فى القبة السماوية ، وفى اشارته الى عين الثور وقلب العقرب من منازل الفلك ما يفهم منه زمان تلك المقارنات على تقدير الفلكيين المحدثين ، وقد ذكر المفسر هالس *Hales* أن هذه المقارنات تجعل تاريخ أيوب قريبا من سنة ٢٣٠٠ قبل الميلاد

ومما يقرب هذا التقدير ويدل على اتصال أيوب بالبلاد المصرية أنه ذكر الأهرام والمدافن التى يبنها الملوك لأنفسهم ، ولكنه اذا لم يبلغ هذا الحد من القدم فلا شك عند جمهرة الشراح فى سبقه لعهد الخروج من مصر ،

وحجتهم على ذلك أنه لم يشر بكلمة واحدة الى الخروج ولا الى خراب المدن التي دمرتها الزلازل بجواره ، ولم يرد ذكر « يهواه » في صلب كتابه ، واما ورد في المقدمة والذيل وهما مضافان بعد عصره كما هو راجح عند الشراح ..

ولم تكن حجته قط في الخلاص وطلب الرحمة أنه يعتمد على موعد الله للأبواب والأسلاف ، وقد جاء في مزامير داود وأمثال سليمان كلام يشبه كلامه كأنه مقتبس منه ، فهو من أقدم الأنبياء في الجزيرة العربية ، وكلهم متفقون على انه من أبنائها وان اختلفوا في مكانه بين شمال نجد وشرق العقبة ومن جامعي التوراة من يضع سفره بين كتب موسى وكتاب يوشع وسائر الأنبياء من بنى اسرائيل ، وهكذا وضعه جامع النسخة السريانية من كتاب العهد القديم

وقد كان أيوب يعرف الكتابة ، ولكنه أشار الى أقدم أدوات الكتابة كما هي معهودة بمصر : نقش بالحديد على الحجر ، وليست طبعا على النطين المحروق أو خطوطا على الأوراق والجلود ، ما عدا طين الخاتم الذي كان يطبع في البلاد الشرقية جميعا على نحو واحد أما عقيدة أيوب كما تفهم من سفره المجموع في العهد القديم فغاية في السمو والكرم والتنزيه

انه ينكر عبادة الشمس والقمر ، ويصف الله التقدير بأنه أعلى من السماوات وأعظم من الهاوية وأعرض من البحر ، وسوى بين الحر والعبد قائلا : « أو ليس صانعي في البطن صانعه وقد صورنا واحد في الرحم ؟ » ويحمد من الغنى أن يكون أبا للفقراء وأن تكتتب نفسه على المساكين ، وأن يبكى لمن عسر يومه ، ويستعيذ بالله أن ينظر انسان الى امرأة غير امرأته وأن يطمع في مال غير ماله وأجل من ذلك شأنا في تاريخ العقيدة الدينية ، انه كان أول من نص على البعث في كتب العهد القديم ، وكانت تربيته الالهية التي انتهى منها

الى هذه العقيدة تربية طويلة صبر فيها على نكبات المرض والبوار وخيانة الأقرين والأبناء ، وتدرج من القول بالزوال والعدم الى القول برؤية الله بعد فناء الجسد ، فكان في أول السفر يقول : « الذى ينزل الى الهاوية لا يصعد » ويقول : « الانسان يضطجع ولا يقوم » و « اذا مضت سنوات قليلة أسلك فى طريق لا أعود منها » ويتساءل : « ان مات رجل أفيحيا ؟ » ثم انتهى من هذه التجارب الى الأمل فى خلود النفس ولقاء الله « فبعد أن يفنى جلدى هذا ، وبدون جسدى ، أرى الله »

وعلى الجملة يبدو سفر أيوب غريبا فى وضعه وموضوعه بين أسفار العهد القديم ، ولم يكن من عادة بنى اسرائيل أن يجمعوا فى التوراة كتباً غير أنبيائهم المتحدثين عن ميثاقهم وميعادهم ، ولكنهم جمعوا هذا السفر مع الأسفار المشهورة لأنهم وجدوه فى بقاع فلسطين الجنوبية محفوظا يتذاكره الرواة ، وحسبه بعضهم من كلام موسى وبعضهم من كلام سليمان ، ولا عجب أن يشيع هذا الكتاب العجيب حيث تسامح به الناس فانه عزاء صالح للمتعزين وعبرة سالحة للمعتبرين ، ولا تزال قصة أيوب منظومة شائعة يتغنى بها شعراء اللغة العربية الدارجة فى مصر والشام ، ولا نعرف كتابا من كتب التوراة ظفر فى رأى النقاد الغربيين بالاعجاب الأدبى الذى ظفر به سفر أيوب ، فقال توماس كارليل عنه انه واحد من أجل الأشياء التى وعثها الكتابة ، وانه أقدم المأثورات عن تلك القضية التى لا تنتهى ، قضية الانسان والقدر والأساليب الالهية بعه على هذه الأرض ، ولا أحسب ان شيئا كتب مما يضارعه فى قيمته الأدبية .. وقال فيكتور هيجو : « انه ربما كان أعظم آية أخرجتها بصيرة الانسان »

وقال شاف Schaff : « انه يرتفع كالهرم فى تاريخ الأدب بلا سابقة وبغير نظير » ..

أما بلعام ويشرون فقد ذكر الأول فى كتب العهد القديم لأنه نصر بنى

اسرائيل فى الخصومة بينهم وبين الموائين ، وذكر الثانى لما بينه وبين موسى من المصاهرة وما كان له من الفضل فى تعليمه نظام الحكم وسياسة القبائل ، وغيرهم ولا شك كثيرون لم يذكروا فى المراجع اليهودية ، اذ كانت هذه المناسبات لا تستوعب تاريخ البقاع بين تخوم العراق وتخوم العقبة وما وراءها من أرض الجنوب

وهذا بعض القرائن على مكانة النبوة فى أرض الجنوب مما يلى سيناء والحجاز ، ومن القرائن الأخرى فى كتب العهدين القديم والجديد يفهم بغير تردد ان تلك البقاع كانت وجهة الأنبياء فى كل عصر تحدثت عنه تلك الكتب . فابراهيم توجه الى جيران وموسى توجه الى مدين (مديان) وبولس الرسول قال فى كتاب غلاطيه انه ذهب الى بلاد العرب قبل أن يأتى الى دمشق ، ولم يفتأ بنو اسرائيل الى عهد المسيح ينعون على الشمال انه لا يخرج منه شىء حسن ، وينتظرون النبوءات من برية الجنوب

ويجب أن يتأنى المؤرخ طويلا عند ملاحظة هذه القرائن المتعددة فهى فى تاريخ الخليل دليل على الوجهة التى يجب ان يبحث عنها المؤرخ اذا أراد البحث الصحيح عن مسلك الخليل فى أيامه الأخيرة ، فانما يكون مسلكه المعقول الى طريق الجنوب ، ولا يعقل له مسلك الى بيت المقدس يستقر عليه قراره ، فان المصادر الاسرائيلية نفسها تقول انه كان غريب الدعوة والموطن فى حبرون ، وانه اشترى مدفنة من الحيثيين ، وما لم تكن له دعوة ولا موطن فى الأرض فالجنوب الذى اتجه اليه ، واتجه اليه أصحاب الدعوات النبوية أخرى أن يكون قبلته ومرجه ، وليس من الغريب أن تتعمد المصادر اليهودية اغفال هذه القبلة والتعلق ببيت المقدس بعد أن قام فيها عرش داود ، فانها الدعوة التى يقومون بها ويسقطون بنفياها ، وفى ذلك وحده تفسير يبنى عن كل تفسير

العقائد والشعائر

من الألف الثالثة الى الألف الثانية قبل الميلاد ، أقام في البلاد العربية أناس من أتباع كل عقيدة دينية عرفت في تلك العصور وكان مركزها الأكبر في بلاد النهرين ، حيث تتابعت الدول فتتبعتها معها الديانات والشعائر ومراسم العبادة

عبدت فيها الكواكب ، وعبدت فيها الملوك ، وعبدت فيها قوى الطبيعة ، وعبدت فيها الأرباب العليا التي تعبدتها رجال الدولة ، وعبدت فيها الأرباب المحلية التي يدين بها أبناء كل اقليم على حدة ، ولا تشترك الأقاليم جميعا في عبادتها ..

وقامت الشعائر على اختلافها مع كل دين من هذه الأديان ، فعرفوا الضحايا البشرية كما عرفوا القرابين من غلات الزراعة في مواسمها ، وعرفوا الصلوات في الهياكل بقيادة الكهان ، كما عرفوا الصلوات في البيوت أو في المدافن الملحقة بها ، وعرفوا الديانات التي تؤمن بالروح والجسد ، كما عرفوا الديانات التي تؤمن بالجسد ولا تذكر شيئا عن الروح ، أو التي تؤمن بأن الروح يلصق بالأعضاء فلا ينتقل الى العالم الآخر ما دام للجسد بقية باقية ..

ومنهم من كان يفهم أن العالم الآخر ناحية من هذا العالم الأرضي أو هاوية في أعماقه ، ومن كان يفهم أنه آت بعد حين في آخر الزمان وشوهد من الآثار والأحافير أن هذه الديانات تتغير كلما تغيرت الدولة القائمة في مكانها ، فيقتضى الدين الجديد على بعضها ويستبقى بعضها أو يحوله الى صورة أخرى

ومعظم هذه الشعائر والعبادات له علاقة بدعوة الخليل ابراهيم ، إما بالاقرار أو بالانكار والتحويل ..

وسبيل الباحثين الى تصفية هذه الشعائر والعبادات عسير بل جد عسير

لاختلاط الأزمنة واختلاط الشعوب واختلاط البقايا في العصر الواحد ، فلا ندري على التحقيق ما كان من عقيدة هذا الفريق وما كان من عقيدة غيره ولا وسيلة الى الجزم بالقديم منها والحديث .
ويصدق هذا على العقائد والشعائر التي يقبلها اناس ويستنكرها أناس آخرون ، ولكنه لا يصدق على العقائد والشعائر التي يمكن أن يقبلها أتباع العبادات المتناقضة في وقت واحد ، كالحج وقد كان مفروضا في الجاهلية وظل مفروضا في الاسلام مع اختلاف العقيدة والحكمة فيه ، وكالتقول عن أصل الخليقة وقد اتفقت فيه الأديان الكتابية على الجملة وظهر من الآثار والأحافير أنه كان من عقائد الأمم الغابرة قبل الأديان الكتابية ، ومالم يأت نص بالمخالفة فليس ما يمنع تعاقب الأديان على قول واحد في هذه الأمور والمتواتر من سيرة الخليل ابراهيم أنه شهد عبادات الأقوام في عصره من أرض النهرين الى وادى النيل ، وأنه تنقل بين أقطار تتناقض في بعض العبادات وتتلاقى في بعضها على اتفاق قريب أو بعيد ، فاذا نظرنا فيما أبقى وفيما ترك وعارضناه على المشهور من عبادات أولئك الأقوام فليس من العسير أن نستخلص رسالته عليه السلام وما فيها من الجديد والقديم ، ومن الوفاق أو الخلاف

وحاصل ما يقال هنا قبل تلخيص العقائد والعبادات في زمانه أن ظهوره عليه السلام قد كان ولا ريب على مفترق من الطرق يختلف فيه الجيلان في البيت الواحد ، فضلا عن الملتين أو القطرين وهذه طائفة من العقائد والشعائر التي كانت لها علاقة بدعوته ، وينبغي النظر فيها قبل التصنيفية التي نخلص منها الى بيان رسالته ورسالة الخالفين من بعده ..

١ - قصة الخليقة

وجدت قصة الخليقة منقوشة بالخط المسماري على الألواح التي عثر عليها المنقبون عند مدينة الموصل ، ونقلوها الى المتحف البريطاني بلندن

حيث تعاون المفسرون على تفسيرها ، وهذه خلاصتها :
« كان الأفق الأعلى لا يسمى بعد السماء ، وكان الأفق الأدنى لا
يسمى بعد بالأرض ، ولما تفتتح الهاوية ذراعيها
« وكان الماء يغمرها جميعا ، وليس من انسان ولا حيوان يجوس خلالها
« وولد يومئذ أقدم الأرباب لخم ولاخامو
« ثم ولد آشور وكيشور »

ويلي هذا بعد كلام مفقود أو مطموس في الألواح المكسورة كلام عن
الخلق في اليوم الرابع حيث صنع منازل لأعظم الأرباب ، وصنع بروج
الفلك على صور الحيوان ، وقسم السنة الى أربعة فصول ، والى اثني
عشر شهرا في كل فصل منها ثلاثة شهور، وجعل فيها أيام المواسم والأعياد
« وصنع للسيارات منازل تشرق فيها وتغرب ، ولا يصدم بعضها بعضا
في الطريق ، ووضعها مع منازل بعل وحى

« وأقام لها مواصد على جوانبها ، واغلقا على اليمين واليسار
« وأقام في الوسط نيرين . أقام القمر يسيطر على الليل ويسير فيه
الى مطلع الفجر ، وقدس في كل شهر أياما ، ليزر في غرة الشهر قرنيه
وينير أجواز السماء »

ثم يلي هذا كلام ناقص عن اليوم السادس يتلى بعد اتمامه على الوجه
الآتي :

« واجتمعت الأرباب وخلقت الوحوش والأنعام والدواب ، ومنها
جماعة بيتى (أنا آشور السماء) .. وكانت فيه بهجة
« والاله المشرف جعل فيها اثنين .. »

وفي المتحف البريطاني لوح عليه صورة شجرة جلس الى جانبها رجل
وامرأة ، ووراء المرأة حية ، وقد بسطا يديهما الى ثمرتين بأسنن الأغصان .
وفحوى قصة خلق الانسان ان الاله مردوخ فاتح الاله (ايا) رب الماء
العذب فأفضى اليه بأنه سيخلق الانسان من دمه وعظمه ، وأمر حاشيته ،

أن تضرب عنقه ليسيل دمه ، فنجم منه الانسان ، ولم يمت الاله مردوخ لأن الاله لا يموت ، ولكن الانسان قضى عليه بالموت بعد ذلك لأنه طمع بآماله الى خلود كخلود الأرباب

٢ - قصة الطوفان

وتؤلف قصة الطوفان البابلية من اثني عشر فصلا على حسب البروج :
وراوى القصة يسمى (اسدبار) وقد عبر بحر الموت ليصعد الى السماء ويلقى زستور الذى ارتفع اليها بعد نجاته من الطوفان ، والباقي من ألواح هذه القصة في المتحف البريطاني يحكيها على هذا المثال

« ابن بيتا واصنع سفينة تحفظ النبات والحيوان ، واخزن البذور واخزن معها بذور الحياة من كل نوع تحمله السفينة ، وليكن طولها ستمائة قدم في ستين عرضا .. وتدخل السفينة وتحكم اغلاقها ، وتضع في وسطها الجبوب والمتاع والأزواد والخدم والجند ، وتضع فيها كذلك أجناس الوحش لتحفظ ذريتها ..

« ... وقال الله ليلا ! انى سأرسل السماء مدرارا ، فأدخل الى جوف السفينة وأغلق عليك بابها ، وتغطى وجه الأرض وهلك كل ما عليه من الأحياء ، وفار الماء حتى بلغ السماء ، ولم ينتظر أخ أخاه ولم يعرف جار جاره . ستة أيام وست ليال ، والرياح تعصف والأنواء تطفى ، ثم كان اليوم السابع فاقطع المطر وسكنت العاصفة التى ماجت كموج الزلزال . سكنت العاصفة وانحسر البحر وانتهى الطوفان ، وعيج البحر بعد ذلك عجيجه ، واستحال الناس طينا وطفقت أجسادهم على وجه الماء

« ثم استوت السفينة على جبل نيزار .. وأرسلت أنا الحمامة فذهبت وعادت ولم تجد من مقر تهبط عليه ، فأرسلت عصفورا السمانه فعاد وماهبط على مكان ، وأرسلت الغراب فراح ينهش الجثث الطافية ولم يرجع ، ثم أطلقت الحيوانات فى الجهات الأربع وبنيت على رأس الجبل مذبحا فقربت لديه قربانا وفرقته فى آنية سبعة وفرشت حوله الريحان ، وشمتم الأرباب

رائحة جيدة فاجتمعت على القربان ، ونظرت أعظم الأرباب من بعيد ،
وارتفعت أقواس السحاب تحيها عند اقترابها «
وقد علم المنقبون أن هذه القصة منسوخة من مصدر قديم أقدم منها ،
فهذه الألواح لا يقل تاريخها عن ألفين وخمسمائة سنة ، والمصدر الذى
نقلت منه يرجع الى أوائل الألف الثالثة قبل الميلاد
وعلم المنقبون فى جميع آثار الأرض التى كشفت فى العالم القديم أو
العالم الجديد أن قصة الطوفان عامة لا تنفرد بها الآثار البابلية ، ولا يقل
تاريخها فى القدم عن تاريخها

٣ - عبادة الكواكب

ومن كلامهم عن الخليفة والطوفان نعلم أنهم كانوا يؤمنون باله عظيم
خلق الآلهة الصغار وقدر لها منازلها فى السماء
وهذه الآلهة الصغار هى الاجرام العلوية ، وأشهرها القمر ، وقد عمت
عبادته بلاد الساميين (أو العرب الأوائل) من وادى النهرين الى سيناء ،
ويسمونه سين ومنها أخذ اسم سيناء ، ولعله فى الأصل من مادة السنى
والسناء ..

وكان له اسم علم فى وادى النهرين هو (نانا) وهو الذى يتوجهون
اليه بالعبادة ، وكان له مركز فى مدينة (أور) بلد الخليل ابراهيم ،
ومركز فى شمال العراق ومعه هناك اله آخر يسمونه مردوخ ، أو المريخ
وفى صلواتهم للقمر يقولون : «يارب . يامن قدرته الوهابة تمتد ما بين
انسماء والأرض ، ومن يجلب الغيوث والمواسم ، ويسهر على الأحياء ،
ومن يعظم فى السماء عالية وصيته ، ومن يعظم فى الأرض عالية وصيته ،
ومن تسبح له الأرواح السماوية والأرواح الأرضية . مشيئتك أنت فى
السماء مشرقة ، ونسألك أن تكشف لنا مشيئتك على الأرض . فان
مشيئتك تظيل الحياة وتبسط لها الرجاء ، وتشمل كل كائن شمولا عجيبا ،
وأنت تجرى العدل على قضاء الانسان ، وما من أحد ينفذ الى سرها أو

يفيس عليها .. أنت رب الأرباب مالك من شبيهه ولا نظير .. «
 وكانوا منذ أقدم العصور على عهد السومريين (أو الشمريين) يرفعون
 الصروح لرصد الكواكب واستطلاع الطريق ، وهى الصروح التى
 يسمونها (زجرات) أو أماكن عالية ، ويعمل المؤرخون المنقبون ذلك
 بنشأة السومريين فى بلاد جبلية ، وان الجبل والشرق والبلد يطلق عليها
 فى لغتهم اسم واحد وهو (كور) ومعناه فى العربية قريب من هذا
 المعنى ، لأنه يُطلق على مجتمع القرى (١) وعلى العمامة وعلى الكارة
 التى تحمل على الرأس أو الكتف ..

وكانت هياكلهم المبنية ترصد للأرباب السماوية ، وتنصب فيها التماثيل
 بأسمائها ، ومن هنا عبادة الأصنام
 وأشهر الكواكب المعبودة بعد القمر كوكب الزهرة (عشتار) وكوكب
 المريخ (مردوخ) . وينسبون الى الزهرة أنها ربة الحب لتألقها وزهوها
 وتقلب أحوالها ، وينسبون الى المريخ أنه رب الحرب لاحمرار لونه
 كلون الدماء ..

على انهم عبدوا الشمس قديما باسم (شماس) وان لم تكن عبادتها
 عامة بينهم كعموم عبادة القمر
 ويقول وولى Woolley فى كتابه عن ابراهيم ، وهو من أشهر علماء
 الأحافير : « ان الآلهة كانوا عند السومريين على ما يظهر ثلاث طبقات :
 الآلهة العظيمة التى تخصص لها هياكل الدولة ، والآلهة التى دونها وهى
 التى تقام لها المعابد فى مسالك الطرق ، ودون ذلك آلهة الأسرة ، والأغلب
 على الآلهة العظيمة أنها كانت تشخص قوى الطبيعة كالشمس والقمر والماء
 والأرض والنار والبرق والنضال والخصب والموت ، وعندها تكمن جميع
 القوى ويكون التفوق بينها على حسب أحوال الربانية المتعددة ، وقد
 كانت لها أقاليم تغلب العبادة لكل منها على اقليم ، ومن ثم لا يفرض
 الولاء الكامل له فى غير ذلك الاقليم . ففى أور عبادة نانا ، وفى أريكة

(١) الدول المدفونة : تاليف باتريك كارلتون Buried Empires by Patrich Karleton

عبادة أشتار ، وقد يتنازعان فتصبح كل قوة مشلولة من جراء ذلك النزاع
« والآن وقد غلبت مدينة لارسا على إقليم الجنوب فقد أصبح شماس
اله الشمس خليقا ان ييسط سلطانه على المدن الأخرى التى دخلت فى
طاغته ، وأصبحت سطوة بابل مرادفة لسطوة مردوخ . ولم يكن فى
السماء قرار ولا برهان الا بمقدار ما فى الأرض من البشر . كلا ولا كانت
نمة شريعة للأخلاق أرفع من شريعتهم »

وقد كانت لهم حجة الى الشمال لاعتقادهم أنه مركز القطب الثابت ،
ولكن التنازع بين دول الشمال ودول الجنوب حال دون الاتفاق على
عبادته ، ويظهر أن الصابئين أو السابحين الذين ظلوا يعبدونه فى الجنوب
بقيت نعتهم فى مكانها على خلاف مع من حولها

٤ - عبادة الملوك

وفى متحف اشمول (١) بانجلترا أسماء الأسر التى حكمت بابل من بعد
الطوفان الى أيام سراجون ، وقد جاء فى الألواح التى حفظت أسماءها
ان الأسرة الأولى تولى منها الملك ثلاثة وعشرون ملكا وكانت مدة حكمهم
جميعا أربعة وعشرين ألف سنة وخمسمائة وعشر سنوات ..

وكتاب الألواح مجمعون على ان الملوك الأوائل الذين حكموا بعد
الطوفان قد هبطوا من السماء الى الأرض لحكمها بعد أن طهرها الله
وعاقبها على فسادها ..

فهم أرباب سماويون تجب عبادتهم على الرعايا .
وأشهر من حكم منهم فى مدينة (أور) أورنامو Ur Nammu صاحب
الصرح الشاهق الذى أقيم لعبادة القمر ، وله تمثال نقل الى متحف
بنسلفانيا بأمريكا ..

وقد خلفه ابنه دتقى أو شلقى - على حسب اختلاف المنقيين فى أساليب
ترتيب الحروف والنطق بها - وهو أحد العوالم السومريين الذين فرضوا

(١) ينسب هذا المتحف الى اشمول Ashmole الذى اهداه الى جامعة اكسفورد سنة ١٦٧٧

عبادتهم على جميع البلاد توحيداً للدولة ، وزوج بنته لأمير عيلام (غير بعيد من السليمانية في بلاد الكرد في العهد الحاضر) ليضم اليه الإمارات المجاورة ، واتخذ أصحاب الأقواس الطوال من جند أور ، وخرج بهم وبالفرق القوية من البلاد الأخرى الى الشمال لغزوه والحاقه بدولته ، فامتدت مملكته من أقصى الجنوب الى أقصى الشمال بوادي النهرين ، ويقدر المؤرخ المتخصص لهذه الحقبة (باتريك كارلتون) في كتابه عن الدول المدفونة أنه تولى الملك سنة ٢٢٧٦ قبل الميلاد

ولم يكن دئقى بالوحيد الذى فرض عبادته على البلاد كلها ، بل كان هذا شأن جميع الملوك الذين أخضعوها لسلطان واحد ، ومن لم يفلح في اخضاعها قنع بالعبادة من رعاياه حيث ينفرد بالسطوة في بعض الأقاليم ، أو قنع بالكهانة الأولى بين رؤساء الدين

ولم يتعاقب على (أور) من هؤلاء العواهل كثيرون ، لأن العواهل الذين ضموا البلاد جميعاً الى دولتهم قلائل متناثرون بين الأزمنة المتباعدة ، ومنهم السومريون والأكاديون والبابليون

الا أن مدينة (أور) عرفت عبادات شتى غير عبادة القمر وعبادة العواهل ، ومن هذه العبادات عبادة الأسرة بدلا من الدولة ، شاعت مع ضعف الدولة وسقوط هيبتها وقلة الرغبة في الانساق على الضحايا والقرايين التى تقدم على محازيبها فاكتفى الناس ببيوتهم يدفنون موتاهم فيها ويتقربون كلهم بمثل طعامهم وهم أحياء بين ظهرانئهم ، وقد كانت أعمال الحضر تبرز للمنقبين طبقة بعد طبقة من أعماق الأرض ومن أعماق التاريخ في وقت واحد ، ومن قيمة القربان تبدو قيمة الثقة بالأرباب أو تطور العبادة بين الماديات والمعانى الروحية ..

هـ - الضحايا البشرية

وتدل الأحافير على قدم الضحايا البشرية في العبادات التى سبقت عهد الساميين بوادي النهرين وبقاع الهلال الخصيب وانها بقيت الى ما

بعد وفود الشعوب السامية الى تلك البقاع وتدل الأحافير بمدينة (أور) على قدم تلك العادة في عبادة الملوك خاصة ، اذ كان الملوك يدفنون ومعهم حاشيتهم ووزراؤهم ولا يبدو من هيئة جثمانهم أنهم ماتوا على الرغم منهم ، فليس منهم من وجدت جثته وفيها أثر الذبح أو الخنق أو القتل بالضرب العنيف ، ولهذا يعتقد (وولى) في كتابه « أور الكلدانيين » Ur of the Chaldees أنهم كانوا يتجرعون باختيارهم عقارا ساما يخدرهم ويميتهم ، لايمانهم بالانتقال مع الملوك الأرباب الى حالة في السماء كحالتهم في الحياة الأرضية

ووجدت على بعض أختام الطين صور آدميين يلبسون قناعا يشبه رأس الحيوان ، والمظنون ان هذا الزى كان مقدمة للذبح الرمزي واجراء الشعائر مجرى التمثيل المقدس في الاحتفالات العامة ولاسيما الاحتفال بعيد رأس السنة (١)

ووجد في حفائر (أور) تمثال جدى مربوط مقيد في شجرة ، لعله رمز لاستبدال الضحية الحيوانية بالضحية البشرية ، وتاريخه في تقدير (وولى) سابق لعصر الخليل بألف وخمسمائة سنة

ولكن الضحية البشرية بقيت الى ما بعد أيام موسى عليه السلام ، ويتضح هذا من الاصحاح الثاني والعشرين في سفر الخروج حيث حرم على بنى اسرائيل أن يعطوا أبنائهم قربانا الى الله ، ويتضح أيضا من الاصحاح العشرين من سفر اللاويين حيث ينص على عقوبة الرجم لمن يعطى ابنه قربانا للرب

ومع هذا كان بعض أمرائهم ينذر أبناءه ليحرقهم على المذبح قربانا الى الله ، كما فعل يفتاح ونذر « نذرا للرب قائلا : ان دفعت بنى عمون ليدى فالخارج الذى يخرج من أبواب بيتى للقائى عند رجوعى بالسلامة يكون للرب وأصعده محرقة (٢) »

(١) أصول الشعائر السامية الاولى تأليف هوك

Origins of Early Semitic Ritual by Hooke

(٢) اصحاح ٢٠. نضاة

ونعى عليهم النبي ارميا انهم ، بنوا مرتفعات .. ليحرقوا بنيهم وبناتهم
بالنار .. »

٦ - الختان

وروى هيرودوت أبو التاريخ انه سأل الفينيقيين والسوريين عن عادة
الختان فقالوا : انهم أخذوه من المصريين ، وان المصريين كانوا يتحرون
به النظافة والطهارة

وحقيقته التي تدل عليها المقارنة بين العادات انه اختصار لعادة الضحية
البشرية نشأ مع تقدم الانسان في الحضارة والمدنية

ففى أقدم العصور كان الفاتح المنتصر يقتل الأسرى قربانا على محراب
انه ، ثم تدرءجوا من قتلهم الى قطع أعضائهم ، وتدرءجوا من قطع
أعضائهم الى قطع غلفتهم ، وجعلوا ذلك علامة على تسليم الأعداء بالهزيمة
ولهذا بدأ الختان بالرجال ولم تنشأ عادة الختان بالنساء الا بعد ذلك
بزمن طويل ..

وانتقل الختان من اعتباره علامة تسليم لاله الأعداء ، الى اعتباره
علامة تسليم للاله الذى يعبده أبناء القبيلة ، وعندئذ وجب على النساء
كما وجب على الرجال ..

ومن بقايا عاداته الأولى أن شاول اشترط على داود أن يقدم له مائة
غلفة من الفلسطينيين مهرا لبنته ميكال ، فقدم له مائتين كما جاء فى
الاصحاح الثامن عشر من سفر صمويل الأول

وليس بالصحيح ان الاسرائيليين اعتبروه علامة لقبيلتهم تميز الاسرائيلى
من غيره ، وانما الصحيح أنهم اعتبروه علامة تسليم لربهم ، وفرضه
المكايون على الادوميين والاتوريين حين هزموهم ، وجاء فى الاصحاح
الرابع والثلاثين من سفر التكوين ان أبناء يعقوب أوجبوا على الرجل
الذى اغتصب أختهم دينا أن يختتن هو وقومه الكنعانيون

٧ - المعابد والمحاريب

لم يعرف عن قوم ابراهيم - أو المنتسبين اليه على الأصح - انهم أقاموا لهم هيكلًا قبل الهيكل الذي بناه سليمان عليه السلام وكان الخليل يبنى المحاريب على الأماكن العالية ، ويختار للمحراب موضعا الى جوار الشجر والماء ، ثم تعددت المحاريب فتعددت المعبودات وحسب العامة ان كل محراب منها قد أقيم لمعبود غير المعبودات في المحاريب الأخرى ، وخلطوا بين أرباب كل اقليم فعبدوا الأوثان التي كان يعبدها أبناء البلاد الأصلاء من قبلهم ، وخيف عليهم الاختلاط والفناء فيمن حولهم من الشعوب فاجتمعت كلمة الحكماء على تحريم بناء المحاريب في الأماكن العالية وقصر العبادة والقربان وجميع المراسم الكبرى على هيكل واحد ، وكان هذا الهيكل في مبدأ الأمر خيمة تحمل ، ثم بنى بالحجارة على رسم الخيمة وتقسيما ..

ولم يكن هذا هو الأثر الوحيد من آثار نظام المعابد في وادي النهرين فقد بقيت عبادة الأسرة زمنا طويلا ممثلة في عبادة الأوثان التي تسمى بالطرافين ، وكانوا يعتقدون ان حيازة الطرافين تحفظ لمن يحوزها حقوق الأسرة من الرئاسة الى البركة والميراث ، ولهذا أخذت راحيل الطرافين معها قبل الهجرة من حرانة ، وظلوا يحتفظون بالطرافين بين ذخائر الأسرة المقدسة الى ما بعد السبي كما يؤخذ من الاصحاح العاشر في سفر زكريا

٨ - العالم الآخر

ولا يخلو دين أمة قديمة من الايمان بعالم آخر غير عالم الأحياء ، لأن الايمان بالأرواح والأطياف شائع بين القبائل البدائية الأولى ، وكلهم كانوا يعتقدون ان الانسان يبقى بعد موته لأنهم يرونه في أحلامهم ، ومن هنا جاءت عبادة الأسلاف

ولكن الايمان بالعالم الآخر نوعان : نوع ينظر الى العالم الآخر كأنه جزء من هذا العالم المشهود ، ينتقل اليه الميت للاقامة فيه ، وأكثر الأمم

القديمة يسميه الهاوية ويجعله تحت الأرض بعيدا من النور
ونوع ينظر الى العالم الآخر ويؤمن بأنه عالم الحساب والجزاء
والنفرة بين الأبرار والأخيار ، وانه هو عالم الخلود والحياة الباقية ،
بعد الحياة الفانية فى هذه الدنيا

وبين هاتين العقيدتين فى العالم الآخر عقيدة متوسطة تجمع بين اعتقاد
الهاوية واعتقاد الخلود ، فالمتى جميعا يذهبون الى الهاوية ثم ينجو
منهم فى آخر الزمان سن يدينون بالاله الحق ، فيعودون الى حياة كحياة
الدنيا ، ويتم قضاء الموت الأبدى على الآخرين ..

كانت الديانة البابلية من النوع الأول
وكانت الديانة المصرية من النوع الثانى

وكان العبريون يأخذون بجزء من هذه وجزء من تلك ، ويدينون
بالعودة الى الدنيا فى آخر الزمان ، وان غيرهم من الأمم لا يعودون
وتراجع الصلوات البابلية اليوم فلا يرى فيها شىء يشير الى النعيم
فى العالم الآخر ، وانما ينحصر الدعاء فى طلب الخيرات الدنيوية وطول
العمر والسلامة من الأمراض والأحزان
وكانت طائفة من البابليين الأقدمين تعتقد أن الروح تلازم الجسد بعد
الموت ، فلا تزال عالقة به محيرة بين هذا العالم والعالم الآخر حتى يبلى
رفاته ولا تبقى منه بقية تعلق بها ، ولهذا كانوا يتركون الموتى للجوارح
والوحوش تنهشهم وتبيدهم لتستريح الأرواح من عذاب الحيرة بين
الدنيا والآخرة ..

٩ - التوحيد

والتوحيد كذلك توحيدان :

توحيد الايمان باله واحد خلق الأحياء وخلق معهم أربابا آخرين

وتوحيد الايمان باله واحد لا اله غيره

ولم تعرف أمة قديمة ترفت الى الايمان بالوحدانية على هذا المعنى غير

الأمة المصرية ، فعبادة (اتون) التى دعا اليها اخناتون قبل ثلاثة وثلاثين قرنا كانت غاية التنزيه فى عقيدة التوحيد كما عرفها الأقدمون ومن علماء المصريين - وفى طليعتهم برستيد وويجال - من يرى بعد المقابلة بين صلوات اخناتون والمزامير المنسوبة الى داود أن حكماء الاسرائيليين كانوا يطلعون على أسرار المحاريب فى مصر ، ولا سيما الأسرار التى كانت محجوبة عن الدهماء ، اذ كانت أسرار الديانة العليا مقصورة على كبار الأحرار وتلاميذهم المختارين

ومن أسماء الملوك فى بلاد العرب الجنوبية يبدو أنهم عرفوا الوجدانية التى يغلب فيها اله واحد على سائر الآلهة ، واسم ايلومى ايلوم الذى تولى الملك فى بابل الجنوبية معناه ان الله هو الاله الحق ، ويقول عبد الله فلبى فى كتابه سوابق الاسلام ان هذه الكلمة هى شهادة الوجدانية فى طورها الأول ، ومن مرادفاتها فى أسماء الشعب ايل رب ، وايل ملك ، وايل راب ، وكلها من قبيل القول بأن الله هو الرب وانه هو الملك وأنه هو الرئيس المطاع ، ولا يقال هذا الا لتغليب اله واحد على سائر الآلهة ، أو لنفى صفة الإلهية عن سواه ..

١٠ - الشرائع

ويلحق ببحث الشعائر والعبادات بحث الشرائع والآداب الاجتماعية ، وقد وجد العمود الذى نقشت عليه شريعة حمورابى كاملا ما عدا سطورا مطموسة أمكن اتمامها من مصادر أخرى

وتتضمن هذه الشريعة عقوبة الاغراق للسحر والخيانة الزوجية والاحراق لمن يختلس مالا من بيت محترق ، وكان للنهر فى هذه الشريعة قداسة يمتحنون بها من يلقونهم فيه من السحرة والمسحورين ، وفيها عقوبات القتل على السرقة والاعتصاب . ومن غرائبها أنها تعاقب البنت البريئة بذنب والدها « فاذا ضرب رجل بنت. انسان حر ضربا أسقط حملها فعليه عشرة مثاقيل من الفضة غرامة لاسقاط حملها . فان مات

فبنته تقتل .. » (١)

ولا يشبه هذه الأحكام فيما رواه العهد القديم غير عقوبة عاخان لأنه سرق من غنائم القتال في وقعة عاي التي انهزم فيها الاسرائيليون .. « فأجاب عاخان يشوع وقال حقا انى قد أخطأت الى الرب اله اسرائيل .. رأيت في الغنيمة رداء شنعاريا نفيسا ومثى مثقال من الفضة ولسان ذهب وزنه خمسون مثقالا فاشتيتها وأخذتها وها هي مطمورة في الأرض وسط خيمتى والفضة تحتها .: فأخذ يشوع عاخان بن زارح والفضة والرداء ولسان الذهب وبنيه وبناته وبقره وحميره وغنمه وخيمته وكل ماله وجميع اسرائيل معه وصعدوا بهم الى وادى عخور . فقال يشوع ، كيف كدرتنا يكدرك الرب في هذا اليوم . فرجمه جميع اسرائيل بالحجارة وأحرقوهم بالنار ورموهم بالحجارة وأقاموا فوقه رجمة حجارة عظيمة الى هذا اليوم ، فرجع الرب عن حمو غضبه .. » (٢)

ومن أحكام حمورابى في مسائل الزواج تحريم تعدد الزوجات من طبقة واحدة وتحريم الزواج من الجوارى اذا رزق الرجل أولادا من زوجته المكافئة له في طبقته أو من احدى جوارىها

« المادة ١٤٤ » فاذا تزوج رجل من كاهنة وأعطته جارية فولدت له الجارية أولادا فلا يجوز له أن يتزوج من سرية «
« المادة ١٤٥ » واذا تزوج رجل من كاهنة ولم تلد له وأراد أن يتزوج من سرية وأن يؤويها في بيته فهذه السرية لا تكون مع زوجته في منزلة واحدة ..

« المادة ١٤٦ » واذا تزوج رجل من كاهنة وأعطته جارية. فولدت له انجارية أولادا وجعلت نفسها في منزلة السيدة لأنها حملت أولادا فلا يجوز للسيدة أن تبعها بل تقيدها وتبقيها مع الخدم «

ولا يجوز حرمان ابن السرية من ميراث أبيه بعد الاعتراف بنسبه

(١) المادة ٢٠٩ من شريعة حمورابى من كتاب اقدم شرائع العالم تأليف سستريك ادوارد
The World's Earliest Laws

(٢) سفر يشوع الاصحاح السابع

« المادة ١٧٠ » فإذا كان لرجل أولاد من زوجته وكان له أولاد من سريته ، وكان قد ناداهم بأبنائي في حياته وعدهم مع أبنائه من زوجته ، ثم ذهب لقضائه فالأبناء من الزوجة والأبناء من السرية يتقاسمون الميراث على السواء ، ويختار أبناء الزوجة القسمة والاقتراع »

وتجرى المقارنة كثيرا بين شريعة حمورابي والشريعة العبرية ، ويزعم بعض الفقهاء من علماء اليهود المعاصرين ان الشريعة العبرية تخالف شريعة حمورابي في تمييز الأصغر بالميراث ، فالأستاذ جوزيف جاكوب يعلل تفضيل اسحاق على اسماعيل ، وتفضيل يعقوب على عيسو ، وتفضيل يوسف على اخوته بأن الشريعة العبرية كانت لذلك العهد تأخذ بالحكم الذى كان شائعا في بعض الشرائع الأولى : وهو اختصاص الابن الأصغر بالحصة الوافية من الميراث *Ultimogeniture*

قال هذا الفقيه : ان مؤرخى العهد القديم لم يدركوا معنى هذه السنة القديمة فحاولوا أن يصححوها بالتعليقات التى خطر لهم أنها كيفية بتصحيحها (١) ولكن القاعدة تطرد اطرادا لا يمكن تعليقه بالمصادفة ، فلما قدم يوسف ولديه منسى وافرأيم الى أبيه يعقوب ليتلقيا بركته حوّل الجد يمينه الى افرأيم ويساره الى منسى ، وهكذا تولى داود الملك وهو أصغر أبناء أبيه وكان جده فارز أصغر التوأمين اللذين ولدتهما تامار بنت يهودا ، وقد اتبع داود هذه السنّة فولى سليمان عرش الملك من بعده وهو أصغر من أخيه ادوناي

ويخطر لبعضهم أن هذه السنة قديمة في عشيرة الخليل ، وانه هو صلوات الله عليه كان أصغر من أخيه

والى هنا نقف بالمقتبسات من تواريخ الأحافير والتعليقات عليها ، لأن كشوف الأحافير الأخرى لا تعيننا في موضوع هذه الرسالة ، وليس فيها ما ينبى عليه رأى في سيرة الخليل على فرض من شتى الفروض

(١) المأثورات الشعبية في العهد القديم تأليف فريزر
Folklore in the Old Testament by Frazer

الخلاصة

الآن وقد انتهينا من معالم الطريق كما رسمتها لنا المصادر والتعليقات يصح أن نبدأ بتلخيص السيرة على هدى تلك المعالم ، ويحق لنا أن نقرر « أولا » ان قرائن الثبوت في سيرة الخليل أقوى جدا من كل قرينة للشك ينتحلها من يتحدث باسم العلم ، والعلم من حديثه براء فالذى يقول ان وجود الخليل مشكوك فيه من الوجهة العلمية يظلم العلم ويحمله جريرة لا يحملها ، لأن سيرة الخليل ليست من السير التي يشك فيها العالم ، بل هي سيرة يبحث عنها العالم ان لم يجدها ، اذ كانت الدعوات النبوية سلالة واحدة يرتبط اللاحق منها بالسابق ، ولا يمكن الرجوع ببداة لها أصدق من بداءتها بدعوة ابراهيم

ان الدعوات النبوية التي بدأتها دعوة ابراهيم سلالة لم يظهر لها نظير في غير الأمم العربية ، والأمم السامية ، وقد ختمت بدعوة محمد وجاءت دعوة محمد متممة لها ، فلا تفهم واحدة منها منفصلة عن سائرهما ، بترتيب كل منها في زمانها ، وعلاقة كل منها بمكانها ، فلا لبس فيها من جانب العصر ولا من جانب البيئة

دعوات لم تظهر في العالم كله على غير هذا النسق ، لأنها ارتبطت بظاهرة غير متكررة حول مدن القوافل التي اختصت بها بلاد الأمم العربية ، وكانت بداءتها في زمانها وعلى ترتيب مكائنها الجغرافية حيث نشأ الخليل ابراهيم . فهي نشأة لازمة في موقعها وفي عصرها ، والنشأة التي من هذا القبيل تواجه العلم بحقيقة ضرورية ، فلا يشك فيها . بل يكون موقعه منها على تقيض الشك من طرف الى طرف ، لأنه يبحث عنها ان لم يجدها ، وعليه أن يجدها وأن يهتدى اليها ومن قرائن الثبوت - كما أسلفنا - ان هذه الدعوات النبوية نسبت

الى أصل واحد وهو السلالة السامية ، قبل أن يعرف الناس علم المقارنة بين اللغات ، وقبل أن يعرفوا علامات الوحدة في التصريف والاشتقاق وقواعد النحو وحركات النطق وأجهزة الكلام ، فلم يكن في وسع الذين قالوا بوحدة أصلها قبل مئات السنين أن يخترعوا هذه النسبة لو لم تكن نسبة صحيحة في مراجع لا تخترع ، ولا يسهل اختراعها

وعلم المقابلة بين الأديان حديث كعلم المقابلة بين اللغات ، فإذا جاء هذا العلم الحديث مطابقاً للأخبار الأولى عن ديانة القوم في عصر ابراهيم - فتلك قرينة ثبوت وليست بقرينة شك ، ومن خالف ذلك فهو لا يفرق بين الشك والثبوت ..

لم يكن من السهل ان توجد في وطن واحد عبادة الكواكب وعبادة الأصنام وعبادة الملوك ، وأن تتعدد الأرباب مع تمييز رب منها على سائرها ..

ليس من السهل أن يوجد هذا الخليط من العبادات في وطن واحد ، فقد يجهل الناس التوحيد ويعبدون الشمس والقمر ، أو يعبدون القمر دون الشمس ، أو يعبدون القمر ولا يعبدون المريخ والزهرة ، وقد يجهل الناس التوحيد ويعبدون الأصنام ولا يعبدون معها الملوك ، وقد يعبدون أرباباً كثيرة ولا يميزون ربا منها على سائرها أما عبادتها جميعاً في وطن واحد فهي حالة لا يمكن اختراعها ما لم تكن حقيقة واقعة ..

ونحن قد علمنا اليوم انها حقيقة واقعة لأننا فككنا ألغاز الكتابة واستخرجنا أسرار الأحافير ، وعلمنا منها تسلسل العبادات واختلاط السكان والحدود وتطور العقائد على حسب أحوال المعتقدين وقد علمنا اليوم ان عبادة القمر سابقة لعبادة الشمس ، خلافاً لبادرة الظن الأولى . اذ يسبق الى خاطر أن الشمس أكبر وأحق أن يبدأ بها في العبادة ..

بل علمنا اليوم أن رب الأرباب عند اليونان هو كوكب المشتري وليس الشمس أو القمر ، ولهذا يطلقون عليه اسم جوبيتر ويستمدون هذا الاسم من كلمتين بمعنى أبى الآلهة Dawes Pater
 وفي القرآن الكريم : « فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم انى برىء مما تشركون»
 ومما علمناه اليوم أنهم أقاموا للكواكب تماثيل لا تغيب عن أبصارهم اذا غابت الكواكب ، فعبدها مع عبادة الكواكب على سبيل التقريب والتمثيل ..

وفي القرآن الكريم : « اذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أتم لها عاكفون ..
 وفيه : « قال أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون »

وما علمناه اليوم من مقابلات الأديان ان التوحيد جاء بعد تعديد الأرباب وتمييز واحد منها ، وان أهل بابل خاصة كانوا يرون فى قصة الخليفة ان الاله الأكبر خلق الأرباب كما خلق سائر الموجودات الأحياء وغير الأحياء ، وتوحيد الاله على هذا النحو هو الذى يسمونه فى العصر الحديث بالهينوثيزم Henotheism ويطلقونه على طور خاص من أطوار التوحيد البدائى لم يكن لزاما أن يوجد فى كل أمة
 وفى القرآن الكريم : « .. فجعلهم جذاذا الا كبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون » ..

وفيه : « .. قالوا : آأنت فعلت هذا بألهتنا يا ابراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون »
 أما عبادة الملوك فى بابل القديمة فنحن نعلم اليوم أنهم كانوا يعبدونهم ويزعمون أنهم هبطوا من السماء بعد الطوفان ، لأننا قرأنا الآثار وكشفنا

عن الأحافير ، وادعاء الملوك أنهم آلهة يملكون زمام الحياة والموت وارد في القرآن الكريم : « اذ قال ابراهيم ربي الذي يحيى ويميت ، قال أنا أحيى وأميت » ..



هذه المطابقات نعلمها اليوم من الكشوف والأحافير ، وسواء آمن العالم العصري بالقرآن أو لم يؤمن به فالمسألة هنا هي مسألة التفرقة بين قرائن الثبوت وقرائن الشك في سيرة ابراهيم ، فليس من قرائن الشك على كل حال أن تروى أخبار العبادة عن عصر ابراهيم على الوجه الذي حققته الكشوف الحديثة ، وعلى خلاف القصص التي تخترع اختراعا بغير سند من الواقع ، لأن الاختراع لا يجمع بين الحقائق المتفرقة من عبادات القوم ، وهي عبادة الكواكب وعبادة الأصنام وعبادة الملوك وتعديد الأرباب مع تمييز واحد منها على الآخرين ، وهي المرحلة البدائية في طبيعة التطور بين التعديد والتوحيد ..

قلنا في مقدمة هذا الكتاب ان الشك في وجود ابراهيم لا يستند الى سبب ، لأن الغرائب والخوارق لم تبطل وجود شيء قط ، ومنها أثبت ما في السماء وهو الشمس ، وأثبت ما في الأرض من صنع الانسان وهو الهرم الأكبر ..

ويحق لنا بعد ما قدمناه أن نقول على الأقل ان أسباب الثبوت أقوى من أسباب الشك جميعا ، ان كانت له أسباب

العصر

معظم المنقبين يعينون تاريخ ابراهيم في زمن متوسط بين أوائل القرن الثامن عشر وأواخر القرن التاسع عشر قبل الميلاد ، ويجعلونه معاصرا لدولة الرعاة في مصر ودولة العموريين في العراق وولادة الخليل في هذه الفترة ترجحها الكشوف والأحافير ، كما ترجحها النتائج التي تمثلت في سيرته عليه السلام ، وكلها دلائل على تنازع السيطرة وتنازع العقائد واضطراب الأمور والاضطرار الى الرحلة الدائمة من أور الى آشور الى فلسطين الى مصر الى بيت المقدس ثم الى صحراء الجنوب ..

وتقترن زلازل الطبيعة وزلازل السياسة فلا يستقر لأحد من المقيمين في ديارهم قرار ، فضلا عن القبائل الرحل في طلب المرعى وطلب الأمان سقطت دولة بابل وغلبتها عليها قبائل عيلام من الشرق وقبائل عمور من الغرب ، وعاش العموريون والعيلاميون تارة في قتال وتارة في حلف مزعزع خوفا من دولة الأشوريين في الشمال

وسقطت دولة مصر وغلبتها قبائل الرعاة ، ثم بقيت على خوف وحذر من الشرق ومن فراغة الجنوب الذين احتفظوا بعروشهم في الصعيد وليس أشقى من حياة العشائر الصغيرة بين هذه القلاقل وهذه المنازعات التي يشترك فيها المغامرون من أبناء العشائر الكبرى ، وهم يزحفون للسيطرة على الدول كلما سنحت لهم الفرصة العاجلة ، ولا يقنعون بالتحول من بقعة الى بقعة طلبا للمرعى والأمان

وكانت عشيرة الخليل صغيرة ولا شك بالقياس الى العموريين والرعاة وسائر القبائل التي تحتل بقاع الهلال الخصيب ولو لم تكن صغيرة لما أمكن أن تهاجر من جنوب العراق الى شماله الى شاطئ البحر الأبيض المتوسط الى مصر الى فلسطين كرة أخرى في

حياة زعيم واحد ..

وقد ألجأتها المجاعة الى مصر ولم تلجئ قبيلة أخرى الى مثل هذه الهجرة من القبائل التي أصيبت بالمجاعة في صحراء فلسطين

وحدث غير حادث يدل على قلة هذه العشيرة في عددها وقوتها ، وانها ظلت على هذه القلة بعد أيام ابراهيم وفي أيام يعقوب .. ومن أبرز الشواهد على ذلك في حياة البداوة خاصة أن جيرانها كانوا يجترئون على نساء زعمائها فطمع أبيمالك في سارة واعتدى شكيم على ابنة يعقوب ، وكانت العشيرة نزيلة الى جوار الأقوياء الذين يضيفونهم أو يأبون ضيافتهم كما يشاءون

ليس أشق من حياة عشيرة صغيرة بين العشائر الكبرى في أيام الزعازع وتقلب السلطان ، ولا سيما الحياة الى جوار الدولة البابلية ، وكل سلطان جديد هناك فهو رب جديد يدين الناس بالعبادة ويسومهم أن يسجدوا له ولا يقنع منهم بطاعة الرعية للرعاة

وقد حفظ لنا سفر دانيال مثالا من شتى الأمثلة على قيام هذه العبادات مع قيام السلاطين ، فان السلطان الجديد يعلن ولايته بالطبول والزمور ويفرض على كل مستمع أن يسجد لتمثاله على قارعة الطريق ، ومن أبى اسجد أحرقوه بالنار ..

« فبوخذ نصر الملك صنع تمثالا من ذهب طوله ستون ذراعا ، وعرضه ست أذرع ، ونصبه في بقعة دورا في ولاية بابل ، ثم أرسل ليجمع المرازبة والشحن والولاية والقضاة والخزنة والفقهاء والمفتين وكل حكام الولايات ليأتوا لتدشين التمثال .. ونادى المنادى : قد أمرتم أيها الشعوب والأمم والألسنة عندما تسمعون صوت القرن والناي والعود والرباب والشيطر والمزمار .. أن تخروا وتسجدوا لتمثال الذهب ، ومن لا يخر ويسجد ففى تلك الساعة يلقي فى أتون النار .. »

وحفظت لنا الألواح الآشورية صورة جيجو ملك اسرائيل (سنة ٨٤٣ قبل الميلاد) وهو ساجد يقبل الأرض بين يدي شلمنصر ومن ورائه

أمراء دولته يحملون الجزية صاغرين .. ومن كان يتقاضى الملوك أن يسجدوا له عند تقديم الطاعة لا جرم يتقاضى الرعايا دون طبقة الملوك أن يسجدوا له ويعبدوه ، وبخاصة حين يؤسس دولة جديدة قامت على أنقاض دولة ذاهبة ، ولا بد له من توطيد هيئته وقمع المخالفين له ، وأولهم الذين ينكرون دينه كما ينكرون ديناه

والحوادث التي أحصاها لنا الرواة من سيرة ابراهيم خليفة أن تحدث في مثل تلك الفترة ، سواء منها ما حدث في العراق أو ما حدث في الطريق الى وادي النيل

وربما صح أنه عاصر حمورابى أو كان في عصر قريب من عصره ، ولكن الأحوال لم تتغير قبل عصر حمورابى وبعد ولايته بسنوات ، فهي أحوال الدول المتبدلة والسيطرة المتقلبة ، ومن علاماتها الكبرى أنها تدعو حمورابى الى نقش أحكام شريعته واقامة الأنصاب التي تذكر الناس بتلك الأحكام ، ولا يكون ذلك الا آية من الآيات ، على أن الشريعة قد نسيت وهانت واحتاجت الى تذكير

ان كانت شريعة جديدة فموعدتها القمين بها زمان كذلك الزمان وقد كان ابراهيم زعيم قبيلة بادية ، وكان تهافت العروش ، وتبدل العبادات والكهانات من حوله خليفًا أن يريه في أمرها وأن يجب اليه النجاة من طوارقها وطوارئها ، وكانت القبائل القوية حول العواصم تتنازع السلطان فهي في شاغل بالسيطرة عن العبادة . أما العشيرة الصغيرة فهي مغلوبة على مرافقها وعلى ضمائرهما ، ولا عصمة لها الا أن تعتضم باله أقوى من الغالبين ومن المغلوبين : اله لا تحصره هياكل العاصمة وتماثلها ولا يتغير من بادية الى بادية فوق بطاح الصحراء وتحت قبة السماء ..

ان وجود ابراهيم في عصر كذلك العصر حقيقة لا غرابة فيها ولا محل فيها لاختراع المخترعين ..

الانشأة

من الحقائق ما بيده السامع ، لأنه على قربه لم يلتفت اليه
كان جندي أوربي يقدر في الشرق وأبنائه وكل ما فيه أثناء الحرب
العالمية الأولى ، ويقول انه مباءة السوء فلا يخرج منه شيء حسن ولا
يأتي منه خير ..

وقال له محدثه : انك تدين بدين جاء من الشرق !
فوجم الرجل وأخذته الدهشة لأنه لم يتنبه الى هذه الحقيقة لحظة
واحدة طول حياته ، وهو يدين بدين السيد المسيح ، ويستمع الى
الانجيل كلما ذهب الى الكنيسة ..

ومثل هذه الحقيقة ما ذكرناه آنفا عن نسبة ابراهيم العربية ، فانها
أصح نسبة ينسب اليها ، ولكنها تبدو لمن يسمعا كأنها غريبة يقال لمن
يزعمها : من أين جئت بهذه الأحدثة التي لم نسمعا قبل الآن ؟
فلا يقال عن ابراهيم انه اسرائيلي ، لأن يعقوب هو أول من تسمى
باسرائيل ، ويعقوب حفيد ابراهيم

يقال عن ابراهيم انه يهودي ، لأن اليهودي ينسب الى يهودا رابع
ابن يعقوب ، ولم يكن ينسب اليه الا بعد أن أصبح اسمه علما على

الاقليم الذي قسم له عند تقسيم الأرض بين أبناء يعقوب
ولا يقال عنه انه عبري اذا كان المقصود بالعبرية لغة مميزة بين اللغات
السامية تتفاهم بها طائفة من الساميين دون سائر الطوائف ، فان ابراهيم
كان يتكلم بلغة يفهما جميع السكان في بقاع النهرين وكنعان ، ولم تكن
العبرية قد انفصلت عن سائر اللغات السامية في تلك الأيام

وقد يقال عنه انه سامي^١ ينتمي الى سام بن نوح ، ولكنها نسبة الى
جد وليست نسبة الى قوم وقد تكلم باللغة السامية أناس كالأجاش
ليسوا من السريان ، ولا من الآراميين ولا الحميريين

فاذا فتشنا عن نسبة لابراهيم لم نجد أصدق من النسبة العربية ، كما كانت العربية يومئذ بين جزيرة العرب وبقاع الهلال الخصيب وأصح التقديرات انه نشأ في أسرة حديثة عهد بالهجرة من شمال اليمن اى جنوب العراق وكانت هذه الأسرة مع الذين جاءوا من « أرض البحر » كما كان البابليون يسمون العرب المقيمين على مقربة من خليج فارس ، وقد وردت أسماء العرب التى لاشك فيها بين الأسر المالكة فى جنوب بابل ، خلال عهد طويل يحيط بعصر ابراهيم على أقدم تقديراته ، فلم يمس على أسرته بمدينة (أور) زمن يفصله من عشيرته البادية ، وينسبها معيشة البداوة التى تستجيب للهجرة من أقصى الجنوب فى العراق الى أقصى الشمال . ومن جملة أخباره يتبين انه عليه السلام قد نشأ على مفترق طريق بين جميع العهود ..

مفترق طريق بين عهد الكنانة وعهد النبوة . ومفترق طريق بين اباحة القرابين البشرية وتحريمها . ومفترق طريق بين التعديد والتوحيد . ومفترق طريق بين الايمان بالهاوية والايان بالحياة الأخرى ومفترق طريق فى عبادة الأسرة الواحدة ، فلا تلبث الأسرة الواحدة أن تختلف بين طريقين : أب وابنه وأخ وأخوه وتاريخ بابل يومئذ الى عصر قريب من القرن التاسع عشر قبل الميلاد يصح أن تفترق فيه جميع هذه الطرق ..

ففى حوالى هذه الفترة ضاعت هيئة الهياكل . وسقطت مكانة كهانها وندرت القرابين فى محاريب الدولة وتحولت الى مدافن الأسرة حيث تسكن الأسرة مع موتها فى دار واحدة ..

وحوالى هذه الفترة تعاقبت الدول وتناقضت أوامر العبادة وتصارع الأرباب فاستحقوا سخرية العباد أجمعين ..

وانتهى قبل ذلك عهد الملوك الذين كانوا يسومون وزراءهم وحواشيهم أن يذنبوا أنفسهم معهم وهم بقيد الحياة ، وبطل ايمان العلية بالحياة بعد الموت فى جوار هؤلاء الملوك ، ففتحت الأذهان لسماع

شيء جديد عن اليوم الآخر ومعنى الخلود بعد الفناء

ولعل الصائبة كانوا في ذلك العصر يدينون بالبقايا المصفاة من هذه العبادات ، ولعلمهم خلطوا من أجل ذلك بين انكار الكهانة وانكار النبوة ، فاذا جاءهم ابراهيم بأول دعوة نبوية لم يميزوا بينه وبين الكهانة التي أنكروها على كهان الهياكل المتداعية والمحارِب الدائرة ، ولعل ابراهيم قد يئس منهم فاتجه الى قبلتهم العليا شمالا حيث كانوا يتجهون الى نجم القطب أثبت النجوم ، عسى أن يستمع اليه أصحاب القبلة ، وأن يكونوا على استعداد للترفة بين الكهانة والنبوة ، فلا يشق عليهم أن يفهموا وحى الله الى النبي كما شق عليهم أن يفهموا ان الكهان يتلقون الوحي من الله . وليس بالعسير علينا في العصر الحاضر أن نصوّر لأنفسنا معيشة أبناء العشائر بين الحاضرة والبادية

فرؤساء العشيرة يقيمون بالمدن وتستبقيهم الدولة فيها ولا تضن عليهم بالرئاسة التي تعينهم على حكم العشيرة في بداوتها ، وأبناء العشيرة يروحون ويغدون بين الصحراء والحاضرة ليعرضوا على أولئك الرؤساء مطالبهم عند ذوى السلطان ، ويعقدوا صفقات القوافل أو يتناوعوا حاجتهم في حلهم وترحالهم ، فلا تنقطع الصلة بينهم وبين رؤسائهم ، ولا تنقطع خصوماتهم التي تلجئهم اليهم ، وما انقطعت خصومات أهل البادية قط بين أنفسهم أو بينهم وبين العشائر من حولهم ، فهم أبدا على مطلب من الحكام وشفاعة عند الرؤساء

وأقلق ما تكون حياة العشيرة البادية حين تطفئ عليها عشيرة أقوى منها ويبلغ من قوتها أن تسيطر على الدولة في عواصمها ، وهكذا كانت حياة العشيرة التي تولاهها ابراهيم وأبوه أيام طغت على مدينة « أور » أفواج من العيلاميين وأفواج من العموريين ، ولم يفتح أمامها سبيل الهجرة غير سبيل الشمال ..

ومن اليسير أن تتخيل هنا حنكة الأب وثورة الفتى بين تداول الدول وتساقط الحكومات ، فالأب يتابع سادات الوقت ويجرى معهم فيما

يجرون فيه ، والابن يأبى الا ما اعتقد وينفر من المرء والرياء ، ويحفره الى الشمال أمل في صلاح العقيدة. وأمل في صلاح الحكومة ، ثم ينقاد الأب بعد طول اللجاج لأن الحنكة لا تغنى عنه شيئا مع فساد الأحوال وتفاهم الخطر من الأقوياء عن اليمين وعن اليسار

وإذا صح أن أبا ابراهيم كان أمينا لبيت الأصنام وكان يصنع الأصنام على يديه فليست الحنكة وحدها هي التي تدعوه الى المحافظة على تقاليد العبادة القائمة ، بل له مع الحنكة داع آخر من المصلحة والمنزلة الاجتماعية ، ويغلب اذن أن يكون ابراهيم قد تربى للإمامة الدينية وتعلم العلوم التي كانت شائعة بين طبقة الرؤساء الدينيين ومنها علم الفلك والطب والتعاويذ ورقى الأسماء

واسم ابراهيم من الأسماء التي تنبئ عن نشأة دينية ، لأنه — على أرجح معانيه — يفيد معنى حبيب الله . وقد كان قدماء السريان يطلقون اسم رأس الأسرة مجازا على الاله لمعبود فيسمونه الأب تارة والعم تارة أخرى ، وربما كان العم أغلب على هذا المعنى لأن الرجل ينادى كل شيخ مبجل (يا عم ويا عماء) .. ومن هنا اسم عرام و ابرام ، ركب كلاهما من العم والأب ومن كلمة رام التي تعنى المحبة ، ولعل التغيير الذى طرأ على اسم ابرام انما استحدث لكى يفيد معنى حبيب الله بدلا من حبيب الاله الذى كان يعبده أبوه فى معابد الوثنية

على ان التعليم لم يكن مقصورا على أبناء الكهان ، فان المثقفين الأثريين كشفوا عن أبنية ضخام كانت معدة للمكتبات والمدارس العالية ، ولم يكن من النادر أن يتعلم أبناء العلية دروس الفلك والرياضة والتشريع التي ترشحهم لمناصب الدولة . واهتداء ابراهيم الى حقائق الاجرام العلوية من طريق الفلك أمر معقول فى زمانه على الخصوص ، فانه زمان تددت فيه هالات الربوبية من حول الملوك وهبطت فيه منزلة الكهانات العليا وتصارعت فيه العقائد بين غالبية ومغلوبية وبين متأصلة فى العواصم ومقتحمة عليها ، ونظر فيه المثقفون الى الكواكب نظرة

جديدة فجعلوها صورا للأرواح النورانية ونزلوا بها من علياء الربوبية الى مرتبة الخلائق المسخرة في الملاء الأعلى ، فان لم يكن مذهب الصابئة قد تم واينتقر في ذلك العهد فقد كانت له بداءة تحوم على هذه المعاني وتستشرف لما وراءها ، ولولا ذلك لما بقيت السريانية القديمة لغة مقدسة في كتب هذه النحلة ، اذ كانت السريانية القديمة أعرق من السريانية المتشعبة منها ولا يمكن أن تنزل الطائفة الصابئية بتلك اللغة الأولى ما لم تكن بداءتها ممعنة في القدم الى ما قبل تدوين اللهجة السريانية الحديثة ومن البديهي ان العقائد التي تدعها الدولة لا تنهدم بضربة واحدة ولا تولى أدبارها لكل منكر يجترىء عليها ، فقد لقي ابراهيم عننا شديدا من تلك العقائد المتداعية ، وأشد ما تكون العقيدة دفاعا عن نفسها حين يشتد الخطر عليها وتحس في قرارة حصنها ان الضربة تصيبها وتزلزل أركانها ..

وينبغي للناقد العصري أن يلمح شيئا يستوقفه في قصة ابراهيم ووعيد الدولة له بالاحراق ان لم ينته عن تسفيه أربابها فمن المسلم ان الاحراق عقوبة مقررة في شريعة بابل ، وان النار لم تكن مجهولة في بلد من بلاد الأنبياء الآخرين ، ولكنهم لم يتعرضوا للاحراق في غير أرض بابل ، ولم يرد خبر قط عن نبي غير ابراهيم توعدده قومه باحراقه ، ومنهم من نشأ في بلاد تحرق القرابين الحية في المحاريب . فليست أخبار الأنبياء اذن مما يرسل جزافا أو مما تنقطع فيه المناسبة بين النبي والبلد الذي يبعث اليه

وسياتى الكلام عن معجزات ابراهيم في موضعه ، ولكن موضع الالتفات هنا لمن يصطنع الدراسة العلمية ان يلاحظ شواهد هذا الانفراد بعقوبة الاحراق في قصة ابراهيم دون قصص الأنبياء والعبارة من هذه الملاحظة وأمثالها ان الناقد العلمي مسئول أن يتقصى من الأخبار الأولى مقدار ما فيها من الثبوت ، وليست مهمته كلها أن يابأها جميعا لأنه وجد فيها شيئا ياباه

الجنوب

انفردت المصادر الاسلامية بأخبار ابراهيم في الججاز ، وعلقت بعض المؤرخين الغربيين على هذه الأخبار بشيء كثير من الدهشة والاستنكار ، كأن المصادر الاسلامية قد نسبت الى ابراهيم خارقة من خوارق الفلك وأسندت اليه واقعة بينة البطلان بذاتها وغير قابلة للوقوع ... ووضح من أسلوب تقديمهم انهم يكتبون لاثبات دين وانكار دين ، ولا يفتحون عقولهم للحقيقة حيث تكون ، فضلا عن الاجتهاد في طلب الحقيقة قبل أن يوجههم اليه المخالفون والمختلفون

أما الواقع الغريب حقا فهو طواف ابراهيم بين أنحاء العالم المعمور ووقوفه دون الجنوب لغير سبب ، بل مع تجدد الأسباب التي تدعوه الى الجنوب ولو من قبيل التجربة والاستطلاع .

ولم يكن لابراهيم وطن عند بيت المقدس ، سواء نظرنا الى وطن السكن أو وطن الدعوة أو وطن المرعى . فالمتواتر من روايات التوراة انه لم يجد عند بيت المقدس مدفنا لزوجته فاشتراه من بعض الحيثيين

أما الدعوة الدينية فقد كانت الرئاسة فيها لأخبار ايل عليون ، وكان ابراهيم يقدم العشر أحيانا الى أولئك الأخبار

ومن كان معه أتباع يخرجون في طلب المرعى فلا بد لهم من مكان يسمون فيه ابلهم وماشيتهم بعيدا من المزاحمة والمنازعة ، وهكذا كان ابراهيم يعمل في أكثر أيامه كما تواترت أنباؤه في سفر التكوين ، فلا يزال متجها الى الجنوب ..

هناك أسباب دينية غير هذه الأسباب الدنيوية توحى اليه أن يجرب المسير الى الجنوب ، حيث يستطيع أن يتنى لعبادة الله هيكلا غير انهياكل التي يتولاها الكهان والأخبار من سادة بيت المقدس في ذلك الحين فقد بدا له ان اقامة المذابح المتعددة فتنت أتباعه وجعلتهم يتقربون

(١) يسمون : أسام الراعي الماشية : أخرجها الى المرعى .

في كل مذبح الى الرب المعبود بجواره ، ومثل هذه الفتنة بعد عصر ابراهيم قد أقنعت حكماء الشعب بحصر القربان في مكان واحد ، فاتخذوا له خيمة وانتظروا الفرصة السانحة لبناء الهيكل حيث يقدرّون على البناء فان كان هذا الخاطر لم يخطر قط في نفس ابراهيم فذلك هو العجيب الذي يستوقف النظر من سيرة رسول وزعيم ، ولكن الرسالة والزعامة معا توحياه اليه ولو مرة من المرات وهو على أهبة الرحلة والاستطلاع ومثل ذلك الخاطر خليق أن يتجه به الى الجنوب ثم الى الجنوب اذ لم يبق له مكان لهذه التجربة غير الجنوب ، بعد أن هجر العراق وعاد من مصر ولم يجد عند بيت المقدس حوزة يقام فيها هيكل مقصود وواضح من تواتر روايات التوراة والمشنا والتلمود ان اللهب بيت المقدس انما جاء متأخرا بعد عصر ابراهيم وعصر موسى بزمن طويل ، وانه جاء ، مع عصر المملكة الاسرائيلية وعملت فيه السياسة عملها المعهود فبعد موسى بعدة قرون بقيت اورشليم في أيدي اليوسيين ، واستولى بنو بنيامين على جيرتها ولكنهم لم يطردوا منها اليوسيين ... « فسكن اليوسيون مع بنى بنيامين في اورشليم الى هذا اليوم » أى الى الأيام التي كتب فيها سفر القضاة من العهد القديم ثم تغلب بنو يهوذا على المدينة فدمروها وأحرقوها ولم يقيموا فيها ، وعاد اليوسيون فجددوا بناءها وسكنوها الى أيام الملك شاؤول ، ثم استولى عليها داود فاتخذها عاصمة ، وبنى فيها سليمان هيكلها المشهور وبعد هذا جاء ملك من ذرية ابراهيم وهو « يهواش » ملك اسرائيل فهدم سور اورشليم .. وأخذ كل الذهب والفضة وجميع الآنية الموجودة في بيت الرب وفي خزائن بيت الملك والرهناء ورجع الى السامرة (١) ... ثم اضطجع يهواش مع آبائه ، أى مات مرضيا عنه .. فلم يكن لأورشليم هذا الشأن في حياة ابراهيم ولا في حياة موسى ، ولم يكن لها هذا الشأن من القداسة بين جميع بنى اسرائيل حتى في عهد داود . أما « الجنوب » المسكوت عنه فقد كان له شأنه من القداسة الى

(١) الاصحاح الرابع عشر من سفر الملوك الثاني

أيام أرميا وما بعدها ، وكانت كلمة « تيمان » مرادفة لكلمة الحكمة والمشورة الصادقة ، وهى تقابل كلمة « يمن » فى اللغة العربية بجميع معانيها ، ومنها الاشارة الى الجنوب . ففى سفر التثنية يقال على لسان موسى : « جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من جبل السعير » وفى سفر حبقوق : « الله جاء من تيمان والقدوس من جبل فاران » وأوضح من ذلك قول أرميا متسائلا فى مراثيه : « ألا حكمة بعد فى تيمان ؟ هل بادت المشورة من الفهماء ! »

وأيسر ما يستوحيه طالب الحقيقة أن يتساءل : كيف يكون هذا الجنوب موصدا فى وجه ابراهيم ؟ وكيف يطوف الأقطار جميعا ولا يفتح له الباب الذى لا موصد عليه ؟ .. ان كان أحد الطريقتين مفتوحا أمانه فليس هو طريق بيت المقدس ، بل طريق الحجاز

وفى هذا الطريق سلك الأنبياء ، وذكرت المصادر الاسرائيلية منهم من بلغ مدين ، وذكرت منهم من لعله أقام فى نجد أو لعله أقام وراءها من البلاد العربية .. ولم تذكر المصادر الاسرائيلية صالحا ولا هودا ولا ذا الكفل ولا غيرهم من الأنبياء ..

فموضع التساؤل هو السكوت عن هذه الناحية ، وليس هو الذكر الذى توحى البداة ، ويوحى الواقع ، ويوحى المعلوم من أطوار البعثات الدينية والرسالات النبوية

وتقول ان السكوت موضع تساؤل وهو فى الحقيقة غنى عن التساؤل ، لأنه معلوم السبب والغاية ، وحسبنا من التساؤل أن ينتهى بنا الى سبب معلوم وغاية مرسومة ..

انما العجب من ذوى الدعوى باسم البحث العلمى أن ينتظروا الخبر ممن يقضى على دعواهم كلها اذا رووه ، ويثبت دعواهم كلها اذا نفوه ومن الذى يكتم مسير ابراهيم الى مكة ان لم يكتمه الذين ينقضون دعواهم كلها باثبات ذلك المسير- ؟

على ان الباحث الذى يتحرى المعرفة لا يصح أن يقف عند الثفى ثم

يسكت على ذلك ولا يحاول الاثبات ما استطاع ..
 ها هنا رواية عن نشأة الكعبة في الحجاز على عهد ابراهيم ، فمن
 ينكرها فعليه أن يثق أولا من أسباب انكارها ، وعليه بعد ذلك أن يعرفنا
 بما هو أصح في التاريخ وأولى بالقبول
 ونفرض ان ابراهيم لم يصل الى الحجاز لأن المصادر الاسرائيلية لم
 تذكر رحلته الى الحجاز ووقفت بها عند جيرار وقادش وبلاد أدوم
 ونفرض أن هذا سبب كاف لنفى الرحلة من الوجهة العلمية ، فهذه
 الكعبة قائمة تحتاج الى بان يبينها ، فمن الذى بناها ؟
 ان روايات هؤلاء القوم الأميين - قوم مكة في الجاهلية - تذكر لنا
 ان مكة عمرت قديما بأناس من اليمن ثم أناس من النبط ، وكل معلوم
 عن أحوال الحجاز يعزز هذه الروايات ، فان أقام مقيم في مكة فسيبيله أن
 يأتي الى وسط الحجاز من الطرفين ، وهما طرف اليمن في الجنوب وطرف
 النبط في الشمال ..

لكن أهل اليمن - في اليمن - لا يخلقون لغير بلادهم قداسة تعفى^(١)
 على شأنها بين الشعوب العربية ، وقد حدث منهم غير مرة أنهم نظروا الى
 الكعبة نظرتهم الى منافس خطر فهمشوا بهدمها وتحويل الحجاج الى معبد
 يقوم عند العرب مقامها
 أما النبط في الشمال فمكة هي طريقهم ولا مزاحمة عليها منهم ،
 وآثارهم الباقية في البتراء تنطق بالمشابهة بينهم وبين الحجازيين في العبادة
 واللغة والسلالة ، والنسكابون من الحجاز يقولون إنهم نبط وإنهم أخذوا
 الأصنام من النبط ، وجميع المصادر بعد ذلك تقول ان النبط هم ذرية
 نبات بن اسماعيل ..

ومن النظر العلمى أن يجتهد الباحث هذا الاجتهاد وأن يلتفت الى كل
 باب من هذه الأبواب ، لأن الالتفات اليها واجب عليه ، ومن التصغير
 أن يكون أمامه باب واحد يبحث فيه عن الحقيقة التاريخية ثم يهمله
 ليستخرج منه غاية ما يخرج من الثبوت أو من الفرض والاحتمال

(١) تعفى : عفت الريح الدار محت آثارها .

أما الأمر الذى لا يتفق مع العلم ولا مع الواقع ، فهو القول بأن إبراهيم لم يذهب الى الحجاز لأن المصادر الاسرائيلية خلو من هذا الخبر ، ثم يكتفى القائل بقوله فلا يضع أمامنا بديلا منه أولى بالأخذ به ان إبراهيم صاحب دعوة دينية ، وليس فى المصادر الاسرائيلية ما يدل على أنه قد صنع شيئا لنشر دعوته ، وكل ما ورد عنه فى هذا الكتاب أنه أقام مذبحا فى كل منزل من منازل الطريق ، ثم ترك البلاد جميعا فى رعاية الأحبار الذين كانوا مؤمنين بـ « ايل عليون » قبل وفوده الى كنعان ، وليس فى ذلك مقنع لصاحب دعوة دينية يغادر دياره فى سبيل هذه الدعوة فأقرب ما يرد على الخاطر أن إبراهيم قد ذهب الى حيث يصنع شيئا باقيا فى سبيل دعوته ، ولا مذهب له اذن الى غير الحجاز ، وهذه هى تنمة السيرة التى لا بد منها فى حياة نبي ينتمى اليه سائر الأنبياء ، والا كانت نسبة الدعوة اليه من أعجب الأمور

وقد جاء فى المأثورات جميعا ان إبراهيم شهد عصر الكوارث والرجوم فى مدن فلسطين الجنوبية ، وبقيت آثار البتراء (سلح) الى اليوم وفيها أنصاب من هذه الرجوم فى أماكن العبادة ، حفظوها تذكيرا لأنفسهم بقضاء الله لأنها هبطت من السماء عقابا للمذنبين

ولم يذكر مصدر من المصادر أن إبراهيم كان يحمل معه حجرا من هذه الأحجار ، ولكنه اذا تعمد أن يقيم مذبحا باقيا على طريقته فالحجر من النيازك أحق أن يحتفظ به من سائر الحجارة . وليس من اعتساف التفسيرات أن يقال ان الحجر الأسود نقل من البتراء عند بناء الكعبة ، وقد تبين بعد ذلك أنهم نقلوا كثيرا من طريق البتراء بعد اتخاذ الكعبة بيتا للأصنام قبل الاسلام ببضعة أجيال ، وليس من المسائل العرضية أن تتشابه الحجارة فى قوام تركيبها ، وهى تختلف فى بنيتها المعدنية والصخرية كما هو معلوم وربما سميت مكة وبكة باسم البيت الذى بنى فيها ، لأن البك والبكة كانا يطلقان على البيت فى اللغة السامية الأولى ، ومنها بعلبك بمعنى بيت البعل . وربما كانت من مادة القربان فى السبئية والحبشية لأنهم كانوا

(١) اعتساف : اعتسف الطريق : عدل عنه . والأمر ركبه بلا روية .

يطلقون المقربة على المحراب المقدس ، وبطليموس الجغرافي قد ذكرها باسم مكربة Macaraba تقلا عن أهل اليمن ، ولكن التصحيف هنا بعيد ، ولا تسمى البلدة باسم القربان فيها الا اذا أصبحت محجة لقصاها من المؤمنين بكعبتها ، وقد مضى على السبئين زمن وهم يعيشون في شمال الجزيرة ، فلم يذكروها بهذا الاسم في أثر من الآثار

وفي مقاييس الكعبة شاهد لا يجوز اهماله عند البحث في أصل بنائها ، فانها قد بنيت مرات كما هو معلوم ، وكان البناء في كل مرة يحافظون على معالمها القديمة حيث أمكنت المحافظة عليها ، وقد تعذر عليهم أن يحافظوا على أبعاد جوانبها لدخول الحجر (بكسر الحاء) فيها تارة وخروجه منها تارة أخرى ، ولكنهم حافظوا على ارتفاعها كما جاء في أكثر الروايات ، وارتفاعها الآن سبع وعشرون ذراعا أو خمسة عشر مترا (١) ولن تكون الخمسة عشر مترا سبعا وعشرين ذراعا الا اذا كان الذراع بالمقياس المقدس عند قوم ابراهيم ، لأنه كما حققه الأستاذ جريفس Greaves الخبير المتخصص في المقاييس الأثرية يزيد على واحد وعشرين قيراطا (بوصة) وثلاثة أرباع القيراط ، ويقاس بالتقريب عند مضاهاة الأبنية القديمة التي قدّرت بالذراع ..

هذه القرائن المتجمعة يجب أن تستوقف نظر الباحث المنزه عن الغرض ، وأيسر ما فيها أنها تدفع الغرابة عن رحلة ابراهيم الى الحجاز ، وأنها هي وحدها تحقق له صفة العمل على الدعوة الدينية

وقد جاء الاسلام مثبتا رحلة ابراهيم الى الحجاز ، وأثبتها ولاشك بعد أن ثبتت مع الزمن المتطاول ، لأن انتساب أناس من العرب الى ابراهيم قد سبق فيه التاريخ كل اختراع مفروض ولو تمهل به التاريخ المتواتر حتى يجوز الاختراع فيه لأنكرت اسرائيل انتساب العرب الى ابراهيم ، وأنكر العرب أنهم أبناء ابراهيم من جارية مطرودة ، وليس هذا غاية ما يدعيه المنتسب عند الاختراع

(١) الرحلة الحجازية تأليف لبيب البتانوني

الرسالة

ان تاريخ الأديان لا يرسم لنا خطا واحدا يفصل بين عهدين كلاهما
مخالف للآخر كل المخالفة

فما من عقيدة دينية ظهرت للناس طفرة بغير سابقة ، وما من عهدين من
عهود الأديان الا وبينهما تمهيد وتعقيب ، ولكن الأمانة التي اضطلع بها
الخليل ابراهيم حادث جديد لم تعرف له سابقة فيما وعيناه من تاريخ
الدين ..

وذلك الحادث الجديد هو أمانة الرسالة النبوية : أمانة نفس حية
تخاطب نفوسا حية باسم الاله الذى يتوجه اليه عباده فى كل مكان
أمانة نفس تخاطب النفوس ، ولا تخاطبهم من وراء المحاريب والهيائل ،
ولا بسلطان من نظام الدولة أو نظام الكهانة ، ولكنها نداء ضمير
الى ضمير ..

وهذه هى الدعوة التى قلنا انها تستلزم وجود « هداية شخصية » أو
تستلزم وجود ابراهيم متصلا بمن بعده ، لأنها سلالة من دعوات لا
يتصورها العقل على غير مثالها الفريد فى تواريخ الأديان
ولولا أن الشكوكيين باسم البحث والنقد يعملون عمل الآلات فى
شكهم ، وفى بحثهم وتقدهم ، لفهموا أن الشخصية الخرافية جائزة فى نظام
الكهانات أو نظام هياكل الدولة ، لأنها نظم قائمة على «موظفين» دينيين ،
بحل أحدهم محل الآخر بلا اختلاف ، ولكن الدعوة النبوية على المثال
الذى بدأ به الخليل ابراهيم هى عمل لا غنى فيه عن الشخصية الحقيقية
ولا عن التابع الذى ينعقد بين الشخصيات من سلالة واحدة ، وما من
حلقة فى هذه السلسلة الحية الا وهى تتطلب الحلقة التى قبلها والتى
بعدها على السواء ..

كانت دعوة ابراهيم هي الفتح الجديد في تاريخ العقيدة فلم يبدأ ابراهيم عقيدة التوحيد ، ولم يبدأ عقيدة الفداء ، ولم يبدأ عقيدة البقاء ، ولكنه بدأ بالدعوة النبوية فاصطبغت العقائد بصبغتها ، حتى كأنها لم تسمع قط قبل ذلك في عهود الكهاناث والهياكل وقد أصابت النكسة كل عقيدة نادى بها الخليل قومه في عصره ، فاقبلوا الى عبادة الأصنام وجهلوا سر الفداء وسر البقاء ، ولكن البداية قد بدئت وسارت في طريقها ، ولولا أنها بدئت لما تبين أحد موضع النكسة فيما بعد ذلك ..

كان توحيد ابراهيم ايمانا باله يعلو على ملوك الأرض ونجوم السماء ، ويتساوى عنده الخلق جميعا ، لأنه أعلى من كل عال في الأرضين أو في السماوات . ولكنه قريب من كل انسان ولم يكن « يهوا » اله ابراهيم ، لأن قوم ابراهيم لم يذكروا يهوا من بعده قبل خروجهم الى سيناء ، كما صرحت بذلك كتب التوراة الأولى ولكنه كان هو الاله « الاليل » واليه ينسب ابنه اسماعيل وكان هو العلي « عليون » وعلى محرابه قدم قربانه الى ملكى صادق بعد نزوله بكنعان

فهو اله لا فرق عنده بين وطن قديم أو وطن جديد ، ولا فضل لديه لعشيرة ابراهيم على عشيرة ملكى صادق ، ولا على غيرها من عشائر بنى آدم ، بغير التقوى والايمان ان هذا التوحيد قد رفع مكانة الانسان في ميزان الخليقة ، فليس في الكون الا خالق ومخلوق ، وهو أشرف مخلوق عند الله ، بفضيلة واحدة : وهي فضيلة الضمير الذى يميز بين الخير والشر ، وعمل الخير هو وسيلته الى الله ..

جاء ابراهيم في مفترق الطريق بين استباحة القرابين البشرية وبين تحريمها .. ولكنها لم تحرم لأنها أعلى من أن تقدم ..

وانما حرمت لأن الله أرحم وأكرم ..
 ورأى ابراهيم في رؤياه أنه يتوهم بذبح ابنه ، أعز ما في الحياة عنده
 رأى ذلك وهو يعلم ان الأرباب تتقاضى عبادها مثل هذه الضحية ،
 وأن تقرب الأوائل من الأولاد والأوائل من كل نتاج حق مفروض على
 كل أسرة لرب الأوثان والأصنام .. أياكون ابراهيم أبخل على ربّه من
 عابد الوثن ؟ .. أياكون الوثن أحق بالضحية من خالق الأرض والسماء ؟
 أيرتاب ابراهيم في أمر الله وهو ينظر الى شريعة العبادة من حوله ، وان
 كانت شريعة شر وضلال !

ان العصيان هنا نزول بالاله الأعلى عن مرتبة الأوثان والأصنام
 فلتكن الطاعة تنزيها للاله الأعلى عن ذلك الاسفاف ، ويفعل الاله
 بالآباء والبنين ما يريد

قال حكيم من حكماء الغرب (١) أن الدين هو الأمر الوحيد الذي يحق
 له أن يأمر الانسان بما يناقض الأخلاق ، لأنه يرفعه أوجا بعد أوج في
 معراج الخلق الشريف .. ان ذبح الأب وليده تقيض الرحمة
 ولكن ايمان الانسان بعقيدة أعز عليه من ولده ومن نفسه غنيمة أقوم
 وأعظم من رحمة الآباء للأبناء

فلا ينبغي أن يرضن الانسان بشيء في سبيل هذه العقيدة
 ولا ينبغي أن يبطل القربان بالانسان لأن الله لا يستحقه كما استحقته
 أوثان الجهالة ، بل يبطل لأن الله أرحم وأعظم من أن يتقبله ، فهو أعظم
 وأكرم من الأوثان
 وارتفاع الانسان بهذه العبادة هو ارتفاع آخر يضاف الى ارتفاعه
 بالتوحيد والتنزيه ..

ارتفاع من جانب القوة لا من جانب الضعف ، وسمو" بالرحمة
 وبالعبادة الى أعلى عليين ..

قلنا عن أيوب عليه السلام ان حياته كانت تربية دينية من تجاربها
 الأولى الى ختامها ، فعلم في ختامها ما لم يكن يعلمه في أولها ، ولم يذكر

(١) كيركجارد الدنمركي Kierkegard (١٨١٣ - ١٨٥٥)

البعث حين كان يتمنى الهبوط الى الهاوية التي لا يصعد منها من هبط
انيها ، ولكنه ذكره بعد اختبار طويل وبلاء شديد ، فقال : « بعد أن
ينفى جلدى هذا ، وبدون جسدى أرى الله .. »
ويصدق هذا القول على حياة ابراهيم فى عقائده جميعا ، لأنه اختبر
حياة الشرك واختبر شعائره وفرائضه ، وخلصت له الهداية بالخبرة
والهداية الالهية ..

وأصدق ما يكون ذلك على البعث خاصة ، فانه لمن مواضع التأمل أن
يكون ابراهيم هو النبي الوحيد الذى ذكر القرآن الكريم أنه سأل ربه
كيف يحيى الموتى : « واذ قال ابراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى قال
أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى .. »
ولم يرو القرآن الكريم خبرا كهذا عن نبي غير ابراهيم ، فانه اذن لمن
مواضع التأمل التى ينبغى أن يلتفت اليها من يصطنعون الاستقصاء ،
باسم العلم والتاريخ ..

فالحق ان عقيدة البعث خفية فى كتب التوراة ، وان خفاءها هذا
دليل على أنها بقيت زمنا بعد ابراهيم مجهولة غير مفهومة
وإذا اعتمدنا البحث التاريخى وحده لم يجز فى العقل أن يكون ابراهيم
قد ذهب الى مصر وعاد منها ولم يسمع بعقيدة الحياة بعد الموت

فمن ذرية ابراهيم يوسف وقد كان له صهر فى كهان المحاريب المصرية ،
ومنهم موسى وله علم بمدارس مصر وأسرارها ، وغير معقول أن يكون
ابراهيم قد خرج من أرض الكلدان الى مصر ولم يخطر له أن يسأل
حكماها فى أمر العقيدة ، وقد كانت فى الوجه البحرى حيث تنزل
القبائل الوافدة - محاريب كثيرة يتقرب منها ملوك الرعاة ويشتركون فى
شعائرها مع رؤساء الدين ..

فلا يجوز فى العقل أن يكون ابراهيم قد ذهب الى مصر وعاد منها ولم
يسمع بعقيدة الحياة بعد الموت ، وأصوب من هذا أن نفهم ان كتب
العهد القديم دونت بعد السبى أو نفى اليهود الى بابل ، فطال العهد

بينها وبين دعوة ابراهيم ، وطالت عصور النكسة بعد اختلاط العبادات الالهية والوثنية ، ومنها عبادات بعل وعشتروت

وساعد على خفاء العقيدة بالحياة بعد الموت انها لم تورث من ابراهيم مفصلة منتظرة عن سابقة متتابعة ، فجاز أن يكتب المدونون في سفر الجامعة : « ان ما يحدث لبنى البشر يحدث للبهيمة .. كلاهما من التراب والى التراب يعود . من يعلم روح بنى البشر هل هى تصعد الى فوق ، وروح البهيمة هل هى تنزل الى أسفل . الى الأرض .. ولا شئ خير من أن يفرح الانسان بأعماله . لأن ذلك نصيبه .. »

واقضت قرون قبل أن يسمع من دانيال « ان الراقدين فى تراب الأرض يستيقظون : هؤلاء للحياة الأبدية وهؤلاء الى العار .. »

وجاء عصر السيد المسيح ولما ينحسم الخلاف بين طوائف بنى اسرائيل التى تقول بالحياة الأخرى وطوائفهم التى تنكرها وتتحدى المؤمنين بها أن يؤيدوها بسند من كتب التوراة . وضرب السيد المسيح المثل بالعازر والرجل الغنى ، وفيه اشارة الى النعيم والعذاب بعد الموت ، فكان عقيدة من عقائد الأناجيل لم تنقرر على هذا الوجه فى كتب التوراة

وقد مضى زهاء عشرين قرنا بين عصر ابراهيم وعصر المسيح ومضى زهاء أربعين قرنا بينه وبين هذا الزمن الذى غلب فيه أتباعه على أقطار الدنيا .. ولكن أمرا ابتدئ قبل تلك القرون لم يكن لينتهى الى هذه النهاية لو لم يبدأ ذلك الابتداء ..

ولم يكن ذلك الأمر عقيدة التوحيد أو عقيدة الفداء أو عقيدة الثواب والعقاب ، فقبل ذلك ما سمع الناس بتلك العقائد على نحو من الأنحاء .. وانما سُمى أبا الأنبياء لأنه كان رائد الدعوة النبوية فى العالم الانسانى بأسره ، وكأنها الرسالة الخاصة من خالق الكون الى كل مخلوق من بنى آدم وحواء ..

المعجزة

قلنا في صدر هذه الرسالة ان الاهتداء الى عقيدة التوحيد كان فتحا علميا صحح نظر الانسان الى الكون والحياة ولم يكن قصاراه^(١) أنه فتح ديني يصحح ايمانه واعتقاده ... « لأن حقائق الكون الكبرى لن تنكشف لعقل ينظر الى الكون كأنه أشتات مفرقة بين الأرباب ، يتسلط عليها هذا بإرادة ويتسلط عليها غيره بإرادة تنقضها وتمضى بها الى وجهة غير وجهتها ، فلم يكن التوحيد عبادة أفضل من عبادة الشرك وكفى . بل هو علم أصح ونظر أصوب ومقياس لقوانين الطبيعة أدق وأوفى ... »

ونقول في ختام الرسالة ان الايمان بإمكان المعجزة فتح كفتح عقيدة التوحيد ، لأنه يخلص العقل من حجر الحالة الواحدة التي تغلق عليه أبواب الاحتمال غير باب واحد ، هو الواقع المحدود كما يراه ان عقل الفيلسوف « ديكارت » قد نظر في الممكنات والمستحيلات فتقرر عنده ان تغيير الحقائق الرياضية نفسها ممكن غير مستحيل ، وان تغيير العقل الذى ندرك به تلك الحقائق ممكن كذلك غير مستحيل

وعلماء العصر قد تخلصوا من ربة^(٢) القوانين التي سميت زمنا بقوانين الطبيعة ، ووقر في أذهان أجيالها أنها تقييد الظواهر الطبيعية ، فلا يستطيع العقل أن يفسرها بغيرها ..

فالقانون الطبيعي اليوم فرض من فروض ، وقد تصلح الجاذبية زمنا لتفسير حركات الأفلاك ، ثم تأتى النسبية فيثبت لبعض العلماء أنها أصلح لتفسيرها من الجاذبية . ومهما يبلغ من دقة القانون الطبيعي فهو لا يحصر كل حقيقة ولا بد من جزء غير محصور موكول الى التقدير والترجيح والايمان بإمكان المعجزة نظر متصرف يصل اليه المؤمن بعقيدته ولم يبلغ مبلغ ديكارت في عمق الفلسفة أو مبلغ العلماء في تمحيص القوانين الطبيعية .. فاذا سأل سائل : هل يمكن أن تجرى المادة على غير هذه

(١) قصاراه : القصارى : الغاية والمدى . (٢) ربة : الربة بكسر الراء

عروة في حبل تجمل في عنق البهيمة أو يدها تمسكها .

الصورة ؟ فالذى يقول بالامكان أصدق نظرا ممن يجيب بالاستحالة والامتناع ، وأصوب فى وزن الكون جملة واحدة ممن يفرضون عليه صورة محدودة من أقدم آباده الى غاية آزاله ، ان كانت للآزال غاية .. فالمعجزة ممكنة وليست بمستحيلة

لأن مواد الكون كله ترجع الى أصل واحد ، وليست خصائص هذه المواد مجعولة فيها بارادتها وليست كل خاصة منها مستقلة عن سائرهما ، فاذا جاز أن يتشكل الأصل الواحد بجميع هذه الأشكال باختلافها جائز فى أحوال غير هذه الأحوال ، ولا وجه على الاطلاق للجزم باستحالة هذا الاختلاف .. ان الذى أودع فى الأصل الواحد كل هذه الصور قادر على أن يودعه صوراً أخرى .. وعلى الذى يجزم بالاستحالة أن يقيم الدليل . أما القائل بالامكان فالواقع هو دليله الذى يقيس عليه

فليس المقياس الحق للمعجزة أن تسأل : هل هى ممكنة أو غير ممكنة ؟ كلا بل المقياس الحق أن تسأل عن حكمتها ولزومها ، فان الذى يدبر الكون كله يتنزه عن العبث ، فلا يصنع شيئا لغير حكمة ، ولا تفوت هذه الحكمة ادراك الناس ما داموا هم المقصودين بادراكها

ذلك هو مقياسنا للمعجزات ، وذلك هو المقياس الذى اعتمدها فى كتابتنا عن الرسل والدعوات الدينية ، وخلاصته التى نعيدها فى هذه السيرة ان دعوة ابراهيم تفسرها حوادث عصره وتاريخ قومه من قبله ومن بعده ، وارادة الله فى هذه الحوادث هى ارادة الله فى كل معجزة ، فليس فى القول بهذه أو بتلك اخلال بقدرة الله على جميع الحالات

ونحن لا نستحسن أسلوب المفسرين الذين يفترضون الفروض لتيسير قبول المعجزة ، فان المعجزة متى وقعت لا بد أن تكون معجزة ، ولا بد أن يكون الناس فى النظر اليها بصراء بحقيقتها غير مخدوعين فيها فالايمان الصحيح ان المعجزة ممكنة ، والايمان الصحيح انها ممكنة لحكمة ..

ومن الحق أن نبرز حكمة الله فى الحوادث كما نبرزها فى المعجزات ، وهذا الذى نصنعه فى دراسة الدعوات الدينية ومنها دعوة الخليل

خاتمة المطاف

وينتهي المطاف بقصة الخليل الى العصر الحاضر
ينتهي الى العالم الحديث وفيه ألف مليون انسان ، يقرأون قصتهم
وقصة آباؤهم وأجدادهم في العقيدة الالهية حين يقرأون قصة الخليل
ومن مبدئها كان مبدؤهم في الايمان بالوحدانية
ومن مبدئها وهي تمتزج بكل ما استطاع آباؤهم وأجدادهم أن
يمزجوها به من صوابهم وخطئهم ، ومن علمهم وجهلهم ، ومن صدقهم
ووهمهم ، ومن أفكارهم وأساطيرهم ، ومن كل ما يفقهون وما لا يفقهون
تراث ضخمة غاية في الضخامة
فكيف انتهى به المطاف بعد أربعة آلاف سنة أو دون ذلك أو فوق
ذلك بقليل ؟ ..

كيف توزن كفتاه : كفة الصواب والعلم والصدق والانكار ، وكفة
الخطأ والجهل والوهم والأساطير .. ؟
انها النفس البشرية بما لها من قوام صالح وغير صالح
وانها لن تنفصل شطرين يوضع أحدهما في كفة ويوضع الآخر في
كفة تقابلها ..

بل خذها جملة أو ابذها جملة ، ووازن بين الغنم والخسارة في
الحالتين ..

ومن يفتن لما حوله يفتن لهذا الشأن في كل عقيدة عظيمة وكل فكرة
عظيمة وكل فاتحة عظيمة تتلوها الخواتيم على قدرها من العظمة
فالنوع البشرى لم يشرب قط فكرة عظيمة مع جرعة ماء ، ولم
ستكمل عقيدة عظيمة بين ليلة وصباح

وندع الغيب وعلوم الأبد وننظر الى الدنيا المشهودة ومادتها التي تتناولها الأيدي كل يوم
 فمن أقدم القدم نظر الانسان في بنية المادة ، ثم انقضى عشرون ألف سنة يصيب فيها ويخطيء ، ولما يدرك خصائص الذرة جميعا ، ولما يفقه من خصائصها التي عرفها سرا لها وراء القشور
 وندع الزمن وتياراته الخفية ، وننظر الى المكان وتياراته التي تقاس وتكامل ..

يهبط ماء النيل ماء طهورا من السماء ، ويخترق الثرى فيأخذ من كل ما فيه من تراب وأذى ومن صفاء وكدر ، ويستفاد من الخليط كما يستفاد من الصفاء ..
 وهكذا كل ما يعبر طبيعة الانسان وطبيعة الأرض ، وطبيعة الدنيا وما فيها من أتربة الزمان وأتربة المكان ..

تقبلها جملة أو ترفضها جملة ، وتوازن بين الغنم والخسارة في الحالتين وازعم ان شئت انه غنم أنت مخدوع فيه ، ولكن تزعم أيضا أنك مخدوع في حب حياتك فليست هي أفضل حياة . مخدوع في حب نسلك فليس هو أولى بالبقاء من جميع الأحياء .. مخدوع في هذه الألوان والأصوات فليست هي ألوانا ولا أصواتا ولكنها هزات في الفضاء أو هزات في الهواء ، وأنت مع هذا لاتعرف شيئا ما لم تعرفها بهذه الأسماء .. ولقد مرت بنا في أبواب هذه الرسالة أخلاط من طبائع الملايين يمزجون بها عقائد الروح وأقداس انضيمير ، ولا ينفصل المزيج من المزيج في روح ولا في ضمير ..

من يقبلها جملة يبقى له تاريخ الانسان كما كان وكما هو الآن
 ومن يرفضها جملة ماذا يبقى لديه ؟
 ان عليه أن يذكر ماذا يرفض ليذكر ماذا يبقى
 انه لا يرفض الدنيا بتواريخ الدول والحضارات وكفى

انه ليرفض هذه ويرفض معها كل بارقة أمل ، وكل نفحة عزاء ، وكل هاجسة سر ، وكل ركن من أركان الثقة والعزيمة أخذه الانسان من الدين وأخذ منه أعمالا وأحلاما وخلائق وأطوارا وبواعث وأفكارا لا تحصيها الأوراق كما تحصى تواريخ الدول والحضارات
 ولا يزال في جوانب الأرض من يعبد الحجر ...
 ولا يزال في جوانب الأرض من يقدر النار من الحجر ...
 ولا غضاضة من هذا وذاك على ودائع الكهرباء في الكون ، ولا على عقيدة التوحيد في أعلى مراتب التنزيه
 وان في العالم اليوم لمن يعيش فيه وكأنه لم يولد فيه انسان يسمى ابراهيم

وربما بقى في العالم شبيه هذا الرجل بعد ألف سنة
 بل ربما كان هذا الرجل خيرا من ألوف يضلون بالنبوءات والأنبياء
 حيث يهتدى المهتدون
 ولكنهم يسقطون من الحساب
 ويذكر في الحساب ألوف الملايين في مائة جيل ، يقرأون قصة ضمائرهم
 حين يقرأون قصة انسان واحد مضى ولم يمض لسبيله ، بل مضى على
 سبيله دعاة وهداة ، ولا يزالون ماضين وحاضرين
 أليس هذا الانسان حبيب الانسان ؟
 أليس هذا الانسان حبيب الرحمن ؟

فهرس

صفحة	
٥	خليل الرحمن و خليل الانسان
١٥	المراجع الاسرائيلية
٣٤٠	تعقيب على مراجع العهد القديم
٥٠	المراجع المسيحية
٧١	المراجع الاسلامية
٨٨	مراجع الصابئة
٩٥	مصادر التاريخ القديم
١١٠	تذييل
١٢٠	الأحافير والتعليقات
١٣١	اللغة
١٣٨	مدن القوافل
١٥٣	النبوة
١٥٩	أنبياء من غير بنى اسرائيل
١٦٤	العقائد والشعائر
١٧٩	الخلاصة
١٨٣	العصر
١٨٦	النشأة
١٩١	الجنوب
١٩٧	الرسالة
٢٠٢	المعجزة
٢٠٤	خاتمة المطاف

ان المكتبة العصرية في صيدا وبيروت لها جميع حقوق طبع ونشر كتب الأستاذ عباس محمود العقاد في لبنان وسائر البلاد العربية ما عدا القاهرة ، والكتب هي :

٧٠٠	حياة المسيح	٦٠٠	عبقرية محمد
٨٠٠	حياة قلم	٨٠٠	عبقرية عمر
٧٠٠	حياة ابن الرومي	٧٠٠	عبقرية خالد
٦٠٠	الحسين أبو الشهداء	٦٠٠	عبقرية علي
٥٠٠	الحرب العالمية الثانية	٦٠٠	عبقرية الصديق
٥٠٠	خلاصة اليومية والشذور	٦٠٠	عثمان بن عفان
٤٠٠	خواطر في الفن والقصة	٧٠٠	عمرو بن العاص
٥٠٠	داعي السماء / بلال	٤٠٠	سعد بن أبي وقاص
٥٠٠	رجعة أبي العلاء	٥٠٠	جحجا
٥٠٠	الرحالة عبد الرحمن الكواكبي	٥٠٠	معاوية بن أبي سفيان
٦٠٠	ساره	٦٠٠	الفلسفة القرآنية
٢٠٠٠	ساعات بين الكتب	٥٠٠	مطلع النور
١٠٠٠	شاعر أندلسي وجائزة عالمية	٦٠٠	التفكير فريضة اسلامية
١٢٠٠	الشيوعية والانسانية	٦٠٠	الانسان في القرآن
١٠٠٠	عقائد المفكرين	١٤٠٠	ابن الرومي
٩٠٠	الفصول	٨٠٠	ابليس
٤٠٠	المرأة ذلك اللغز	٨٠٠	ابراهيم أبو الانبياء
٥٠٠	المرأة في القرآن	٧٠٠	أبو النواس
٥٠٠	هتلر في الميزان	١٠٠٠	أنسا
٦٠٠	مراجعات في الادب والفنون	٦٠٠	فاطمة الزهراء والفاطميون
١٢٠٠	يسألونك	٨٠٠	ما يقال عن الاسلام
٦٠٠	القرن العشرين ما كان وما سيكون	١٠٠٠	الاسلام في القرن العشرين
٤٠٠٠	مجموعة اعلام الشعر	٥٠٠	الامام محمد عبده
٦٠٠	مطالعات في الكتب والحياة	١٠٠٠	بين الكتب والناس
٨٠٠	هذه الشجرة	٨٠٠	التعريف بشكسبير
٨٠٠	لا شيوعية ولا استعمار	١١٠٠	حقائق الاسلام

جميع المراسلات باسم المكتبة العصرية للطباعة والنشر

لصاحبها: شريف عبد الرحمن الأنصاري

بيروت - ص ٥ ب : ٨٣٥٥ - تلفون : ٢٣٧٥٤٥

مجموعه

توحيد وانبيا

الله
ابراهيم
ابو الانبياء

حياة المسيح

عيسى بن مريم
في التاريخ وكشف القصر الخفي

مطلع التور

طريق البصيرة المحمدية

Maged